







كان وأخواتها مشاهد حيث تاريخ مصر الصديث

تأليـــف **جمسال بسدو**ی الطبعـة الأولى اكتوبــر ١٩٨٢

رسوم الغلاف بريشة الفنان نسيم خطوط الغلاف بقلم : محمود ابراهيم حروف الجمع على اجهزة الجمع التصويرى بالوفد : الطبع على ماكينات مؤسسة انترناشيونال برس

To: www.al-mostafa.com

إهـــداء إلىروح الزعيــم

معسطني النحساس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه .. إلى روح الزعيم الذى افنى عمره فى خدمة وطنه .. ثم غادر الدنيا ـ كما دخلها ـ طاهرا من الرجس .

هذا الكتاب بقلم محمد فؤاد سراج الدين رئيس الوفــــد

قرأت هذا الكتاب مرتين ، المرة الأولى على حلقات أسبوعية في باب «كان وأخواتها » في صحيفة الوفد الذي يحرره الأستاذ جمال بدوى مؤلف هذا الكتاب وذلك على مدى خمسة وسبعين أسبوعا متتالية ، والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات في ملازم وأعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التي انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث بدءا من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذي عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ونجح تماما فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائما الموضوعات التاريخية.

ولاشك أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعمد المسئولون تجهيله به في معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

ان ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب المصرى يعتبر جريمة لا تغتفر لابد أن يحاسبوا عليها اشد الحساب.

لقد وفق الاستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ، عندما وصفه بانه « مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث » . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الاحداث القديمة التى مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس وإن كان معظمهم يجهلونها أو يجهلون معظمها لأن أحدا من الكتاب .. قبل جمال بدوى .. لم يهتم بعرضها والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت في اشد الحاجة اليه ويذكر لصاحبه بالفضل ويزيد من فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات ، فالقارىء ايا كان شيخا او شابا في أشد الحاجة إليها . وإنى واثق بأن هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها في تنوير المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال مصر الأوفياء بعد أن أزال عنهم جمال بدوى غبار الجحود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل في سبيل مصر الخالدة .

● مقــدمة ●

بين يدى القارىء

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث يسعدني ان أضعها بين يدى القارىء الكريم لكى ينتفع بها وتساعده على تفسير أمور كثيرة تجرى من حوله ، فأنا لم أكتبها بهدف تسلية القارىء أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إرعاجه حتى يعرف نفسه ، وعندما أمسكت بالقلم لأكتب هذه المشاهد فإننى ما تخيلتُ نفسى شاعرا بربابة يحكى لرواد مقهاه أمجاد أبى زيد الهلالي ومغامرات الزناتي خليفة .. ولا تخيلت نفسى مدرسا يلقن تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبنى الهرم الأكبر .. أو شجاعة أحمس وهو يطارد الهكسوس في قفار آسيا .. ولكني عرفت نفسي واحدا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مِدْماكا فوق مدماك ، وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطر وبيبرس ومحمد على .. وأمسك الفاس ليشبق ترعة المحمودية والابراهيمية والاسماعيلية ليعم الرخاء والنماء أرض مصر .. ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعى انه سيكون هدفا للغرب والشرق.

لم يكن همى عند كتابة هذه المشاهد تسجيل امجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر، فكتبُ التاريخ تغيض والحمد شد بهذه المعلومات، ولكن كان همى هو البحث عن اثر هذه الأحداث القديمة في المصريين المحدثين، لإيماني بأن تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة، وأن احداث اليوم هن بنات الأمس، ولاقتناعي بأن احداث التاريخ تجرى بقوة دفع مطرد .. فكل حادث يملك في داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الامام فيتولد منه حادث جديد مشابه له في الشكل ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون ..

وهكذا .. تسير ـ دوما ـ عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة المشهورة بأن التاريخ يعيد نفسه .. فهى مقولة تخالف طبيعة الأشياء ، وتناقض حركة الحياة التي تسير في خط مطرد نحو الأمام .. ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء لكان شانها شان عقارب الساعة إذا دارت في عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة ..

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذي عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم ، فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد في الحالين ، ولكن الحالة النفسية التي كان عليها المصرى مختلفة: فهو في الأولى تحرك بدافع العقيدة التي تتحدث إليه عن قدسية الملك ، أما في الثانية فقد تحرك بدافع من الكرباج .! فلو وصفتُ ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه ، لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك .. وأن المصريين متجمدون .. أو متحركون على إيقاع «مُخلُك سِنْ» وهو إيقاع يقضى على الكائن الحي بالضمور والانقراض. وهناك بالطبع، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت ، والتاريخ يدلنا على امم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى ، ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصربين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ الاف السنين ، واستطاعوا ان يقاوموا عناصر الفناء، ومن هنا نشات خصيصة التواصل التاريخي عند المصريين ، وهي خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة معاصرة ، فأنت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو أسبانيا أو المجر .. لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخي في تلك البلاد .. ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التي تعيش الآن فوق هذه الأراضي هي احفاد الشعوب التي كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها.

● ولكن .. برغم الهجرات والغزوات العديدة التي تعرضت لها مصر ، فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم

الاحتماعية والسياسية ، فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدّل الدين ، ويتحول اللسان ، ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم .. وعاداتهم وتقاليدهم .. ولا أقول نقاء عنصرهم ، لأن نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحّت بالنسبة للشعوب المغلقة التي تعيش في أدغال إفريقيا أو فنافى أسيا أو على حافة المحيط المتجمد .. فإنها لا يمكن أن تصم على شعب يشغل قلب العالم، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الأربعة .. فقد كان أمرا مقضيا أن يختلط يشعوب اخرى ، بل اقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكسب العنصر المصرى ـ إن صبح هذا التعبير ـ صفات وراثية قوية على النحو الذي يعرفه علماء الاجناس والسلالات، وهذه الميزة حُرِمَت منها العناصر المتعجرفة التي عاشت في مصر أسيرة نقاء العنصر، فذوت وضعفت حتى انقرضت، وأنت تستطيع أن تجد ذلك إذا بحثت عن أحفاد العناصر التركية المتغطرسة التي استوطنت مصر ولكن بمعزل عن شعبها، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكرا ، على عكس القبائل العربية التي اختلطت وامتزحت فكتبت لنفسها البقاء .

وهذه الخصيصة التي يتمتع بها التاريخ المصرى - خصيصة التواصل والاستمرار - هي التي جعلتني افسر أمورا معاصرة بأحداث قديمة ، وخصوصا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير تفسير القضية في ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تأصيلها تاريخيا وربطها بالظروف العملية التي حثّمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الري على زراع الأرض .. ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وأنظمة .. فنشأ عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التي تفرض سلطانها بقوة القهر ، ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النباء .. وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والإحداث المتشابهة من تاريخ مصر حتى لو باعدت

بينها آلاف السنين ، ورغم أننى أضع بين دفتى هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا أننى أدعو القارىء الكريم إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار ، فينُقّب في بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد وجنورها المدفونة في تربة مصر منذ فجر التاريخ الانساني ، عندئذ سوف تكتمل أمامه أجزاء الصورة ، وتتصل حلقات السلسلة التي أشَرْتُ إليها في صدر هذا الحديث ، عندئذ يعرف المصرى نفسه .. ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي تتزاحم بها أحداث اليوم .. وهذا هو الهدف الرئيسي من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة .. فسوف يجد القارىء الكريم أننى أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهى مسالة يهتم بها كُتَاب التاريخ ، وكان من السهل أن أفعل ذلك .. ولكنى وجدت ذلك سيبدو عملا مظهريا ، فما أسهل أن أسجل أسماء مئات الكتب التى رجعت إليها .. ولكننى لم أفعل لأننى لا أكتب رسالة جامعية تحتم على ذكر مصدر الحدث ، ولكنى أقدم تحليلا للحدث نفسه .. ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر إذا كان الأمر يتعلق بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع في عديد من الكتب ، ولكنى تعمدت ذكر المرجع حين كان الأمر يتعلق برأى أو وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، أو تستخلص منه نتيجة بعينها .. فهي ملك لصاحبها وحده .

• وفاء وعرفان •

وفى ختام هذا التقديم فإن واجب الوفاء يقتضينى أن اتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكتّاب الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة ، فقد افدت منهم وتعلمت على ايديهم الكثير . كما اتقدم بخالص التقدير والاحترام للاستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد الذى جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملا مؤكدا في عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عاما ، وكان ظهور جريدة ،الوفد، فرصة

ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت مثار مناقشات مثمرة بينى وبين هذا الزعيم الذى يحفظ فى ذاكرته وعقله ادق الأسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .

ويسعدنى أن أقدم امتنانى إلى أخى وصديقى وزميلى مصطفى شردى رئيس تحرير «الوفسد» الذى أتاح لهذا الباب التاريخى «كان واخواتها» أن يحتل مكانا مرموقا على صفحاتها منذ عددها الأول. كما لا يفوتنى أن أشيد بملاحظات الأصدقاء والأخوة الذين لم يبخلوا على بعبارات التشجيع التى كان لها أبلغ الأثر في تقويم هذه المشاهد وإظهارها في أكمل صورة. وارجو أنه أن يعدني بعونه حتى استطيع مواصلة الرسالة التى احملها بين جنبي تجاه بنى وطنى.. إنه سميع مجيب.

جمال بسدوى

مصر الجديدة أكتوبر ١٩٨٦

عنزة السيدة نفيسة

سات

المجتمع المصرى، خلال العصرين المملوكي والعثماني فها للخرافات والخزعبلات والاساطير التي كانت تنسجها عقول خبيثة تستغل سداجة الناس وضحالة وعيهم وتستنزف ما في جيسوبهم

وضحالة وعيهم وتستنزف ما في جيسوبهم وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم أن عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها واخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات وتحذرهم من ارتكاب الموبقات وتطورت القصة بعد أن تناقلتها السنة العوام فاضافوا اليها بعض التوابل والمشهيات واكتملت لها عناصر الاثارة والتشويق واستقرت القصة في الشارع المصرى على النحو التالى كما رواها الجبرتي:

كان بعض الجند المصريين قد وقعوا اسرى الحرب في بلاد الفرنجة ، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها في مجلس الذكر الذي عقدوه قربانا الى الله كي يفك اسرهم ويعيدهم الى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على امرهم ابى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضىي بها الى بيته ، فلما أوى الى فراشيه رأى في منامه رؤيا مزعجة فادرك على الفور أن العنزة مباركة ، فلما أشرق الصباح اعاد العنزة الى الجند ثم اطلق سراحهم وزودهم ببعض المال كي يستعينوا به على الرحيل الي بلادهم ، فاستقلوا مركبا الي مصر ومعهم العنزة المباركة ، فلما بلغوا القاهرة ذهبوا من فورهم الى مسجد السيدة نفيسة وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها وفي الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة وسمعوها تكلم الناس، وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبداللطيف ادرك الفائدة العظمى التي ستعود عليه من ترويج قصة العنزة فأشاع بين رواد المسجد ان السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها واوصته بالعنزة خيراً ، وذاعت الخرافة بين اهل القاهرة فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها والتبرع لها بما تجود به اريحيتهم وانفتح باب الرزق الرغيد امام الشيخ عبداللطيف فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة ادناها الرؤية المجردة واعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها، وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف فكان يخبرهم بأن العنزة لا تاكل الا قلب اللوز والفستق ولا تشرب الا ماء الورد المحلى بالسكر المكرر، فيحمل الناس اليه أطنانا من هذا وذاك حتى تكدست لديه اكوام من اطايب الطعام والشراب، وبلغت القصة مسامع الاميرات وزوجات الكبراء والقادة فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والاقراط والاساور ويبعثن بها الى الشيخ عبداللطيف ليزين بها جسد العنزة المباركة.

. . .

وكان الامير عبدالرحمن كتخدا من اشد الامراء حزما وحسما واكثرهم وعيا ورفضا لهذه الخزعبلات فأرسل الى الشيخ عبداللطيف يرجوه ان يتعطف بزيارته في قصره وبصحبته العنزة حتى يتمكن اهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها ، وسعد الشيخ عبداللطيف بهذه الدعوة التي ستفتح امامه قصور الامراء والكبراء .. وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة فتجمع ارباب الطرق الصوفية في موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة الي قصر الامير كتخدا المجاور لمسجد احمد بن طولون وامتطى الشبيخ عبداللطيف بغلته وحمل العنزة في حجرة تحيط به الإعلام والبيارق وتتقدمه الطبول والزمور .. وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبة وسوق السلاح والناس يتجمعون من كل انحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة وهي تتربع في دهشة من هذا الحشد الغريب ولا تدرى شيئا مما يدور حولها حتى اذا بلغ الموكب باب القصر نهض الامير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستاذن الأمير في ان تمضى العنزة الى جناح الحريم فرحب الشبيخ عبداللطيف واعطاه العنزة فحملها الخدم الى المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون الى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبداللطيف مكانه في صدر المجلس يروى للامراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة .

. . .

وحان موعد الغداء فامر كتخدا بمد السماط، فدخل الخدم يحملون اطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى .. وانهالت ايدى الامير وضيوفه تنهش اطليب اللحم .. وبين الحين والحين كان الامير يحث الشيخ عبداللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل يشيخ عبداللطيف هذه القطعة السمينة .. فيلتهمها

الرجل ممتنا .. والأمراء من حوله يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم ، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة فنهض الشيخ عبداللطيف مستاذنا في الانصراف ومعه العنزة . فقال له الامير عبدالرحمن .. اى عنزة تقصد ؟؟

فقال خادم المسجد: العنزة المباركة التي دخلت جناح الخريم!

فقال الامير: العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا .. ولكنها دخلت بطنك ياكلاب .. يافاجر .. ياافاق .. وهذا دليل على ضلالك المبين .

. . .

وبهت الرجل من هول المفاجاة التي وقعت على راسه كالصاعقة .. وحاول الافلات بجلده .. ولكن الامير امسك بخناقة وامر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه .. ثم امر بجلد العنزة فطرحه على عمامته وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة لغيره من الافاقين والنصابين الذين يحتالون على الناس بالاساطير التي تستغل عواطفهم الدينية .. والدين منها براء .

ياخنى الألطاف

الثانى والعشرين من اكتوبر ١٧٩٨ انطلقت اول قنبلية من المدافع الفرنسية المتبتية في حصون القلعة، فسقطت في صحن الأزهر وتناثرت شطاياها ففتكت بالجموع التي احتشدت فيه ، ثم توالي سقوط القنابل حتى أوشكت جدران الجامع أن تتداعى على الإشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من أعالى القلعة فيدمر الاحياء المجاورة للجامع العتيق، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر في حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية ، وإلى رحابه لجا الثائرون ، فاصبح بؤرة للوطنية المتأججة الى جانب كونه معقلا للعلم والدين . وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الايوبي على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبي على الحدود الشرقية، وربطها بحزام من الاسوار والابواب الضخمة التي لاتزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولى وباب النصر وفم الخليج .. ولكن القلعة لم تستخدم ابدا في تحقيق الهدف العسكرى الذي انشئت من اجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة في صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءا بالجيش العثماني ، ومرورا بالحملة القرنسية، وانتهاء بالقوات البريطانية التي زحفت على القاهرة بعد اخماد الثورة العرابية وهزيمة الجيش المصرى في التل الكبير .. !! فيم إذن فائدة القلعة ..

لقد استقر في عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، انها لم تكن أكثر من حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب اذا فكر في التمرد او العصيان .. فالقاهرة بحكم موقعها على راس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هي مفتاح الحكم في مصر ، من يملكها يملك مصر كلها ، ومن يملك القلعة يملك القاهرة ، وكانت الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على امرهم ، فالقلعة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على امرهم ، فالقلعة ترقد في عليائها وقفة الشموخ والتحدى ..بينما العاصمة ترقد في

سلامة وطمأنينة على ضفة النيل وبين أحضان الروابي الخضر التي تحيط بها .. تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا ينامون .. عيونهم دائما مفتوحة على المجهول .. وترصد كل مايجرى في الأزقة والحوارى المكدسة تحسبا لما يخبؤه الغد . ولقد ادت القلعة الغرض الحقيقي منها .. ووفرت عنصر الأمان لحكام مصر على تعاقب الأجيال .. منذ الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى ابناء محمد على .. كلهم عاش في حصونها .. واحتمى بقلاعها .. واستعلى على شعبها .، فلا يهبط الى العدينة إلا مضطرا .. وكان أول الهابطين هو الخديو اسماعيل بعد أن بني قصر عابدين وجعله مقرا رسميا للحكم، أما نابليون فقد أدرك المهمة الحقيقية للقلعة ، فمنذ دخوله القاهرة بدأ في ترميم أبراجها، وتدعيم حصونها استعدادا لليوم الموعود ..

ولقد اتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيس ، فلم يتورع نابليون عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر وماجاوره من أحياء مكتفة بالأهالي .. يقول الجبرتي في وصف هذه المذبحة: « فلما سقط عليهم ذلك وراوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام من هذه الآلام ، ياخفي الألطاف نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور، وسقطت في بعض القصور، ونزل في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة من الليل، دخل الفرنج المدينة كالسيل، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبيتهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبـة، والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوائي والقصام ، والودائع والمخبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبارجلهم ونعالهم داسوها، واحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا اوانيه وألقوها بصحنه ونواصيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه .. وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بانفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ، وكثير من الناس نبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا ألله ، .

سنوات الميرة

كانت

السنوات الخمس التي تلت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، من أروع حلقات التاريخ المصرى كفاحا ونضالا وحركة وحيوية ..

ولكنها تبقى ... مع ذلك ... اشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة والحيرة .. كانت هذه السنوات بمثابة لحفلة اشراق بعد ليل طويل حالك السواد ، وكان المتوقع ان يسفر الفجر الوليد عن حركة تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصرى من اغلال النظام القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك .. ولكن الثمرة الناضجة وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء والشفاء الى الضابط الإلباني المغامر محمد على ، ليحكم مصر مع ابنائه واحفاده قرنا ونصف قرن بالتمام والكمال .. وكاننا يابدر لا رحنا .. ولا جينا ..!

والأمر المؤكد أن المصريين أفادوا من الحملة الفرنسية برغم النكبات والكوارث التي سببتها لهم ، فالحملة التي ضمت كتيبة من العلماء، وحملت مع المدفع المطبعة والصحيفة والمعمل، تركت بصماتها على العقل المصرى ، وتسامع المصريون بأفكار الثورة الفرنسية التي هزت عروش اوروبا ، وترددت بينهم أسماء فولتير وروسو ومونتسكيو وأضرابهم من أباء الفكر الليبرالي ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب في التمرد على الطفاة والمتجبرين، ولا شك ان المصريين شاهدوا ولمسوا وتأثروا بالنمط السياسي الجديد والتقاليد الجديدة التي جاء بها الفرنسيون ، فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية تتهيا لاستعادة مجدها الغابر .. كانت تمسك في يدها الاغلال والإصفاد لتضعها في عنق الشعب المصرى مرة أخرى ، ولم يكن من المعقول ان يتم لهم ماارادوا بعد ان تجلى جبنهم وخورهم وتخاذلهم امام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعا من السلحة كالفثران المذعورة ، وتركوا المصريين وجها لوجه امام قدرهم .. وأثبت المصريون انهم رجال من خلال الثورات والهَبّات التي قاموا بها ضد الاحتلال الفرنسي، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق والدموع .. الهليس من حقهم بعد ذلك أن يستمتعوا بالحرية .. ؟ اليس من حقهم ان يتطلعوا إلى عصى جديد تتحدد فيه العلاقة بين الحاكم والمحكومين على اسس جديدة ، ومفاهيم جديدة تختلف عن تلك التي كانت قائمة في العصر الوسيط .. ؟

- ولكن أى تحرر كان يريده المصريون .. ؟
 - وماهو مفهوم الحرية الذي ينشدون ..؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تجار فى فهمه العقول .. ولكى نكون منصفين مع آبائنا و أجدادنا ، ولكيلا نقسوا فى احكامنا عليهم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرها وعصرهم ، إذ من الخطأ الكبير أن نحكم على عصرهم باراء عصرنا .. ومن الظلم والإجحاف أن نحاسبهم بتقاليد عصرنا ، التى تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل هذه المفاهيم شائعة أو مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل هو تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة .. ولكنه انتهى بها الى احضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل مافعل منسجما مع افكار عصره .. معبرا عن أراء مواطنيه التى لا ترى الأمان إلا فى ظلال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الاستاذ الرافعي قد ارتفع بالشعور القومي المصرى في ذلك العصر الى مرتبة نظيره في فرنسا ومااحدته من ثورة استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الاسراف في هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كمانفهمهما الآن ، ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية باكثر من أنها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم لم يكن فريدا في فهمه هذا .. بل كان مثله فيه كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم لم يكن احد منهم يفكر في أن يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانيهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر ، وأن يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسي الذي وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، في ظل الحكومات التي تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ أضعف فيه ثقته بنفسه ، وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على اعباء الحكم ، فيكتفي بأن يكله الى الاجانب ويتولى هو المعاونة الحكم ، فيكتفي بأن يكله الى الاجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا مافعله عمر مكرم .. فقد ترك الأمر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كانه كان يشعر في نفسه لمنه غير كفء له .

نجم الزعامة المصرية

کان

السيد عمر مكرم أقوى شخصية مصرية ظهرت على المسرح السياسي في مطلع القــرن التاسع عشس، ومع ذلك لم يفكــر في نفسه حاكما على مصر، والعلماء الذين صعدوا معه الي

تنصيب نفسه حاكما على مصر، والعلماء الذين صعدوا معه الى القلعة في مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثماني خورشيد باشا، لم يخطر ببالهم أن يضعوا الصولجان في يد ذلك الزعيم الصعيدى الاسيوطى الازهرى، ووضعوه في يد الضابط المقدوني المولد، العثماني النشاة: محمد على، فضيعوا على مصر فرصة العمر، وحكموا عليها بأن ترزح قرنا ونصف قرن تحت نير اسرة أجنبية تضاف الى سلسلة الاسر التي حكمت مصر من قلاوونية وأيوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية .. وقبل كل هؤلاء كان حكم الرومان، وقبل الرومان كانت الاسر البطلمية الاغريقية التي استوطنت مصر بعد فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وبين المقدوني الأول والمقدوني الحديث واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الأجانب، ولم يستطع زعيم مصرى ان عشتها الستار الحديدي ويجلس على عرش بلاده.

إياك أن تقع في شُرك الذين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الاسلام ، بحجة أنه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية في شخص الحاكم ، وأن الرعية عليها أن تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه .. وأقول لك إن الاسلام برىء من هذه الاكاذيب التي روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابرة والطغاة .. والاسلام لم يقل أن حكم مصر كلال لكافور الاخشيدي وأبن طولون المنغولي وخوش قدم الالماني الاصل ..وحرام على أبنائها .. !!

لو تتبعث تاريخ هذه الأسرات والدول ، فسوف تكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال كان من الممكن أن يسدها مصرى اصيل . مثلما حدث في اعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر وعودة الأتراك إلى حكمها وماحدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك .. في هذه الفترة المضطربة ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا في شخص

السيد عمر مكرم .. ومع ذلك لم يفكر المصريون في تنصيبه حاكما عليهم .. الأمر الذي يشكل علامة استفهام كبيرة .. ؟؟

وللد حلولت أن الله الجواب في كتابات الباحثين والمؤرخين فلم أجد عند الاستاذ الرافعي مليشفي الغليل، وهو برغم اعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم، وبرغم مبالغته في تقدير حجم الشعور القومي الذي بزغ اثناء تواجد الحملة الفرنسية في مصر، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقي النقى .. واقبالها على الضابط المقدوني المجهول الأصل ..!

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، في كتابها القيّم ، شخصية مصر » حاولت أن تقدم تفسيرا خلاصته أن الموقف السياسي في تلك الفترة الدقيقة كان يتطلب معرفة القوى الموجودة في الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة في اللعب بها ، ومعها ، وقد عرف التاجر المقدوني من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم .. وتضيف الى ذلك انبهارنا التقليدي بالغريب ..

أما الدكتور عبد العزيز الشناوى استاذ التاريخ الاسلامي .. فيقدم لنا في كتابه عن عمر مكرم تفسيرا من خلال الظروف الثقافية والفكرية التي كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعا دينيا ، ولم يكن ينظر الى السلطان العثماني على أنه حاكم أجنبي دخيل مستعمر، بل نظر اليه على أنه سلطان الاسلام . وكان سلطان تركيا سعيدا جدا بهذه النظرة المقدسة ، فجعل من الدين ستارا يخفي وراءه اغراضنا استعمارية ، والدين منها براء ، وكان الشعب المصارى متشبعا بفكرة الوطن الاسلامي اكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومي، وبعبارة اخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث يصعب القصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر في عام ١٥١٧ تقضي بان يكون والي مصر عثمانيا صرفا، بمعنى أن يكون عثماني المولد والنشاة واللسان والعقلية ، فإذا تم اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك ـ في ضوء مفاهيم المجتمع الديني ـ ثورة على النظام الدي أخذت به الدولة ، ونقضًا لمبدأ أساسي وضعه

سلطان الاسلام وخروجا على طاعته ..

وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا لو أن الشعوب التي حكمتها الامبراطورية قد استسلمت نهائيا ، واستنامت لتلك المفاهيم التي أشار اليها الأستاذ الفاضل ، ولكن الذي حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان في مصر وسوريا ولبنان .. وثورة الدروز في القرن السابع عشر معروفة .. وفي مصر وجدنا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا ، ويعلن الانفصال عن الامبراطورية ، وأعنى بنلك حركة على بك الكبير ، فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعا .. بل أن محمد على نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر حتى شق عصا الطاعة على سادته ، وقاد جيشا على عرش الدولة العلية ونقض مبادئها بتعيين مصري على عرش مصري على عرش مصري على عرش مصري ... ؟؟

معرجان الدم

تعدد

يوم أول مارس ١٨١١ موعدا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية في الحجاز، وخرج شعب القاهرة كعادته في هذه المناسبات، الى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أهازيج الفرح ودقلت الطبول ، ولكن صيحات الفرح تحولت الى صرخات استغاثة ، وطفى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد الى مهرجان

في صباح ذلك اليوم تَصَدّرُ محمد على قاعة الاستقبال الكبرى في قصره بالقلعة ، وتوافد عليه العظماء مهنئين مباركين ، وانتهزها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خمدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على ، ويئس المماليك من احراز نصر حاسم فهبطت عزيمتهم و أعربوا عن رغبتهم في القاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فأعطاهم الامان ، وسمح لهم بالعودة الى القاهرة ليعيشوا في قصورهم بين حريمهم وغلمانهم حياة الرغد واللهو والفجور، ولم يقنع المستبد الداخلي بهذا الاستسلام وراى ان الحل الوحيد هو استنصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى أمامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الأكبر وهو الانفراد بحكم مصس.

ذهب البكوات المماليك الى القلعة يرفلون في ثيابهم المزركشة الغضفاضة وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق، واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب وابدى لهم من طرف لسانه حلاوة اسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل ريبة ، وهم الذين تربوا منذ نعومة اطافرهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم في هذا المضعار كانوا مجرد تلاميذ في حضرة الداهية الأعظم الذي قراوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللي فسيخر منه وقال: إنا أعرف اكثر منه ..!

ودوّى النفير إيذانا بتحرك الجيش، فانتصب محمد على

واقفا ، ونهض الأمراء المماليك يستأذنونه في الانصراف ، فأوحى اليهم أنه سيكون أكثر حبورا لو أنهم شاركوا في المهرجان كي يراهم شعب القاهرة وهم في صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطَعمَ شاكرين ، واعتبروا مطلبه زيادة في الكرم وحسن النوايا ، وبدأ الموكب سَيرَه حسب الخطة المرسومة : في المقدمة جوق الطبول والموسيقي ثم طليعة القرسان ، وبعدها كتيبة الجنود الألبان بقيادة صالح قوش أحد اربعة رجال اشتركوا مع محمد على في تدبير المؤامرة ، وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المطهمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ثم انحرف يسارا ليجتاز طريقا ضيقا وَعِزْا منحوتا في الصخور ويتدرج في الانحدار حتى باب العزب الذي يغضى إلى ميدان الرميلة (صلاح الدين حاليا) . وعبرت الفرق الاولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقا محكماً ، وفي سرعة خاطفة تسلق الالبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق ، بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ولا يدرون شيئا مما يجرى حولهم ، وفي نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها حتى اذا اكتمل عددهم انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين في هذا الخندق الصخري الضيق ..

. . .

وفجاة .. دوت طلقة نارية فكانت اشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت افواه البنادق كالسيل المنهمر يحصدهم حصدا فلا يستطيعون فكاكا ، وصدمتهم المفاجأة وانسدت في وجوههم ابواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دَوي الرصاص على إثارتها فازدادت هياجا كانها حُمُر مستنفرة فرّت من قسورة .. واخذت الخيل تلفظ سادتها عن ظهورها وتدكهم منهم تسلق المعذور عاجلته رصاصة يهوى بعدها الى الحفرة مريعا أو جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، أما الوحيد الذي نجا بحياته فهو امين بك الذي كان في مؤخرة الركب ، فما إن سمع دوى الرصاص حتى ركض بجواده نحو اسوار القلعة ثم لكن الحصان بقوة فهوى به الى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الامير فاطلق ساقيه للريح في صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجرى حتى وصل لبنان لائذا باميرها بشير الشهابى .

على مواند اللنام

på.

تكن مذبحة القلعة هي فصل الختام في الماساة المروعة التي خطط لها محمد على بإتقان، فالبكوات المماليك الذين ذهبوا الى احتفال القلعة

وحصدهم رصاص الإلبان كانوا ه ١٠ فقط، أما يقية المماليك فكانوا - وقت المذبحة - أمنين في قصورهم المنبثة في الجمالية والأزبكية والناصرية ولا يدرون شيئا مما جرى لزعمائهم ، فما إن سكن غبار المذبحة حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة يذبحون المماليك في عقر دورهم ويستحيون نساءهم ، وينهبون أموالهم ، كانت تعليمات الابادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك دُيَّار ، ولقد نفذ الألبان المهمة ً الموكولة اليهم وقد تملكتهم شهوة السلب والانتقام من اعدائهم الألداء ، حتى باتت القاهرة في ذلك اليوم المشكوم اشبه بمدينة مفتوحة امام غزوة تترية ، وعات الجند فسادا في المدينة الأمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية ، فاصابهم بعض ما اصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الإعراض ، ورغم أن أهل القاهرة سارعوا الى اغلاق حوانيتهم ولجاوا الى بيوتهم بمجرد سماعهم نبسا المذبحة ، إلا أن الوحوش الكاسرة لم تغرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين ، فاستبلحوا كل ما تصل اليه ايديهم واستمرت الغوضى ثلاثة ايام بلياليها ، ولم تتوقف الا بعد أن نزل محمد على بنفسه إلى شوارع المدينة ، وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط الى المدينة التعيسة .

وفى نفس الوقت الذى دارت فيه عمليات الابادة فى القاهرة ، كانت هنك عمليات مماثلة فى الاسكندرية وبقية المدن التى يتواجد فيها المماثيك ، ولم يقلت منهم إلا من اسعده القدر بالهروب الى الصحراء بحثا عن كهف مظلم أو قبر مهجور ياوى اليه .

• • •

وانطوت إلى الأبد من تاريخ مصر صفحة المعاليك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها في احضان مصر المحروسة ، يتقلبون في اعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، اولئك هم الصعاليك الذين جاءوا الى مصر غلمانا يباعون في اسواق النخاسة ، فما هي

إلاّ عشية وضحاها حتى اصبحوا ملوكا يُدين الناس بالطاعة لهم ، ويدعون لهم بالنصر والعز والتأييد . وفن الدعاء للحاكم – إن لم تكن تعلم – فن مصرى قديم أتقنه المصريون منذ دالت دولتهم ، وخبا عزهم ، وأصبحوا غرباء في ديارهم ، ثم باتوا كالايتام على موائد اللئام .. ولكن هؤلاء اللئام لم تكن صفحة حياتهم خالية من ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق الاسلامي يوم اطبقت عليه جحافل المغول من الشرق ، وجيوش الصليبيين من الغرب ، وهم الذين فتنوا بجمال العمارة ، وتلك الرهم تدل عليهم في المساجد والمدارس والأضرحة والأسبلة . ولو سرت يوما في قاهرة المعز ، فاعلم أن كل ما تقع عليه عينك من ولا معظيم سبما فيها الأزهر نفسه _ إنما من وحي عشقهم للعمران

. . .

فوارحمتاه على اولئك الصناديد الذين تربوا على صهوات الجياد ، وانصهروا في غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لُغة الحرب ، فاذلوا كبرياء هولاكو في عين جالوت ، وأسروا لويس التاسع في المنصورة ، وحرروا القدس من دنس الصليبين وازالوا أخر قلاعهم في عكا ، ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الاوسط ووااسفاه عليهم حين خلدوا الى النعيم واللهو ، والمجون ، وانحبسوا في مخادع الحريم والقلمان ، فلانت قناتهم ، وذابت صلابتهم ، وانطفا وهجهم ، وصدئت سيوفهم من طول مانامت في اغمادها فقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ، وكلها أشياء تصلح للعرض في المتاحف ولا تصلح لمواجهة تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يَعْنَى المماليك على يد محمد على ، كانت عوامل الغناء الذاتى قد حكمت عليهم بالموت البطىء ، لقد ظنوا أن العالم سوف يتوقف عند اللحظة التى شهدت امجادهم ، وتقوقعوا داخل شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، ومادروا انهم صنعوا اكفانهم بايديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطىء حين تجاهلوا حركة التاريخ .. فلما أجهز عليهم محمد على لم يجدوا أحدا يبكى عليهم أو ياسف على ماساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر.

عبد مأمور

کان

محمد بك الدفتردار احد السواعد القوية التى اعتمد عليها محمد على في تثبيت حكمه وتشديد قبضته على الشعب المصسري، وقام

فى هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الأدوار التى قام بها ابراهيم باشنا أكبر أبناء الوالى ، والكتخدار محمد لاظوغلى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من أركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد على ، جنودا فى جيش الاحتلال العثمانى الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التى اعقبت خروج الحملة الفرنسية ولكنهم لم يخرجوا من مصر أبدا .. واصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا يحمل بين جنبيه قلبا صحريا لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا اليه ، كان عاشقا للدماء ، يطرب لمشهد الرؤوس وهي تطير في الهواء ، ولا يتورع عن ارتكاب ابشع المذابح لأوْهَى الأسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب في نفوس سامعيه ، وكان محمد على يستخدم هذا النوع من البشر لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر، ومنع المصريين من التمرد على نزعته الاستبدادية، فجعله من خاصته المقربين ، ولكي يضمن ولاءه الى الابد زوَّجُه ابنته زهرة هانم، فاصبح واحدا من أعضاء الأسرة المالكة، وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه فقال: لقد تأخرت عن سداد الضريبة المستحقة على وقدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الارض أبّى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة وامر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وامر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، واعطى الجزار راس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ مضى وتركني دون أن أتذوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التي كنت اعتمد عليها في زراعتي .. وكانت

تساوى ضعف المبلغ الذي جُمعه . فلما فرغ الفلاح من قصته مضى الدفتردار الى القرية ، واطلق

المنادي يطلب من أهلها التجمع في الجُرن . والتف الفلاحون في شبه حلقة ، بينما بعث الدفتردار في استدعاء الناظر والجزار الذي ذبيح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبيل الناظر بالحبال والقائه في وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث الى الجزار قائلا : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهي كل ما يملك من حطام الدنيا ؟! فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : انى يامولاى ، عبد مامور .. ولم افعل سوى ما امرتى به الناظر .. فسكت الدفتردار برهة كانها دهر والقي بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح ارضا ، وقال للجزار : لو أمرتك بأن تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة .. فهل تفعل ..؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلتُ يامولاي إنى عبد مامور ، اطبع الأوامر التي تصدر إلى من سادتي .. عندئد انتصب الدفتردار واقفا وصرخ في وجه الجزار: إذن فإنى أمرك أن تذبح هذا الوَعْد .. فخف الجزار مسرعا وأخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر فحزها حتى فصل راسه عن جسده .. وساد الوجوم أهل القرية .. وجمدت الدماء في عروقهم وظلوا واقفين مذهولين امام هذا المشهد الرهيب .. وبعد ان فرغ الجزار من مهمته نهض منتظرا باقى الاوامر . فقال له الدفتردار: والآن آمرك أن تقطع جثته ستين إربا .. ماعدا الراس .. ومضى الجزار في تنفيذ الامر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين إربا .. وهنا التفت الدفتردار نحو اهالي القرية صارحًا : على كل منكم ان يشترى قطعة ويدفع قرشين .. وصدع الاهالي بالأمر .. احد كل منهم قطعة من لحم الناظر ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا تناولها الدفتردار ، ودفع بها الى الفلاح المنكوب ليشترى لنفسه بقرة جديدة .. ثم التفت الى الجزار وقال : « كما انك أخذت راس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل راس الناظر جزاء لك على تعبك في ذبحه وتقطيعه » وانطلقت منه ضحكات فظيعة كانها زلزال مدمر .. ثم نهض وغادر القرية ومن خلفه جنوده .. بينما أهل القرية ذاهلون .. وكانهم يشهدون كابوسا كريها ..

لقد طن هذا الوحش البشرى انه اقام عدلا ، ومحا ظلما .. !! ومادرى ان العدل الذي يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخلان

آمير البحر أحمد فوزى باشا قائدا للاسطول كان التركى في الوقت الذي بلغ الصدام فيه ذروته ابین مصر وترکیا . کان، محمد علی قسید

أذاق الجيوش التركية مرارة الهزائم المتوالية في الشام والأناضول ، وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الامبراطورية العثمانية فزلزلت دعائمها وهددت بزاولها . وفي هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود _سلطان الاتراك _وخلفه غلام في السابعة عشرة اسمه عبد المجيد ، أسلم زمام الدولة إلى خسرو وعينه صدراً اعظم والمصريون يذكرون هذا الرجل الذي جاء الى مصر واليا من قبل الدولة العلية مع بداية ظهور محمد على ولكنه فشل في اقتلاعه من مصر ، فعلد الى بلاده خائبا وهو يقطر حقدا على محمد على .

وكما جرت عليه العادة في دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم الى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هي نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد ، فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها في الايقاع بهم وتصفيتهم جسديا وسياسيا ، وكان القبودان احمد فوزي باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصومة) قديمة بينهما . لذلك لم يكد فوزى باشا يتلقى امر استدعائه الى الاستانة حتى اوجس في نفسه خيفة ، وادرك أنه إما مقتولاً وإما معزولا . فاشار عليه بعض اعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الاسطول التركى الى محمد على غنيمة خالصة فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا أثيرا في دولة النجم الصاعد ، واستحسن الرجل الفكرة فاقلع بالاسطول الضخم سِرا من مياه الدردنيل الى الاسكندرية وعلى ظهره اكثر من ٢١ الف بحار وجندى . واستقبل محمد على الاسطول التركي بالجفاوة والترحاب ، فبانضمامه الي البحرية المصرية اصبحت مصر اقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط. ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الحظوة التي كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهي امير البحر التركي ، ولا بما

كان يتمنى محمد على ، فقد لعبت الدول الأوربية ـ بزعامة انجلترا ـ لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد على وقصقصة اجنحته التى امتدت الى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والإناضول ، واسفرت المؤامرة الأوربية عن إبرام معاهدة لندن التى اعادت الجيوش المصرية الى معاقلها الأصلية . وبعدها أصدر السلطان العثماني فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة ، وكان من بين بنوده إعادة الاسطول التركى والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان احمد فوزى باشا ، فكان لابد من تسليمه حتى يلقى جزاء خيانته .

واسقط في يد محمد على ، فلا هو يستطيع مقاومة (مر السلطان ومن خلفه الدول الاوربية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذي التجأ إليه فتضيع هيبته أمام اتباعه ومعظمهم من الترك ، وشعر السلطان بحرج موقف محمد على وأراد أن يسهل عليه الامر ويخرجه من المازق فبعث إليه بأنه ليس من الضروري تسليم القبودان الخائن حيا .. فالمهم أن يدفع ثمن خيانته سواء في مصر أو في الاستانة .. فكلها بلاد السلطان ، وفهم والى مصر مغزى الاشارة فنهض من فوره إلى خزانته الخاصة وأخرج منها قنيتة سموم صغيرة واستدعى احد خاصته واعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لاخراج والى مصر من ورطته .

وذهب الرسول الى قصر فوزى باشا واخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف أن متاعها زائل .. وان النعيم الحقيقى فى الحياة الاخرة وان ماعند الله خير وابقى وانه يحسن بالمرء أن يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم فى أية لحظة يشاء الله فيها أن يستدعيه اليه . وما اسهل الموت إذا جاء للانسان فى جرعة ماء أو فنجان قهوة .. !! وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضا وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار .. ثم التفت الى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها فى صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت .. قسمت .. !!

شارع طيمان باشا

¥

يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية إلا مقترنا باسم محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة ومعه سليمان باشا الفرنساوى ساعده الأيمن في بناء أول جيش مصرى صميم منذ انحلت الفيالق

المصرية في أواخر عصر الفراعين وسقوط مصر تحت سنابك الغزاة .

الفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف الجندية الايحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد اراد لهم حكامهم ان يحملوا - فقط - الفئوس . حتى باتت كلمة « فلاح » مرادفة لكلمة « مصرى » في قاموس الشراذم الاجنبية التي تكالبت على مصر كما تتكالب الأكلة على قصعتها ..!

بقى هذا الحال المهين إلى أن ظهر محمد على ، على مسرح الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفع الدماء الفتية في عروقها التي تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات .. ورأى هذا الثعلب العبقرى أن أول خطوة في بناء دولة مصر العالمية إنما تبدأ من بناء جيش نظامي حديث على نمط الجيوش الاوربية التي تعالى صليلها خلال الحروب النابليونية ، وجَرب محمد على أن يجعل من (الباشبوزق) وهم أخلاط من الارناؤوط والشركس والدلاة .. نواة الجيش النظامي ، ولكن هل يستطيع من نشأ على الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر أن يخضع لاصول الطاعة و النظام والضبط والربط واحترام القيادة .. ؟

مستحيل ...

وفشلت التجربة فشلا كان يطيح بمركز محمد على نفسه .. فاتجهت انظاره الى الفلاحين ..

هُلَ استقرأ محمد على نَبِضَ التاريخ فتذكر أمجاد الجيش المصرى أيام كان يصول ويجول في تخوم الشرق تحت رايات أحمس وتحوتمس ورمسيس ..؟!

لا اظن .. فلم يكن عزيز مصر من اولئك الحكام الذين يحبون الثقافة واستقراء التاريخ ، ولكن من المؤكد انه كان خبيرا في كشف معادن الرجال .. فادرك بفراسته ان هذا الفلاح الخامل سوف يأتى بالاعاجيب إذا تهيات له الظروف الصالحة ..

وبدا محمد على من نقطة الصفر ..

وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب نابليون اسمه الكولونيل (سيف) فعهد اليه العزيز بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين واختار له ٥٠٥ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم واختار له اسوان لتكون (وكرا) لهذه المهمة العويصة بعيدا عن مؤامرات الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمزين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتهذيبها وعتنق (سيف) الاسلام وأصبح اسمه (سليمان) فزال الحاجز النفسى بيئه وبين تلاميذه الضباط واظهر لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ماجعل حقدهم عليه ينقلب الى حب واحترام واجلال.

. . .

حدث مرة أن دُبِّر تلاميذه مؤامرة لاغتياله اثناء التدريب على ضرب النار، فاطلق احدهم عليه رصاصة مست اذنه وأطلحت بقبعته وبدلا من أن ينتقم سليمان من القاتل، أمسك بالبندقية واتخذ مكان القاتل في الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف وهو يردد: هكذا يكون التصويب ياغبى ..! وكان من الطبيعي أن تترك هذه التصرفات النبيلة الرها في تلك النفوس الصخرية، فاذابت من جمودها وغرورها.

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدات عملية البحث عن الجنود ، وكان من الطبيعي أن تلقى دعوة التجنيد نفورا وكراهية من المصريين لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب الوطني ، فضلا عن الطريقة البشعة التي سلكها زبانية محمد على لجمع الفلاحين . إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش الكاسرة وياسرون كل من يقع في أيديهم من الرجال والنساء والاطفال ويسوقونهم في الحبال إلى معسكرات التجنيد في المدن .

ولكن المشروع مضى في طريقه المرسوم ، وبقى سليمان باشا الفرنساوى على راس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشيء المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج ويرسل البعوث إلى اوربا لتتخصص في الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا اقل من سيده اعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رايتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رايتهم في معركة (قونية) يبقون ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جاش تدعوان إلى الاعجاب دون ان تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير في واجباتهم وحركاتهم الحربية » .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا ، ودخل في نسيج المجتمع المصرى ، فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (ابو الدستور) فانجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا واثمر هذا الزواج فتاة هي ملكة مصر السابقة (نازلي) ام الملك الراحل فاروق .

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذي يرجع اليه الغضل في بناء اول جيش مصرى صميم ، اقاموا له تمثالا في الميدان المسمى باسمه واطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة ، قلما قامت ثورة الجيش في يوليو ١٩٥٧ أطاحت بالتمثال والقت به في ساحة المتحف الحربي ، ونزعت اسمه من الميدان والشارع واطلقت عليهما اسم طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان) ربما لأنه اسهل .. وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتبل ينها المط

کان

عباس الأول اسوا ملوك أسرة محمد على . بل أسوا الحكام الذين توالوا على ملك مصر .. كان يجمع بين الجهل والغباء .. وتنطوى نفسه على ا شر دفين نحو كل الناس بمن فيهم اهله والمحيطون به، حتى انفض من حوله معظم افراد الأسرة العلوية هربا

برقابهم من أن تنالها سيوف الوالي.

حكم عباس الأول مصر ست سنوات كانت ديجورا داكنا ليس فيه خيط نور .. وقد تولى الحكم في حياة جده محمد على ، بعد وفاة عمه البطل المغوار ابراهيم باشا .. ورغم أن عمه سعيدا كان من أولاد محمد على _ إلا أن نظام الوراثة الذي فرضه الانجليز والعثمانيون على محمد على بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ -كان يقضى بأن يكون الحكم لأكبر أفراد الأسرة سِنا .. وشناء الحظ العاش أن يكون كبير القوم أجهلهم وأغباهم .. وهذا أكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم .. فمن يضمن ألا يكون الوريث فاسدا متلافا ببدد ثروة لم يتعب في جمعها ، ويهدم مابناه اسلافه .. ! وهذا مافعله عباس ، إذ أغلق المدارس والمصانع والمؤا سات التي بناها جده .. واستدعى البعثات التي كانت تتلقى العلم في أوروبا .. واستدار نحو العلماء الذين رباهم محمد على .. ومنهم رفاعة الطهطاوي _ فشتت شملهم وتفاهم إلى اقاصى السودان ليامن ۽ علمهم ۽ .. ا

وكان عباس الأول مثل الخفافيش .. يكره النور .. ويستوحش من الناس ، ولا يتحرك إلا في الظلام .. فهجر القاهرة وأقام لنفسه عدة قصور في بطون الصحراء ، كان أضخمها قصر في العباسية _ وكانت في ذلك الوقت صحراء موحشة _ كما بني قصرا في صحراء السويس، وقصرا في العطف، وقصرا على النيل في بنها العسل .. وهو القصر الذي لقيَّ فيه مصرعه .. وكان يأوي إلى تلك القصور ليبتعد عن الناس ولا يحيط به الا شردمة من العبيد والغلمان ..

وقد اختلفت الروايات في مؤامرة مقتل عباس ، فمن قائل إن

عمته الأميرة زهرة ـ ارملة محمد بك الدفتردار ـ هى التى دبرت المؤامرة من منفاها فى تركيا . وكانت تعرف شغف ابن اخيها بالغلمان فدست له غلامين جميلين كلفتهما بالسفر الى مصر والتحايل على الالتحاق بخدمته وقتله ، فلما جاء الغلامان الى القاهرة عرضا نفسيهما فى سوق الرقيق ، وكان لعباس وكيل مت صص فى شراء الغلمان المرد .. فما إن وقع بصره عليهما حتى اشتراهما والحقهما بخاصة الأمير .. وكان من عادة عباس أن ينام فى حراسة غلامين ، فلما جاء الدور على هذين الغلامين انتظرا حتى غط فى النوم ثم دخلا عليه واحمدا انفاسه ثم اسرعا الى الهرب الى الاسكندرية ومنها الى استانبول قبل اكتشاف الجريمة وهناك قبضا ثمن المهمة من عمة الأمير .

وهناك رواية أخرى تقول أن مقتل عباس كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصس. وخلاصة القصة ان عباس كان يصطفى بعض عبيده المقربين ويفرق عليهم الرتب العسكرية والاراضي الشاسعة على غير كفاءة يستحقونها ، وكان على راس هذه الشرذمة مملوك اسمه خليل بك درويش ، ولكثه بدافع الغطرسة والغرور أساء معاملة مرؤوسيه فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صنغير السن ، فشكاهم الى مولاه فامر بجلدهم وتجريدهم من الوظائف العسكرية و الحقهم بخدمة الاسطبلات . ولجأ هؤلاء المنبوذون إلى مصطفى باشا امين خزانة الأمير ليتوسط لهم عنده ، فانتهز فرصة قدوم الوالى الى قصر بنها ومعه أحمد يكن باشا وابراهيم باشا الألفى محافظ القاهرة ، ورجاهما التوسط لدى الوالي ليعفو عن اتباعه ، فاستجاب عياس لهما وعفا عنهم وإعادهم الى مناصبهم فجاءوا الى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم يضمرون قتله ، فاتفقوا مع غلامين من خاصة عباس كانا يحرسانه وهو نائم ففتحا لهم الباب ودخلوا غرفة الأمير فشنعر بهم وحاول المقاومة .. ولكنهم تكالبوا عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار .. فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالي في موعده دخل عليه يكن باشا والألفي باشا فوجداه مخنوقا في فراشه ، فكتما الخير ثم نقلا جثمانه الى القاهرة وهناك أعلن خبر قتله، فتنفس الناس الصعداء.. واحسوا بارتياح شديد كان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صندورهم .

النيأ المعيد

لها

اشتدت وطأة المرض على والى مصر محمد سعيد باشا، نصحه أطباء أوروبا بالعودة الى بلاده ليلفظ فيها انفاسه بعدلا من البهداسة

في بلاد الفرنجة .. واستجاب سعيد لنصيحة اطبائه وعاد إلى قصره بالإسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة واخرى ، ولم يكن اسماعيل ـ وريثه على العرش ـ اقل استعجالا لنهاية عمه حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة ، وذاعت اخبار احتضار الوالى في انحاء البلاد ، وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة في مياه الاسكندرية وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر ، واخذت زرافات المنتفعين والوصوليين ومحترفي السلطة تتحرك نحو القلعة ترقب النجم الصاعد .. وتحجز لنفسها مكانا في دولة اسماعيل المقبلة .

. . .

وكان من عادة ذلك الزمان ان يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على اول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، أو برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية ، فضلا عن صرة من العملات الذهبية ، وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة - ويدعى بسى بك - يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) الى اسماعيل .. وظل الرجل مرابطا في مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارا .. وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الاسكندرية يستعجله الخبر ، ومرت الأيام والليالي ، والمسكين لا يذوق طعم النوم حتى أوشك على الانهيار ، ثم خطر له أن يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة حتى يتمكن من مواصلة العمل ، فاستدعى معاونه - وكان رجلا خبيثا - وقال له : انت تعرف طبعا ياعزيزي أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف انه سيعود علينا بالخير

قال المعاون في بلاهة : اجل اعرف ياسيدي ..

عال بسى بك : وتعلم اننى لم أذق طعم النوم منذ أيام ..

قال المعاون : أجل أعلم ..

قال بسبى بك: إذن سوف الدخل الى مكتبى لأغفو قليلا .. إذا جاء النبأ السعيد فما عليك إلا ان توقظنى فورا .. وستكون لك عندى مكافاة ٠٠٠ فرنك ..

. . .

وقبل المعاون العرض ، ودخل يسى بك الى مكتبه وهو بملابس الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة ، وراح في سبات عميق .. وماهي إلا دقائق حتى تُلَقى المعاون نبا موت الوالي سعيد ، فأمسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط في النوم وأصوات شخيره تزلزل أركان الغرفة ، فأوصد عليه الباب وانطلق من فوره الى القلعة ، وكشف للحراس عن مهمته فذهبوا به المي القصر وأدخله رجال البلاط الي القاعة الرئيسية حيث كان اسماعيل يترقب وصول النبأ السعيد .. وتقدم الموظف جاثيا على ركبتيه وهو يرفع البرقية الى الوالى الجديد .. فما إن قراها اسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح .. وسقطت البرقية من يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جاثيا في انتظار المكافاة -واقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهائي إلى ولى النعم .. وتلفت اسماعيل فوجد الموظف لا يزال راكعا شاهرا البرقية في يده .. فتبسم ضاحكا من إصراره وقال له • انهض يابك • ونهض المعاون .. وقدم له احد رجال القصر الصرة الذهبية فأخذها .. ثم غلار القصر عائدا الى مكتب التلغراف وتذكر المكافأة الموعودة من رئيسه ، وبلغ به الجشع ان رفض التفاضي عنها بالرغم من أنه أصبح من حملة العملات الذهبية ، فدخل على بسبى بك وأيقظه من نومه وقدم إليه البرقية وكأنه تلقاها على التو .. ونهض الرجل وهو يهتز طربا .. وانهال على معاونه تقبيلا ، وهم بالخروج في طريقه الى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافاة ، فآخرج المسكين كل ما في جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودَّسها في جيب المعاون ، وانطلق من فوره الى القلعة والبرقية في يده وهو يمني نفسه برتبة الباشوية وبالصرة التي سترفعه من زمرة الموظفين التعساء الى صف الموسرين السعداء ، ولكن ما إن بلغ مشارف القلعة حتى سمع دُويّ المدافع ابتهاجا بتولية اسماعيل ، وبُهتُ المسكين واقترب من احد رجال البلاط يستفسره النبا فابلغه بما حدث من معاونه . وصعق الرجل من هُول الخيانة التي ارتكبها مساعده وقفل عائدا الى مكتبه حزينا كسيفا ناقما على الرجل الذى خدعه مرتين ، مرة عندما انفرد بصرة الذهب ، ومرة عندما سلب منه المكافأة التى لا يستحقها ، فلما بلغ المكتب وحاول تعنيف معاونه الخبيث ، حذره الأخير من التطاول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التى يحملها هو .. فقد تساوت الرؤوس (ومفيش حد احسن من حد) .. واستفاق الرجل من هول الصدمة .. واخذ يلعن نفسه لأنه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

كانت

زيارة السلطان عبدالعزيـز، خليفة المسلمين وامبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣ حدثا جليـلا لا تزال ذكـراه ماشــــــــة في

الشارع الذي يحمل اسم ، عبد العزيز ، والممتد بين ميدان العتبة وميدان عابدين ، وظل احد اهم شرايين الحركة التجارية في القاهرة حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه اول زيارة يقوم بها سلطان عثماني لمصر منذ افتتحها سليم الأول بقائم سيفه عام ١٩١٧ ، وتحولت مصر من يومها الى إيالة تركية يحكمها وال قادم من الأستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتد شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا الى اليمن والخليج .

وقد اراد الخديو اسماعيل ان يجعل من زيارة سيده الخليفة فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفي طليعتها قطار السكة الحديدية الذي استقله السلطان هو وحاشيته من الاسكندرية الى القاهرة ، فانبهر به انبهارا عظيما ، إذ كانت المرة الأولى التي يرى فيها السلطان مثل هذه الاعجوبة التي تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات وتطوى الزمن ، في عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول ، واخذ السلطان هو وأمراء البيت العثماني يتفقدون اجزاء القاطرة ، ويسالون عن كل صغيرة وكبيرة ويستمعون الى شرح مفصل من مهندس القاطرة وسائقها عن كيفية حركتها .. وايقافها . ثم يستمعون في شغف الى صفارتها الحادة التي تنطلق لتنبه الناس يحركنها فيفسحون لها الطريق .

قلما جاء موعد تحرك القطار استقل السلطان صالونه الخاص، بينما جلس الخديو في مقعد مجاور ليكون تحت إذنه في اية لحظة . وركب باقي الأمراء العثمانيين والمصريين في عربات القطار الذي أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق . وأخذ السلطان يرسل الطرف بعيدا بعيدا إلى الحقول الخضراء تتخللها القنوات والترع .. والفلاحون المصريون انصاف عرايا ، وقد الخنت اصلابهم على الطين . انهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم

جيوش الاسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول .. فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التى خرجوا منها .. لقد اندثر الطغاة ، والمتجبرون أو ذابوا في طين مصر بمن فيهم الأتراك . وبقى المصريون يقلحون الأرض ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .

فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات ابدى السلطان عبد العزيز هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، واخذوا يعظمون من شانه ، ويبالغون في تقدير نفقاته ، ولكن اسماعيل قال للسلطان إن تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك ، واخذ البرنس حليم ، المعفر انجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاته من الغرق قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى غاصت في النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير احمد رفعت ابن أخيه البطل الشهير ابراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد الوالى سعيد ، ولكن رفعت لم يتمكن من الافلات من العربة بسبب بدانته المفرطة فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيا إلى اكبر الأمراء سنا : اسماعيل .

ومن المؤكد ان اسماعيل لم يكن مبتهجا، وهو يستمع إلى تفاصيل هذه الماساة التي كانت تثير الأقاويل حول دور اسماعيل في تدبيرها كي ينفسح امامه الطريق إلى العرش، وقد اختلفت الروايات بشان تفسير هذا الحدث، فمن قائل ان الكوبرى تُركُ مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من إيقافه فانزلق بركابه حتى غاص في قاع النيل، ولكن إلياس القصة، لأن كوبرى كفر الريات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت القصة، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت الذين ارخوا لهذا الحادث ومنهم « ماك كون » و» إدون دى ليون » وخلاصة القصة أن القطارات كانت في ذلك الوقت تجتاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا .. وكانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الإختيار بين النزول من العربات اثناء نقلها إتقاء للخطر، أو العبور فيها، ولكن العربات اثناء نقلها إتقاء للخطر، أو العبور فيها، ولكن الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا في عربة واحدة ـ ابيا النزول من

العربة وفَضّلا البقاء فيها اثناء العبور فوق المعدية ، وبالغ العمال المكلفون بدفع العربة في دفعها بقوة إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم ..فتدحرجت العربة وانزلقت وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة الى الماء فاخرج منها ميتا مخنوقا ، واما حليم فكان خفيف الجسم فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .

اما الشبهات التى تثور حول تأمر اسماعيل ، فمنشؤها أن اسماعيل كان من المفترض ان يشارك الأميرين مركبة الموت . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون اللبلة السابقة فى ضيافة الوالى سعيد باشا بالاسكندرية ، وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار ، ولكن اسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهما وأعرب عن رغبته فى البقاء بالاسكندرية لبضعة أيام .. وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . ولم يستطع اسماعيل ان يمحو هذه التهمة التى علقت به وكانت سببا فى حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة وافلح اسماعيل فى بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة وافلح اسماعيل فى تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان فى ضيافته ، تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان فى ضيافته ، وقدم اليه الرشاوى والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد فى اكبر أنجال الخديو .. فكان أغباهم واضعفهم واضعفهم واتعسهم : محمد توفيق .

تائر من الازهر

وضع

الخديو اسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن علية المصدريين الذين يتشدوفون بالمثول اسام السلطان عبدالعزيز خلال زيارته التاريخيسة

لمصر المحروسة ، ووقع الاختيار على أربعة من أكابر العلماء لكي يستقبلهم السلطان في قصر القلعة ولايتبادر إلى الذهن أن هذا اللقاء يعنى أن يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار في شئون الاسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شبيئا من ذلك لان خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة، وأن المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية لإلقاء التحية على السلطان ثم يعودون من حيث أتوا وهم ركوع ..! وكانت المشكلة التي اقلقت اسماعيل هي كيفية تعليم المشايخ الأربعة اصول وقواعد المثول بين يدى خاقان البرين وملك البحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وكان البروتوكول التركي من التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان ـ بمن فيهم شيوخ الاسلام ـ بالانحناء وتطويح الايدى حتى تلامسَ الأرض ثم رفعِها الى مستوى الرأس .. ثم التقهقر نحو الباب وهم على هذه الحال المهينة، وطلب الخديو من قاضى القضاة التركى أن يتكفل بتدريب الشيوخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية ، فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها على منصة مرتفعة عن الأرض قليلا ، بينها وبين باقى القاعة حاجز مفتوح من وسبطه ، وأنه ينبغي لهم اذا مابلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن ينحنوا أنحناء عظيما ويسلموا بكلتا اليدين حتى تمسا الأرض ، ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف ، ويرد السلطان عليه تحيته ، فيعيد حينئذ الانحناء والتسليم مرة آخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ بأب الخروج فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان.

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من الانحناء والتسليم قال لهم القاضي التركي إن الأمر لكذلك . فقالوا «قد فهمنا » فلما جاء دورهم فى المقابلات دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ماعلمه القاضى أن يفعل ، وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ويحمد الله أنهم أدوا أدوارهم بإتقان .

فلما جاء الدور على الشبيخ العدوى دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين . ولكنه سرعان مارفع قامته واخذ يمشى نحو لسلطان بخطى وئيدة . وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمرى ، ولم يعاود الانحناء او التسليم، وفزع اسماعيل من تصرف الشبيخ الذى خرق البروتوكول واخذ يبحث عمن ينقذ الموقف قبل أن يحدث مايغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى في طريقه نحو الخليفة حتى وصل الى الحاجز فجاوزه .. وصعد الى المنصة التي يقف عليها السلطان ـ واسماعيل يتوارى ذعرا ـ ونظر الشيخ العدوى الى عبد العزيز بعين ثايتة وقال « السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله » فوثب قلب الخديو من جرأة الشبيخ ولولا مهابة السلطان لركل الشبيخ وطرده، ولكن الخليفة ابتسم بلطف ورد على الشبيخ السلام ثم انحنى امامه انحناءة خفيفة ، حينئذ انطلق لسان الشبيخ من عقاله واخذ بخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولًا عن شئون الرعية ، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار تقل المسئولية وحسن ادائه لها . كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة.

عندئذ امتقع لون الخديو اسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التي اختار فيها هذا الشيخ (المجذوب) .. ويُسب من اشار عليه باختياره .. واخذ يتوقع ان يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حسابا عسيرا .. ولكن المفاجاة ان ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز .. فلما فرغ الشيخ من خطبته ختمها بالسلام الذي بداها به ، ثم انحنى أمام السلطان واقفل عائدا بوجهه لا بظهره كما فعل الآخرون . وسبحته في يمينه .. فلما خرج الي البهو وجد زملاءه في انتظاره وهم يتميزون غيظا ويلومونه على فعلته وينذرونه باوخم العواقب فقال لهم : « ولماذا أنتم فعلته وينذرونه باوخم العواقب فقال لهم : « ولماذا أنتم منزعجون .. ! أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين ، وأما أنتم فكانكم

قابلتم صنما ، وكانكم عبدتم وثناً

ثم النفت السلطان إلى اسماعيل يساله: من الشيخ ؟ فبادر اسماعيل يعتذر ويقول: انه من أفاضل العلماء ولكنه أبله ومجذوب !! فقال السلطان « لا .. انه ليس مجذوبا .. وإنى لم انشرح لمقابلة أحد انشراحي الى مقابلته .. « وأمر للشيخ العدوى بخلعة سَنية وألف جنيه جائزة .

1000

ولقد كذب اسماعيل ، وصدق عبد العزيز ، فلم يكن الشبيخ العدوى مجذوبا ولا مجنوبا كما اراد اسماعيل ان يصفه ، ولكنه كان عالما يعرف قدر نفسه وقدر العلم الذي يحمله بين جنبيه ، وقدر الأمانة التي تفرض علبه ان يكون شجاعا في حضرة امير المؤمنين .. وهذه القصة التي نقلها المؤرخ إلياس الايوبي عن السيد محمد عاشور الصدفي سبط الشيخ العدوى تؤكد صدق مانزعم .. ولعل الموقف البطولي الذي اتخذه الشبيخ العدوي أثناء الثورة العرابية كان اصدق دليل على شجاعته ، لقد جرفته أحداث الثورة وشارك في كل مراحلها مناوئا للظلم والاستبداد . وبعد ضرب الاسكندرية وانحياز الخديو توفيق الى الانجليز كان العدوى احد الشيوخ الذين أصدروا فتوى اعلنوا فيها مروق الخديو عن الدين لخروجه على الاجماع الوطني، ووقوفه في صف الأعداء .. وبعد فشل الثورة عانى الشيخ العدوى مثلما عانى كل المخلصين الشجعان السجن والضرب والاهانات .. وعرفته غرف السجون والمعتقلات ثم قدم الى المحاكمة فحكمت إحدى المحاكم بتجريده من جميع الرتب وعلامات الشرف والامتياز . فخلعها الشيخ راضيا .. وبقيت له اعلى المراتب في نفوس الناس ، وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزا لكرامة العلم وشجاعة العلماء في كل عصبر ومصبر.

أفراح الأنجال

كان

الخديو اسماعيل مصابا بداء الفخفخة وحب الظهور، وهو داء وبيل له مفعول القمار إذا تمكن من انسان قضى عليه ودفعه الى بيع ثيابه، وبرغم الأعمال المجيدة التي قام بها هذا العاهل المستنير ، فإن تصرفاته الخرقاء أكلت حسناته كما أكلت عرشه والقت به طريدا منبوذا في العواصم الأوربية ، مثل أي مدمن بُدَّدَ ثروته من آجل المتعة القاتلة.

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوربيين ليقيم حفلات فاخرة يبهر بها انظار ضيوفه ، ويخدعهم بثرائه الكاذب . وكان الأجانب أعلمُ الناس بحقيقة الوضيع المالي للحُديو المفلس ، فكانوا يأكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه ، وكان اسماعيل مشغوفا بإقامة الحفلات الأسطورية التي جعلت من ليالي الف ليلة وليلة حقيقة لا خيالا .. وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس اشهر مظاهر السُّفَّة الإسماعيلي .. إلا أن الحفلات التي أقامها بمناسبة ، أفراح الأنجال ، كانت أكثر بذخا وإسرافا .. واشد خطرا على المسار الاقتصادي ، فقد أقيمت في وقت انكشفت فيه الخزانة العامة و أوشكت على الافلاس ، ولكن اسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة ، وتمكن منه داء حب الظهور ، فاستجاب لرغباته المجنونة واخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال وكانه قارون في زمانه.

ففي منتصف يناير ١٨٧٣ قرر إسماعيل تزويج اربعة من انجاله هم : توفيق « ولى العهد » وحسين وحسن وفاطمة ، واراد أن يجعل من هذه المناسبة حدثا يتناقله الرواة وتتحدث به الركبان ، ويفوق في أبهته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن أحمد بن طولون ، بالخليفة العباسي في بغداد ، فقد دامت أفراح الأنجال أربعين ليلة كاملة بمعدل عشرة أيام لكل فرح ، وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء ..! وتحولت القصور الخديوية في القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة وحانات عامرة تقدم اطايب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذي اقامه إسماعيل ..!

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل في وصف البذخ والفخفخة والإسراف الذي حدث في أفراح الأنجال ، ويكفى أن تقرأ وصف زفة " شوار ، الأميرة امينة منذ خروجها من القصر العالى إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس " التعيس " محمد توفيق .. فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تخفرها الفرسان بزي عربي بديع ، و الاي مشاة باسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين ، وكانت الهدايا موضوعة في أسيتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة عساكر في كل عربة ، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة في أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية ، وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلنتي » ومناطق من الذهب الخالص ، واقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل ، وزمرد في حجم البيض ، وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الاميرة باللاليء والحجارة الكريمة ، وأنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة ، وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة ، شببه بالذي أهداه الى الأمبراطورة أوجيني اثناء اقامتها بعصس ، محلى بماء الذهب الابريز ، وعواميده الفخمة مرضعة بالماس والباقوت الأحمر النادر والزمرد والفيرور .. ولم يختلف شوار الاميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هائم والهدايا المهداة إليهن، عن شوار أمينة هائم .. • إلخ . ولم يكن احد من أهالي القاهرة الذين شاهدوا افراح الأنجال يعرف من أين أتى حاكمهم الهمام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال .. فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسأل عما يفعل .. ولكن لم تمض بضعة اعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرا أمام أصحاب الديون الإجانب الذين وقفوا ببابه ، وأخذوا بخناقه ، يطالبونه بأموالهم مضافا اليها فوائد تبلغ أضعاف ما أخذ وكانت نهاية إسماعيل المفجعة .. وهي نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصفير

كان

للخديو اسماعيل اخ من الرضاعة اسمه اسماعيل صديق ، لعب في حياة الخديو وفي حياة مصر كلها دورا خطيرا اثناء الأزمة المالية

الطاحنة التي أخذت بخناق البلاد ، وانتهت بضياع استقلال مصر، وضياع مستقبل الأخوين فالأول فقد عرشه، والثاني فقد حياته في ماساة مرعبة بعد أن تربع على خزائن الأرض عشر سنين، أصبح خلالها الرجل الأول في الدولة - بعد الخديو -والمتصرف الأوحد في شئونها المالية والادارية ، حتى خلعوا عليه لقب " الخديو الصغير " أو الصدر الأعظم المصرى . لم يكن اسماعيل صديق - كما يتبادر الى الذهن - من ابناء الطبقة الراقية التي كان الوزراء والحكام وقادة الجيش يُختارون منها وتضم بقايا المماليك من ترك وشركس وكرد وأرناؤود فضلا عن شراذم الألبان الذين استقدمهم محمد على ، وجعل من هؤلاء وأولئك أركان حكمه وأنعم عليهم بالأراضي التي صادرها من أصعابها المصريين، وانما كان اسماعيل صديق من ابناء الفلاحين الذين فقدوا أرضهم ، وأصبحوا أجراء يعملون بالسخرة في الزراعة وحفر الترع وشق المصارف ، فهو .. كما وصفه مؤرخ معاصر _ إبن فلاح صعلوك الأصل طالما مُدّ اجداده ، بل ابوه ذاته ، تحت الكرباح ، وازرقت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها ..

والروايات التاريخية لا تقدم لنا تفسيرا معقولا للظروف التى مكنت لهذا الفلاح المصرى المعدم من اختراق حاجز الفقر والصعود الى عالم الجاه والسلطان،في وقت لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النظاق المرسوم لهم . كل مايذكره المؤرخون أن الوالدة باشا - خوشيار هانم زوجة الوالى ابراهيم باشيا - شعرت بجفاف البانها بعد ولادة طفلها اسماعيل ، فساقت إليها الاقدار فلاحة مصرية لتتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذي أطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشا الصبى في دهاليز القصور الخديوية ، يتقلب في اعطاف النعيم ، وينهل من ينابيع

العز، وكان من الطبيعي ان تنشا بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين ، فما إن تولى اسماعيل عرش الديار المصرية حتى اطلق يد اخيه يتصرف في امورها على هواه ومن حق القارىء العزيز أن يتوقع من هذا الفلاح أن يكون رفيقا بأهله وعشيرته ، رحيما بالطبقة التي ينتمي إليها اباؤه واجداده ، وفيًّا للبلد الذي خرج من طينته ، ولكن العكس هو الذي حدث ، فإذا بنا أمام فرعون صغير يبطش بالفلاحين ويتفنن في تعذيبهم ويرغمهم على هجرة الأرض التي يزرعونها لتنتقل ملكيتها الى اخيه الخديو حينا .. وإلى ملكيته الخاصة حينا اخر .. وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء حتى وصفه بعضهم بانه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن في مصر ، ولكنه ـ للأسف ـ لم يستخدم قدراته للتخفيف من ويلات الشقاء التي كان يعانيها ابناء وطنه، وانما تحول الى سوط عذاب،حتى استطاع في خلال السنوات العشر التي تولى فيها وزارة المالية ان ينافس امراء البيت المالك في ثرائهم و بذخهم وترفهم وسفههم ، وعندما اوشكت شمس حياته على الغروب كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين الف فدان من أجود الأراضي العشورية ، وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء في ميدان الاسماعيلية (التحرير حاليا) عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالاسكندرية، تحتوى على افخر الرياش والتحف . أما مجوهراته فقدرت بحوالي ٣٠٠ الف جنيه انجليزى باسعار ذلك الزمن ، وكان يمتلك حوالي ٣٠٠ جارية من مختلف الأصناف والأجناس ، ولكن في لحظة من لحظات الغضب الملكي .. ضباع كل شيء ..

شيخ المنسر

p.l

يكن اختيار الخديو اسماعيل لأخيه اسماعيل صديب ق باشا لمنصب وزير المالية مجرد، إرضاء لعاطفة الأخوة التي جمعت بينهما في

إرضاء لعاطفه الاحوه التي جمعت بينهما في مرحلة الرضاع ، وإنما كان الاختيار محسوبا بميزان المنفعة بين رجلين معدومي الضمير ، كان اسماعيل الخديو في حاجة الي رجل متفنن في السطو على الاموال وابتزازها بشتى الحيل ، ولا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب مادام ان نصيب الاسد مصوناً ومحفوظا . وكان اسماعيل صديق هو ذاك الرجل الذي يتمتع بمواهب جهنمية في تدبير المال اللازم بأخس الوسائل ليتمتع بمواهب جهنمية في تدبير المال اللازم بأخس الوسائل لإرواء عطش الخديو حتى يواصل سياسته البلهاء في البذخ والسفه والظهور أمام الأجانب بمظهر الفخفخة والعظمة .. ولو كانت خزانة البلاد أطهر من قلب المؤمن !

في ذلك الوقت كانت البنوك الاوروبية قد أمسكت يدها عن إمداد الحديو بالقروض بعد أن لاحت عليه تباشير الافلاس ، فلم يعد أمامه إلا أن يستدير الى الداخل .. ليفتك بالمصريين ويسطو على ما في أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر .. ولكن هذه العملية كانت في حاجة الى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الادارة ليتعقبوا الفلاحين في عقر دارهم ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والارهاب ، وكان اسماعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر ، من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمامير واتباعهم من العمد والمشايخ .. فلما أصبح وزيرا للمالية وقعت الطامة الكبرى إذ جمع في يده كل الخيوط التي تمكنه من وقعت الطامة الكبرى إذ جمع في يده كل الخيوط التي تمكنه من الادارى مثل (شيخ منسر) يحط على قرى مصر فيسلبها المال الادارى مثل (شيخ منسر) يحط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد .. ولا يتركها إلا قاعا صفصفا تضبع بالأنين .

. . .

وفى سبيل ابتزاز اموال الفلاحين تفتق ذهن المفتش عن اساليب لا تقل انحطاطا عن اساليب الحواة ولاعبى الثلاث ورقات .. من ذلك أنه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرابين الأجانب وهى لاتزال شجيرات خضراء فى الحقول ويتعهد

بتسليمها لهم بعد جنى المحصول ، فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن .. فإذا حتج الأجانب إلى قناصلهم تولى (المقتش) تعويضهم بأن يشترى منهم المحصول الذي باعه لهم (على الورق) بسعر اعلى من السعر الأول مضافا اليه فائدة ٢٠٪..! كل ذلك من أجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة الى المال .. فلما ضاقت السبل أمام الخديوى للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة تتلخص في إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الاطيان لمدة ست سنوات مقدما مقابل الاعفاء من نصف ألضريبة إلى الأبد .. وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) وكان الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق وأنها مجرد الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق وأنها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الاموال الى الخديو الجشع .. ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتاديبه حتى يتعلم أن العين لا تعلو على يمتنع يتكفل الزبانية بتاديبه حتى يتعلم أن العين لا تعلو على الحاجب .. وأن الماء لا يجرى في العالى .. وأن مشيئة الملوك لا

. . .

والجرائم التى ارتكبها (المفتش) اكثر من أن تحصى ، ولكن اعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين هى إيعازه إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس . وكان هذا النصيب يقارب النصف ، مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه ، وهو الذى فاؤض القنصل البريطاني فى الصفقة ، وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها الى انجلترا ، وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذى انتهى بضياع استقلال مصر المالى وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية ، وكانت صفقة الأسهم أخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت أخر مسمار فى نعشه ، فما إن وصل الخبراء الانجليز الى كانت أخر مسمار فى نعشه ، فما إن وصل الخبراء الانجليز الى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم اقصاء المفتش عن منصبه الخطير . وتحيّر الخديو اسماعيل ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مُرّ . ولكن كان عليه أن يضحى باخيه كى ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت

مصر بكل طبقاتها _ فقراء واثرياء وأمراء _ تغلى بالنقمة على اسماعيل صديق باشا (المفتش) ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم في مصائر البلاد والعباد، ويختلس من الاموال ما ينوء بالعصبة أولى القوة.

كان مثل هامان في طغيانه وسطوته واستهتاره .. وكان اشبه بقارون في جشعه وطمعه وزهوه .. وكما سقط هامان وقارون وفرعون ، كان لابد أن يسقط المفتش ويلقى نفس المصير الذي لاقاه الطغاة والجبابرة، فلا نفعتهم اموالهم، ولا هم افادتهم عزتهم ، وإنما مضوا غير ماسوف عليهم ، لم يخلفوا وراءهم إلا اسوا الذكريات .

ومع أن النصيب الأكبر من أذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين إلا أنهم بحكم ضعفهم التاريخي كانوا أقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد ، وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة لاسباب لاتمت بصلة الى المظالم التي عاناها المصريون ، وإنما لاستئثاره دونهم بالأسلاب والمغانم ، وجراته على منافسته لهم _ وهو الفلاح الجلف _ في حياة البدخ والنعيم، وتَفَوّقه عليهم في بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات ، وكان اكثر الامراء حقدا عليه أبناء الخديو الثلاثة: توفيق وحسين وحسن. الذين ساءهم قرب الرجل من أبيهم وحظوته عنده ، ودلاله عليه ، غافلين عن رسالته العظمى في النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم، كانوا ينظرون الى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا ، هدفها إقصاء الغرباء عن وَليّ النِّعَم ، أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصعفيرة ولا يقيم لها اعتبارا .

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش، فقد جاءه من جانب الإنجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر بمقتضى مرسوم اصدره الخديو اسماعيل لحماية مصالح الدائنين الاجانب، واعلنت الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا، فتولى الرقيب الانجليزي الاشراف على أيرادات الدولة ، وتولى الرقيب

الفرنسي الإشراف على مصروفاتها .. وكان الرقيب الانجليزي « حوشن » يضمر عداء شخصيا للمفتش لاسباب قديمة .. فما إن بدا يقلب في الدفاتر حتى اكتشف انه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسالة لا تعدو أن تكون ، ضيعة ، خاصة يتحكم فيها الخديو وأخوه .. وأن الأخوين « اسماعيل » ليسا أكثر من لصين يقتسمان الاسلاب، ولذلك راى ان يبدأ بإزاحة اصغر اللصين . ولم يكن من اليسير على الخديو أن يستجيب لهذا المطلب ، لأنه يعرف جيدا انه شريك اصيل في كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث ، وإذا كان الانجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر، فسوف يتعشون بالخديو في المساء .. فامتنع عن طرده ، عندئد هدد الانجليز بتقديم المفتش الى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها في الدفاتر .. وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش من الحياة كلها وليس من الوزارة فحسب ، كان يعلم أن أهاه لن يتورع عن كشف كل الأوراق وفضح المستور .. وإظهار حقيقة الخديو الذي تسبب في تخريب بلده ووضعه في هاوية الافلاس.

ونسى الخديو كل ما فعله اخوه من اجله .. ولم يفكر إلا في النجاة بنفسه . ولمعت في ذهنه على الغور فكرة التخلص من الرجل الذي افنى حياته في جمع المال الحرام وبني مجده على اشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده .. كأنه قبض الربح .

ذو الأصابع الفولاذية

كان

الخديو اسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع اسماعيل صديق باشا (المفتش) قبل أن يفلت لسانه ويفضع المخازي الني ارتكبها الإثنان وتسببت في خراب خزانة

مصر . وتم ترتيب وسيلة الاعدام على النحو الذى كان متبعا في ذلك العصر .. ففي صباح اليوم الموعود استدعى الخديو اخاه المفتش الى قصر عابدين ليصحبه في نزهة خلوية على ضفاف النيل ، وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مراى من الجميع وهما يتضاحكان .. وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى اكبر دليل على كذب الشائعات التي ترددت عن قرب نهايته . وعبرت المركبة كوبرى قصر النيل في اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حاليا) فلما توقفت أمام بوابة القصر تقدم الحرس فالقوا القبض على المفتش وساقوه الى الداخل وهو يصيح مستغيثا باخيه الذي عاد وحدّه إلى قصر عابدين .

واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبّه بمجلس الوزراء) واستصدر منه قرارا بإبعاد المفتش الى دنقله بالسودان

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) القرار ومضى الى قصر الجزيرة لإبلاغه الى المفتش وإقناعه بالنزام الهدوء والصمت ولكن المفتش الذى تربى فى احضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيدا أن قرار اعدامه على وشك التنفيذ وعبثا حاول اقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملا لرتبة «المشير» العثمانية التى تحول دون محاكمة حاملها إلا فى الآستانة ولكن متى كان الباب العالى يابه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور الملكية وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ الى سفينة نيلية كانت فى انتظارهما والقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة فى انتظارهما والقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة التى اقلعت باتجاه الجنوب ، بينما بقى المحافظ على ظهر رجلا تركيا متخصصا فى الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة . رجلا تركيا متخصصا فى الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة .

ليكتم انفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما اعتصارا حتى يلفظ انفاسه .

وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة حتى تقدم اسحق بك لتنفيذ مهمته . فدخل على المفتش وهو قابع في ركن الغرفة كالفار المذعور .. فقام بمهمته خير قيام . ولم يستغرق الامر اكثر من خمس دقائق ظن بعدها اسحق بك ان المفتش قد اسلم الروح ، فَمَدّ يده لانتزاع الخاتم الذهبي الذي يضعه المفتش في سلسلة ذهبية تحبط بعنقه .

ولم يعلم أن في جسد الرجل بقية من حياة انتهزها للانتقام من قاتله، ففتح فمه كسمك القرش وقضم أصبع إبهام أسحق بك حتى قطعه تماما .. وكانت تلك أخر انتفاضة في جسد المفتش .. سكن بعدها إلى الأبد .. وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته في جوال غليظ ومعه أحجار ثقيلة ثم القوا به في النيل حتى استقر في القاع .. عندئذ توقفت السفينة أمام ساحل المعادي ونزل المحافظ مصطفى باشا فهمي حيث كانت في انتظاره عربة خديوية حملته إلى قصر عابدين ليحمل إلى مولاه خبر نهاية المفتش .. بينما واصلت السفينة طريقها إلى السودان . وهي ترسل إلى القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش الذي لا يكف عن البكاء وطلب الصفح .. وشرب الخمر .

وبعد أسبوع من وصولها ألى دنقلة تطوع طبيب انجليزى افقاق بكتابة تقرير يزعم فيه أن المفتش قد مات متاثرا من انفجار الزائدة الدودية ، وأنه سمح بدفنه بعد أن وقع الكشف الطبي عليه .. ولم تخجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب ، وكان الناس يقرأون الصحف ويبتسمون .. وكان الناس في ذلك العهد نادرا ما يبتسمون .

نوبار باشا

لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء في تاريخ مصر المعاصر كان رجلا أرمنيا مسيحيا هو نوبار باشا الذي لايزال اسمه قائما على احد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة وعلى

إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . وكان نوبار أحد ثلاثة «رجال دولة » برزوا في عصر الخديو اسماعيل ، وكان لهم دور مؤثر في مجرى الأحداث طوال النصف الثاني من القرن الماضي ، والأخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ورياض باشا « نصير الاستبداد » . وسوف اتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لانه كان اسبقهم ظهورا على مسرح السياسة والحكم ، واكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تَسَنى لمثله أن يكون أول رئيس للوزراء رغم الفروق الدينية والجنسية ، وفي وقت كان الاعتبار الديني يوضع في المقام الأول . ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا أنه من مواليد « أزمير » بتركيا .. أي أنه كان عثماني الجنسية ،الأمر الذي فتح أمامه الباب للدخول في نسيج الحياة المصرية والصعود الى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة في شئون الحكم أو تولى المناصب المعرية في الدولة .

. . .

كان محمد على - برغم الخدمات الجليلة التي اداها لمصرية تركى النزعة ، وينطوى على ازدراء لكل مايمت الى المصرية الصميمة بصلة ، وورث عن قومه كرة اللغة العربية - لغة الفلاحين - فحكم مصر ولم يكلف خاطره تعلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من أبنائه ، وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه كان من الطبيعي أن يغض النظر عن العناصر المصرية ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا ، ويكفى أن تتكلم التركية وتنتمي ولو شكلا الى تركية أصلا ، ويكفى أن تتكلم التركية وتنتمي ولو شكلا الى الدولة العلية ، وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التي الدولة المصرية ، فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة الدولة المصرية ، فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة

التحريم ، ولكن إتقانه للغة التركية فتح امامه السبيل للترقى في مناصب الدولة حتى اصبح الوزير المقرب من ولى النعم .

وكان نوبار - ابن اخت بوغوص بك - قد تخطى مرحلة الصبا في أزمير وذهب الى فرنسا ليستكمل تعليمه ، واعتزم الانخراط في الجيش الفرنسي ، ولكن خاله نصحه بالمجيء الى مصر ليجرب حظه فيها بشرط ان يتعلم التركية ، فاستجاب لنصيحة خاله ثم جاء الى مصر فالحقه بقلم الترجمة ، وما هي إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد على الذي عينه سكرتيرا خاصا لابنه ابراهيم فلازمه في كل جولاته ، واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من أسرة محمد على ، الذين عمل في خدمتهم الى أن مات عام ١٨٩٩ في عهد عباس حلمي الثاني .

. . .

والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة ، اهمها الجدية والجلد والكبرياء والانفة والعزوف عن اللهو والمجون ، والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع .

هذه صفات يصعب على صاحبها أن يحافظ على موقعه فى ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش باقرب معاونيهم ، فكيف استطاع نوبار أن يحافظ على وجوده فى موقع الصدارة دون أن يفقد راسه ؟

البعض يفسر ذلك بان نوبار كان يعرف اتجاهات الريح ، فلما أدرك أن شمس اسماعيل توشك على الغروب ، وأن خيوط الحكم سوف تنتقل حتما الى آيدى الانجليز ، تخلى عن سيده ولجا الى لندن يحرض الحكومة البريطانية على تاديب اسماعيل وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار أنه لا أمل في إصلاح الخراب الذي تسبب فيه اسماعيل إلا بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . وتلاقت أفكار نوبار مع رغبات انجلترا التي كانت تعمل على توطيد وجودها في مصر عن طريق المشاركة في الحكم وبسط نفوذها على المائية .

. . .

ولم يكن نوبار يمانع في مشاركة الانجليز في الوزارة المصرية

المقترحة ، بل كان يؤيدها ويبرر ذلك بان المشاركة هي السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر .. ومن الطبيعي أن يستفز هذا الثبرير المشاعر الوطنية ، ولكن نوبار كان يعيش العصر الذي لا يعترف بحق المصريين ويرى انهم غير أكفاء في تحمل المسئولية أو - على أبسط الفروض غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذي يمثله اسماعيل . فكان عليه أن يؤدب اسماعيل بالعصا الانجليزية . وخضع الخديو لأوامر الانجليز واصدر أول الانجليزية . وخضع الخديو لأوامر الانجليز واصدر أول دكريتو ، بتشكيل الوزارة المصرية برئاسة نوبار باشا وتضم خمسة وزراء ، منهم وزير انجليزي للمالية ويراقب الايرادات ووزير فرنسي للأشغال ويراقب المصروفات .. وبعد عشرة شهور ووزير فرنسي للأشغال ويراقب المصروفات .. وبعد عشرة شهور المشوار الذي اختطه لنفسه منذ كان صبيا يلعب في حواري

نيللى .. وتوابعها

يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الارمن، وخاصة الجالية الارمنية التي استوطنت مصر، واصبح لها وجود بارز في بعض نواحي الحياة المصرية الحديثة.

X

والأرمن شعب عريق ، كان لهم في التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة أسيا الصغرى، تنسب الاساطير تاسيسها الى (حايك) من سلالة نوح ، ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا بسبب الحروب والهجمات التي طوقتها من كل جانب ، واذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها، ووقوعها في بؤرة الصراع بين القوى العظمي ـ فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التي ادركتها لعنة الموقع ، فتناوبت عليها جيوش الأشوريين والميديين والغرس واليونان والرومان، وجعلوا منها ساحة للصدام، حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون أوج قوتهم أجهزوا عليها وضموها الى امبراطوريتهم ، وبعد الثورة البلشفية وضع الروس ايديهم على ماتبقي من بلاد الارمن وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التي لا تزال تحمل إسم « ارمينيا » . وكان من الطبيعي أن تؤدى هذه الكوارث الى هجرة الأرمن من ديارهم ليبداوا عصس الشتات والانتشار في العالم . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم وديانتهم ومذهبهم ، يحملون معهم أينما ذهبوا ذكريات العز القديم ، والتطلع الى اليوم الذي يستعيدون فيه مجدهم الغابر. فهم يعيشون في المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ماتعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول .. يختلطون ولكن لا يمتزجون .. ويعملون بجد ونشاط دون الدخول في نسبج الحياة الجديدة أو التورط في تعقيداتها الاجتماعية والسياسية .

. . .

وكائت مصر إحدى الدول التي اجتذبت الأرمن منذ او اخر القرن الماضي .. ولكن الهواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبة التي شنها الاتراك ضدهم عام ١٩١٥ وراح ضحيتها مليون ونصف المليون أرمني (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية التي تقوم بها منظمات ارمنية ضد السفارات التركية) وشق الأرمن طريقهم في

المجتمع المصرى في وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ ، ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين في الوظائف الحكومية أو تملك الأرض الزراعية ، واتجهوا الى الأعمال الحرة التي تعتمد على القدارت الخاصة والمواهب المتميزة كالموسيقي والرسم والتصوير فاتقنوا صناعة الآلات الموسيقية وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . وكلنا يذكر « اندريه رايدر » الذي تخصص في توزيع الموسيقي لكبار الملحنين كعبد الوهاب ، وفي مجال الرسم كان لهم باع طويل في تطوير فن الكاريكاتير ، ومن يطالع صحف الثلاثينات سيجد رواد هذا الفن من الأرمن وأبرزهم « صاروخان » الذي يحمل اسم مدينة أرمنية شهيرة .

وعلى اكتاف الأرمن نهضت بعض الصناعات المحلية ، ليس أهمها البسطرمة والسجق كما يحلو للبعض أن يتندر ، ولاننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان التي أنشاها ماتوسيان وكوتاريللي وكاسيمس ، وفي وقت ما كان أشهر الترزية ومصممي الأزياء ومصففي الشعر من الأرمن ، وكذلك محلات بيع الأدوات الكهربائية مثل نرسيس تشاكجيان الذي يقع في ميدان العتبة .

• • •

وتتركز الجالية الأرمنية في حي الظاهر بالقاهرة ولهم نواديهم الرياضية النشطة ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسي ولهم مدارسهم التي تعنى بتعليم أبنائهم لغتهم وهي لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوروبية ولا يتحدث بها غيرهم فهي عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من الذوبان رغم توالي العصور وتنائي الديار . ولكن هذا الاستقلال الباطني لم يمنعهم من التغلغل في المجتمع المصري والتأثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقي والأغنية والتمثيل ، خصوصا عند الإجيال الحديثة التي ولدت في مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها وتقاليدها .. ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانات : نيللي وتوابعها (اختها الكبرى فيروز وبنات خالاتها لبلبة وميمي جمال) وتوابعها (اختها الكبرى فيروز وبنات خالاتها لبلبة وميمي جمال) وكل منهن برعت في التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصبعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة في الأعماق ،

والروح المصرية المكتسبة، وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التي امتصت الواقع المصرى وتطبعت به.

وإذا كان نوبار باشا ـ راس الشجرة الأرمنية في مصر ـ قد عش طيلة حياته في مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويانف من الاختلاط بأهلها ـ فإن الأجيال الأرمنية الجديدة اندمجت في الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية ، وباتت جزءا من المجتمع المصري الذي توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور ، فلم يلفظها ملى مادامت قد امتزجت به ، وإنما يهضمها ، ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد .. وذلك احد أسرار الروح المصرية الأصيلة .

هيرابو .. مصر

اشتهر

« ميرابو » في تاريخ الثورة الفرنسية بصيحته الجريئة التي القي بها في وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد

النواب دون أن يناقشوا القضايا المصيرية التى كانت بين أيديهم . عندئد صاح ميرابو: إننا هنا بإرادة الشعب .. ولن نخرج إلا على أسنة الرماح .. !! وأصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة .. فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التى شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .

. . .

وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان في القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة في موقف مشابه تماما .. كانت البداية التي توالت بعدها فصول الثورة العرابية . أما النائب ـ واسمه عبد السلام المويلجي .. فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التي برزت في مجلس شورى النواب الذي انشاه الخديو اسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية الي إشراك المصريين في المسئولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين احدهما انجليزي والآخر فرنسي ، تعد العدة لاعلان إفلاس مصر عجلس النواب بما تدبره الحكومة في الخفاء فاعدوا مشروعا مضادا ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي ، بشرط تنظيم الشئون المالية ، وإصلاح مفاسد الادارة بعيدا عن تدخل الوزيرين الاجنبيين، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية فبيتت النية على إجهاض المشروع ، واستصدرت مرسوما خديويا بفض المجلس قبل موعده .

وفي صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر ، الى قاعة مجلس النواب بالقلعة ، وماكاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجرىء عبد السلام المويلحي قائلا : كيف ينفض المجلس وهو لم ينظر بعد في القانون الخاص بالشئون المالية .. ؟ ! إن الأهالي قد انابوا عن انفسهم نوابا للمحاماة عن حقوقهم .. فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالي على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه .. ومن

المستحيل ان ينفض المجلس .. وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصرى ينتمى أبوه الى طائفة التجار .. فقال متسائلا : ماذا تقول حظرتكم .. ؟ مستحيل فض المجلس .. ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم .. هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ماتقوله ؟

واتجه رياض باشا الى بقية الاعضاء لتخويفهم حى لا ينضموا الى هذا النائب الجرىء وقال: مااظن حظرات الخوانك يوافقون على ماتقول ..

. . .

وكانت المفلجاة الثانية عندما اندفع الاعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم واعلنوا تضامنهم معه في كل مليقول .. وهم رياض باشا بالقيام ايذانا بانهاء الجلسة .. وعندئذ صاح عبد السلام المويلحي قائلا : اننا هنا سلطة الأمة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب .. !!

عندئذ وجم رياض باشا لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التى اعادت الى نهنه احداث الثورة الفرنسية فعاد الى مقعده صائحا: يعنى حظرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم .. ؟ يعنى حظراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب اوربا وامريكا .. ؟

ورد النواب الاهانة بعشرة امثالها .. وصاح احمد العويسى : ياباشا انت الآن تشتم نواب امتك التى تعطيك انت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة .. والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه . وقال احمد الصوفانى : أوافق العضو على رد الاهانة للناظر حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . وهنا قال عبد السلام المويلحى : اسمعت ياباشا .. ؟ أرايت عاقبة تسرعك فى الكلام ؟ أعلم أن المسالة ليست مسالة زى وثياب . بل مسالة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الأمة التى وثير أن بل مسالة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الأمة التى وثير انجليزى و أخر فرنسوى ، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وزير انجليزى و أخر فرنسوى ، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ، ثم تجمع أمس ــ أمام الوزيرين الاجنبيين ــ وصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس

شورى النواب غدا ، قالحدر كل الحدر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب في جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج .. تقول ذلك عن نواب بلادك ، مصر العزيزة ، ونحن جميعا درسنا في الأزهر الشريف ،

فقال الشيخ حسن عبد الرازق: إن ماقاله المويلحى يعبر عن افكارنا جميعا.. فصاح النواب: موافقون.. موافقون.. فلم يملك رياض باشا إلا أن يغادر قاعة المجلس وهو يهذى: إذن انا منسحب.. أنتم عصاة .. انتم ثوار.. فقال المويلحى موجها كلامه إلى كاتب الجلسة: لا تحذف حرفا واحدا مما قيل في جلسة اليوم، حتى إذا نقلته الجرائد غدا، علمت الأمة جيمعا من هم المهمج: النظار.. (م النواب..!!

واستجاب النواب لطلب المويلحي باعتبار المجلس في حالة انعقاد دائم .. وتناوب الأعضاء على المبيت في القاعة .. حتى اهتزت اركان الحكومة فاستقالت .. ثم توالت الأحداث التي أفضت الى الثورة .

مجزرة همجية



الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ اعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب، فانهالت قذائف الأسطول البريطاني على مدينة الاسكندرية كانت القنابل تنطلق بدقية وإحكام، فتصيب اهدافها اصابات مباشرة، أما مدافع الحصون

والطوابى المصرية فكانت ضعيفة خائرة متراخية ، فتسقط قنابلها في مياه البحر دون أن تصل إلى البوارج الانجليزية ، واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس ، وهى فترة كانت كافية لتدمير المدينة ، وتحويل أحيائها الأهلة إلى اطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا على وجوههم نحو الريف بحثا عن ماوى يقيهم نار الجحيم .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ارتكبتها بريطانيا العظمي عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الاوربي الذي تغلغل في انحاء الديار المصرية ، وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطنى ، كان حكام مصر من سلالة محمد على قد فتحوا ابواب البلاد على مصاريعها امام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمناى عن المساعلة إذا ارتكبوا احط الجرائم ، ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوى الطبيب الشهير كلوت بك ، أو القائد العسكري الكولونيل سيف، وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانىء الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض، فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا اليها الرحال طمعا في الثراء الرخيص، وامتهنوا احقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة ، فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا، واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة ، واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم في إذلال المصريين في عقر دارهم ، وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع انواع المنازعات الخاصة بالأطيان ، ومنها الرهن ونزع الملكية . ولك أن تعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات كان يطبق عليها ١٧ قانونا اجنبيا تطبقها ١٧ قنصلية ، ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب ماتت ضمائرهم بفعل الطمع والجشع ، فكان على المصرى المسكين إذا خسر دعواه ضد الاجنبى ان يستانفها امام محاكم البلد التابع له هذا الخصم ، وإذا صدر على الاجنبى حكم بإخلاء ارض او عقار لاحد المواطنين ... كان الاجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الارض لاجنبى آخر ، ويصبح على المصرى ان يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد .. وإزاء هذه الدورة الجهنمية كان المصرى يضطر إلى ترك حقه .. وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الاجانب .. واصبح المصريون كالايتام على موائد اللئام .

11.

فلما افاق المصريون على هذا الخطر الداهم، وقامت الحركة العرابية للحد من سطوة النفود الأجنبي، انتفضت بريطانيا لتجهض الثورة بقوة السلاح، وأوفدت اسطولها لتأديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر ، وجاء سيمور ليصبها حمما على رؤوس اهل الاسكندرية في ذاك اليوم المشتوم . ولقد وصف المسيو جون نينيه ـ عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين ـ المجزرة بهذه الكلمات: « كانت البوارج الانجليزية تتقدم للضرب مثنى مثنى ، في بطء ، ثم تصطف في هوادة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا ، وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التي تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الاسطول، ثم تنثني على الرماة المصريين فتحصدهم حصدا بقذائف المتراليوزات المركبة على ساريات البوارج . ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها اى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء، ولقد كان بودى أن أسائل أولئك الضياط الذين كانوا يياشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى في بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عن آثار القتل والتدمير، التي خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ إنى أشك في ذلك ، فليت شعرى أي إهانة لحقت بالأمة البريطانية من جراء هذا الجرم الفظيع .. ، .

وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسري الشريف،

فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوربي الذي كان يتشدق بالحرية ، ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة ، فقد وقفت كل الدول الأوربية تتفرج على المشهد وكانها تتلهى برؤية إحدى حلبات المصارعة بين الأسود والعبيد في العصر الروماني ، حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها ، ولم تجرؤ على أن تقول لغريمتها المتعجرفة ء عيب » . وهرب الأسطول الفرنسي الذي كان يرابط في مياد الاسكندرية قبيل الضرب ، هرب إلى بورسعيد بعد أن كشر له سيمور عن أنيابه ، وخابت أمال المصريين في فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . بل حدث ما هو أدهي وأمر .. فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الاسكندرية وماتبعها من احتلال الحكومة الفرنسية مجزرة الاسكندرية وماتبعها من احتلال عسكرى ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة ، وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ، ولو أنهزم الجيش الانجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للتعصب الاسلامي » .

انعم النظر في هذه العبارة الفريبة حتى يتملكك الغيظ .. !
بريطانيا العظمى تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية
المقيتة ، وترى في دفاع امة صغيرة عن حريتها واستقلالها
وكرامتها مظهرا للتعصب الديني .. !! اما امتصاص دماء
المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح
الديني الذي تريده الدول العظمي !

منطق غريب جدا .. ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر .

هرق الاسكندرية

كانت

الاستحكامات العسكرية في مدينة الاسكندرية قبيل ضربها في يوليو ١٨٨٢ قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم، فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بناء القصور وإقامة

الحفلات وشراء الجوارى، لم يفكروا فى تجديد الحصون والعلاق والطوابى وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجي، ويسبب هذا الضعف والاهمال لم تصعد الطوابي أمام النيران الهائلة التي صبتها قذائف الاسطول الانجليزى، ولم يبق أمام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائرة سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمق الأخير. وكان الثمن غاليا.

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين وكانه يرسم لوحة زيتية رائعة لماساة دامية فيقول: « ماكان أبدع هذا المنظر.. منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهي مكشوفة في العراء وكانما هم في استعراض حربي لا يرهبون الموت الذي يكتنفهم ، إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا سواتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغي ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الاثمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافات تستحث ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافات تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، بل أن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التي استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة في صدورهم ، وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد في آلامهم . »

وفي اليوم التالى استانف الاسطول البريطانى قصف المدينة الباسلة رغم أن الطوابى قد سكتت تماما بعد تخريبها، ورفعت الرايات البيضاء، وظهر جليا عزم الانجليز على احتلال المدينة بعد أن دكوا حصونها وحطموا كل وسائل دفاعها، وبينما كانت طلائع قوات الغزو تطأ أرض الساحل السكندرى ، اندلعت النيران فجأة فى حى المنشية ، وماهى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران فى بقية الأحياء الشعبية والأجنبية ، وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج .

● من الذي أمر بحرق الاسكندرية .. ؟

لايزال هذا اللغز موضع أهتمام الباحثين . وكان من الطبيعى أن ينصب الاتهام على رأس العرابيين الذين أبوا أن يتركوا المدينة موطئا سهلا للغزاة ، ففعلوا مافعله الروس في موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون فحرموه نعمة الايواء في مدينة أمنة ، وقال بعض الشهود إنهم رأوا عبد الله النديم – بعد الحادث – في محطة سيدى جابر راكبا في صهريج القطار وفي يده طبنجة وسمعوه يقول إنه قتل بها ثلاثة اشخاص وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصُبَّ على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

erzic asada ilanjesa irana ala in ilico in especio especio ilanio ilanjesa ilanjesa

ولقد أثبتت التحقيقات أن مسئولية إحراق المدينة وماتعرضت له من اعمال السلب والنهب لا تقع على عاتق القائمقام سليمان سامى داود وحده، وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة، وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الاسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف، فقد عثر على جثث

آروام بلباس عرب اثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من اولاد على ، ممن كانوا على صلة بالخديو توفيق ، ومنهم اهالى الاسكندرية ومنهم اوربيون بقصد المبالغة في طلب التعويضات ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت في الأحياء الشعبية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ، ومن فعل بعض الاوربيين الذين بقوا في المدينة بقصد النهب ، وبعض الاشقياء الذين اطلق سراحهم من السجون ، اما حرائق الأحياء الأوربية فهي من فعل عربان « اولاد على » الذين كانوا مجتمعين حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الاروام ، ثم بعض أصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على تعويضات .

ورغم توزع المسئولية على كل هذه العناصر، إلا أن المسئولية وضعت في رقبة القائمقام سليمان سامي الذي نجح في الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان العثماني، وبعثت سلطات الاحتلال البريطاني الى حكومة استانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها، ولم يكن من حكومة استانبول سوى الإذعان، فالقت القبض عليه وبعثت به مخفورا إلى مصر، حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه بالاعدام.

وكان سليمان سامى داود أحد ضابطين اثنين حكم عليهما بالاعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف أحكام الاعدام عن قادة الثورة العرابية ، أما الضابط الثاني فله قصة أخرى .

الشهيد البرىء

کان

من الطبيعي أن تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب بعد ضرب الاسكندرية واحتلال الانجليز لها . وكان المهاجرون من أبناء الاسكندرية قد انتشروا في انجاء الدلتا

يحكون للناس عن الفظائع التي وقعت لهم، فثارت خواطر العامة، وامتلات نفوسهم حقدا وغيظا ونقمة على الاوربيين الذين كان تواطؤهم مع الانجليز أمرا واضحا منذ بداية الازمة، وقامت جماعات من المتحمسين في طنطا والمحلة الكبرى ومنوف تطارد الاجانب في الشوارع وتعتدى على محلاتهم، ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم، لما يعرفونه عن المصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم، لما يعرفونه عن المصارفة عند المصريين، ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم المعروفة عند المصريين، ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم المنشاوى باشا في طنطا لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من المنشاوى باشا في طنطا لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الأوروبيين فوجدوا فيه الحماية والأمان.

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة احمد عرابى باشا فى كفر الدوار ، وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائداً لجبهة دمياط ، فاوفد ياوره الخاص اليوزباشى يوسف آبو دية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار ، واثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى ، فالأهالى يطاردون الاجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم أن يترك المدينة وهى على هذه الحال من الموضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار ، وأبى عليه حسه الوطنى وإدراكه منى المديرية فلم يجد مدير الغربية ابراهيم باشا ادهم فى مكتبه مبنى المديرية فلم يجد مدير الغربية ابراهيم باشا ادهم فى مكتبه فى هذا الوقت العصيب . وقيل له إنه مريض وملازم الفراش فى مبتيه ، فمضى إليه فى بيته فوجده سليما وصحته زى البمب. فما كان من الضابط الشاب إلا أن انهال على الباشا المدير تقريعا وتوبيخا ، وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار ، حيث حكى

لعرابي باشا عن قصة المدير المتمارض الذى لزم بيته تاركا الفوضى تضرب اطنابها في مدن الغربية ، وابلغه ماسمعه عن وقوع احداث مشابهة في المنوفية ، فانزعج عرابي انزعاجا شديدا ، وامر بالقبض على مدير الغربية ومدير المنوفية ، وتقديمهما إلى محاكمة فورية امام المجلس العسكرى المنعقد في القاهرة ، وامر بإرسال اورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا حسنى لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية ، واصدر تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية بإرسال قطار خاص إلى طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون في السفر إلى الاسماعيلية وبورسعيد بالمجان .

فلما انقلب الميزان، وانهزم الجيش المصرى امام جحافل الاحتلال البريطاني ، خرجت الأفاعي من جحورها ، واستاسدت الثعالب والذئاب ، وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصس الوطنية التي وقفت إلى جانب عرابي دفاعا عن استقلال الوطن، وفي إطار الانهيار الاخلاقي الذي عم البلاد تحول الخونة إلى أبطال ، وانزوى الأبطال في غياهب السجون ، وانقلبت قضية المدير المهمل ابراهيم ادهم على اعقابها ، وخرج من سجنه ليوجه الاتهام الى الضابط الشاب يوسف ابو دية بانه كان يحرض اهالي طنطا على قتل الأجانب!! ولم يعدم المدير الهمام العثور على بعض الساقطين من ذوى الذمم الخربة ليشهدوا زورا امام المحكمة العسكرية بالاسكندرية بان اليوزياشي أبو دية كان يحرضهم على الفوضى والشبغب .. ولم يكن لدى المحكمة العسكرية وقت لتفنيد هذه الدعاوي والتأكد من بطلانها ، فلم بكن الوقت يسمح بمثل هذه الاجراءات القضائية . كان المطلوب سرعة البت في محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الانجليز لتنظيم شئون الاحتلال .. وذهبت عبثا محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب الادعاءات التي افتراها عليه المدير، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقا، وسيق إلى السحِن انتظارا لتنفيذ الحكم.

ومضت الایام ثقیلة کثیبة حتى نشرت الصحف نبا الحکم بالإعدام على الضابط البرىء يوسف ابو دية ، وثارت ضمائر

بعض أهالي طنطا ، فقد أرعجهم أن يساق إلى حبل المشنقة ضابط بتهمة التحريض على قتل الأجانب ، بينما شاهدوه باعينهم وهو يبذل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء، فتطوعوا بالذهاب إلى مكاتب التحقيق بالاسكندرية ، وشهدوا بالحقيقة التي لمسوها بأعينهم ، واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التي قدمها المدير ، وأعادت هيئة التحقيق فتح ملف القضية واقتنعت بصحة الوقائع الجديدة وكذب الأدلة التي استند إليها حكم الإعدام. واعدت هيئة المحكمة تقريرها وانتهت فيه الى براءة اليوزباشي يوسف أبو دية ، ورفعت تقريرها إلى وزير الحقائية طالبة استصدار مرسوم من الخديو بالعفو على الضابط البرىء واصدر الخديو توفيق مرسوم العفو الذي حمله رسول خاص إلى الاسكندرية . وشناء القدر العاثر أن يصل المرسوم إلى السجن بعد حُمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام في الضابط البريء ، وقرآ مامور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد يوسف أبو دية تتدلى في بئر المشنقة . ولم يتمالك الحاضرون انفسهم، فأجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشماوى تفسه.

أبو الدستور

کان

قاضى قضاة مصر عام ١٨٢٦ رجلا تركيا اسمه محمد شريف افندى الشركسى، وكان منصب قاضى القضاة من المناصب العليا التي تستاثر بها حكومة الخلافة العثمانية بحكم سيادتها على مصسر رغم

استقلال محمد على بعصر استقلالا فعليا ، وفي أثناء السنة التي قضاها الشركسي افندى بمصر انجب طفلا اسماه (شريف) ، ولم يلبث أن عاد به إلى الآستانة بعد انتهاء فترة خدمته بمصر ، وبعد سنوات عين الرجل قاضيا على الحجاز وفي أثناء ذهابه إليها عرج على مصر ليحظى ببركات ولى النعم محمد على الذي ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء وادرك أنه سيكون له شأن وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة فطلب من الآب إبقاء ابنه في مصر ليتلقى تربية ملوكية مع أبناء الوالي ، ووافق الأب وترك الصبى وديعة في كنف عزيز مصر ، والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التي انشاها محمد على في الخانكة لتعليم أولاده أصول الضبط والربط، وكان زملاؤه من أبناء العزيز: سعيد وحليم وحسين ، ومن الأحفاد اسماعيل ، فلما اتموا تعليمهم سافروا الى باريس ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التي اقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجي مدرسة الخانكة ، وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية فالتحق بمدرسة (سان سير) وهي يومئذ ارقى المعاهد العسكرية الفرنسية وبعد تخرجه خدم في الجيش الفرنسي سنتين فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب فدخل الجيش المصرى معاونا للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) وتوطدت الصداقة بينهما حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد تقتحت أبواب الترقى أمام شريف باشا فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء ، وبعدها ترك الخدمة العسكرية وتفرغ للنشاط الدبلوماسى وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية فأصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية فلما تولى اسماعيل ازدادت فرص الترقي أمام شريف حتى اضحى وزيره الأكبر وموضع ثقته لدرجة أن عَيّنه (قائمقام مصر) أثناء غيابه في الخارج ، وكانت المرة الأولى التي يعين فيها نائب عن خديوى مصر من خارج الأسرة العلوية .

هذا هو شريف بأشا الذي ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التي شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان أجلها نشوب الثورة العرابية ، وأفدحها وقوع الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٧ ، ولكن الشهرة الكبرى التي علقت باسم شريف إنما جاءت من ارتباطه بالدستور وبالحياة النيابية وكلاهما خرج من اعطافه وبفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية وبغضه للاستبداد .. والحكم الأتوقراطي وإصراره على حق المصريين في ممارسة الأساليب الحديثة في شئون الحكم .

. . .

كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل أن شهدت مصر في عام ١٨٧٩ تدوين أول دستور على احدث المبادىء العصرية وأخذ شريف مسودة الدستور وذهب بها ألى مجلس النواب الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به فاعاد شريف للمجلس اعتباره وطلب منه الاستمرار في ممارسة مهامه النيابية احتراما للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس ، واعلن شريف أنه لن يوضع قانون ولن يعدل قانون ـ بما فيها القوانين الأساسية التي تقرر النظام الدستورى ـ إلا بقرار من المجلس ، وزيادة في تكريم مجلس النواب وإضفاء صفة (اللجنة التأسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو اسماعيل حتى لا يبدو وكانه منحة من ولى النعم ومن الماثر التي سوف تذكر لشريف باشا أبد الدهر أنه ضمن هذا الدستور نصا يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم في مجلس النواب يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم في مجلس النواب

. . .

بعد كل هذا الا ترى أن شريف باشا يستحق عن جدارة لقب (أبو الدستور) ..! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل لا يزال مثار دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن اسماعيل وتزداد الدهشة إذا تذكرنا أن شريف باشا لم يكن مصريا أصيلا ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى في عروقه قطرة واحدة من دماء

الفلاحين .. ! فما الذي دفعه الى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف الى جانب الحقوق الدستورية للمصريين في مواجهة السلطات الاتوقراطية التي كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا الترك والشركس والألبان .. وهو الذي ينتمي إليهم .. ؟ !

تصة مزعومة

قبل

ان امضى فى الحديث عن شريف باشا، أبى الدستور وراعى الحياة النيابية فى مصر الحديثة، استاذن القارىء فى عسرض هذه

الحكاية التى تتصل بشريف نفسه ، وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ وهو مجلس شورى النواب الذى أنشأه الخديو اسماعيل ليستكمل به ديكور الحضارة الأوربية فى مصر .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس. لأول مرة ، اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبا) بالقلعة ، والقي عليهم درسا في اصول الإجراءات البرلمانية ، ومنها أن يشكلوا من بينهم حزبين : احدهما يؤيد الحكومة ويجلس على مقاعد اليمين ، والثاني يمثل المعارضة ويجلس على اليسار ، وتظاهر النواب بانهم استوعبوا الدرس ، فلما دخلوا القاعة جلسوا جميعا على اليمين ، فثار شريف باشا وافهمهم انهم بذلك يخرقون التقاليد ، ولكن النواب استنكروا طلبه وقالو له : كيف يخطر ببالك ياباشا أن يكون بيننا معارض الحكومة أفندينا وولى نعمتنا ..!! وتمضى القصة ــ امعانا في السخرية ــ فتزعم بان شريف باشا اصر على أن يجلس بعضهم في مقاعد اليسار ، فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعا الى مقاعد البسار ..!!

. .

فما رايك ـ عزيزى القارىء ـ فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ، فلا يجدون امامهم من سبيل سوى التحقير من شان آباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل البرلمانى الأول ، واظهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة لحكومة ولى النعم ..!!

إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل .. قبل عرضها على ادوات البحث التاريخي .. قلن يستسيغها . فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية .. وهو

قول فيه نظر - الا أن الأمر لا يبلغ بهم حد البلاهة ، واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصطنعة ، بل المعقول أن تنشأ بينهم « خميرة » معارضة ولو على سبيل التقليد للغرب ، كما يشاع على لسان شريف باشا في القصة المزعومة ، فضلا عن ذلك فإن المجتمعات الانسانية عرفت المعارضة في كل الشرائع والنظم ، فلماذا يصر بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التي عرفتها كل الشعوب ..!!

. . .

اما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخي فسوف تكتشف انها قصة مختلقة ليس لها اصل في مصادر التاريخ الموثوق بها، وإنما هي من مخترعات الكتاب الأوربيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون - في رأيهم - لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية ..

وهذه النتيجة هي التي انتهى اليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بعد أن فند القصة ومحصها فلم يجد لها سندا من اقوال شهود العيان الذين عاصروانشاة المجلس، ولا جاء ذكرها ولو تلميحا في مضابط المجلس، ويضيف الي ذلك قوله بأن الرواية لا يسيفها المنطق لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدع مجالا لتاليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة، فالاحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو مايعرف بمبدا المسئولية الوزارية) ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق أدسلا .. مما يقطع ببطلان القصة من أساسها ..

. .

ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلقة ، والترويج لها بحسن نية ، دون ادراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم ..!! .

مسرحية متقنّة الصُنع

بالث

هزيمة العرابيين في التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ايقن أحمد عرابي أنه لا أمل في الصمود، فهرع الى القاهرة، وسلم نفسه الى

سلطات الاحتلال البريطاني التي اصبحت منذ هذا اليوم المشئوم مصاحبة الكلمة الأولى في ادارة شئون مصر ، واضحي الخديو توفيق مثل خيال المائة .. لا تتعدى سلطانه حدود قصره ، وبدات اجراءات المتحقيق مع عرابي وزملائه السنة تمهيدا لمحاكمتهم ، ورأى الانجليز أن تقتصر قائمة الاتهام على تهمة واحدة فقط هي : عصيان الخديو وأن يصدر الحكم على عرابي وزملائه بالإعدام متضمنا التخفيف الى النفي المؤيد خارج مصر .

وكان توفيق الخائن لا يرى بديلا عن اعدام عرابي ، ولو كانت توجد عقوبة اشد فتكا وتنكيلا من الاعدام لما تورع عن استعمالها ، ولو ترك توفيق وهواه .. لاستخدم مع عرابي ابشع فنون التعذيب التي تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف التاريخ ، ولكن الانجليز .. وقد استقرت لهم الأمور .. وقفوا في وجه توفيق .. وحالوا بينه وبين رقبة عرابي ..

وبدا الأمر في غاية الغرابة ..!!

● حاكم البلاد الشرعى يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الغزو الانجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز والتردد ..

● وسلطات الاحتلال ترى الابقاء على حياته !!

. . .

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين ونقاد التاريخ ، وقد حاول المؤرخ عبدالرحمن الرافعي ان يلقى ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابي والانجليز ، مستعينا في ذلك بمزاعم الساسة الفرنسيين ، وقد بلغ بهم الشطط أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابي والانجليز على احتلال مصر!!

ومع ان الرافعي وصف اقوال المسئولين بانها (اسراف في الانهام) الا انه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الانهام الفظيع ودحضه ، وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية ، واي ناقد المتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية ، فقد خرجت فرنسا من سباق احتلال مصر خاسرة ، واستطاعت انجلترا ان تنفرد بمصر وتفترسها بعد ان خدعت الذئاب الأوروبية الأخرى وابعدتها خارج الحلبة ، فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخييتها سوى التشنيع والتشكيك في وطنية عرابي وانهامه بالتواطؤ مع اعدائه . وظل هذا الانهام معلقا برقبة العرابيين سنين طويلة ، والمؤسف ان تاثرت به بعض العناصر الوطنية مثل مصطفى كامل والشاعر احمد شوقى وبدا هذا التاثر واضحا في كتابات الرافعي التي تزخر بالتحامل والتجنى على والحركة العرابية

...

ولكن السؤال الأهم الذي لايزال قائما هو: لملاا اظهر الانجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابي -- ولملاا اصروا على الابقاء عليه حيا، وهم الذين جردوا الاساطيل للقضاء عليه ؟ لقد ظهر عطف الانجليز على عرابي منذ وقع في ايديهم، وهددوا الخديو اذا اصابه مكروه، وامروا بان يعامل معاملة انسانية في سجنه ولا يتعرض لأى تعذيب، بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه ابراهيم اغا في منتصف الليل ليفتح الزنزانة على البطل الاسير ويوقفه من نومه ثم يبصق في وجهه وينهال عليه باقدع الشتائم، وعين الانجليز مندوبا خاصا (تشارلس عليه باقدع الشتائم، وعين الانجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابي، وتدخلوا في توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الاسكندرية التي وقعت قبل شهر من ضرب

وفى نفس الوقت كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن هدفها انقلا عرابى من حبل المشنقة ، وكان محور هذه المساعى الكاتب الحر والسياسي الانجليزي الشهير

مستر (بلنت) صديق العرابيين الحميم وكاتم اسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية ، وقاد بلنت حملة اعلامية من أحرار الانجليز لتحريك الرأى العام الانجليزى ليرغم حكومته على انقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه الى حياة جديدة تناسب روح العصر ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة في ادارة الدلاد

وبينما كان عرابى عاجزا عن توكيل محام مصرى يتولى الدفاع عنه امام المحكمة المصرية (!!) كان بلنتُ قد نجح فى تكليف محام انجليزى للدفاع عن عرابى واخوانه .. وجاء الرجل الى القاهرة وقام بمهمته الجليلة .. وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم .. حتى اذا وقف عرابى امام قضاته كان كل شيء قد تم اعداده مسبقا .. وبدت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مدنب .. أم غير مدنب ؟

p.l

تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية اكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لأن يؤدى كل طرف من اطراف المسسوم باتقان .. وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعسة

مجلس الشورى حاليا) ستار الختام وهو ينسدل على تلك الملحمة الاسطورية الباسلة التي خاضها الشعب المصرى ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبي .. ولكن .. هاهو ذا الحلم الذي راود قلوب المصريين في الحرية والعدل .. يخبو ويذبل .. وهاهو ذا البطل القومي المهزوم يقف اسيرا بين براثن اعدائه ليؤدي الدور الذي كتبوه له .. ولم يكن مطلوبا منه ان يتكلم او يدافع عن نفسه .. حتى اذا سالته المحكمة عما إذا كان مذنبا أم يدر مذنب ـ اشار إلى محاميه الانجليزي ، مستر برودلي ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بانه مذنب ، ثم يقدم الي هيئة المحكمة نص الوثيقة التي وقعها عرابي في صبيحة ذلك اليوم ونصها « بمحض ارادتي الحرة وبناء على مشورة محامي ، الوم ونصها « بمحض ارادتي الحرة وبناء على مشورة محامي ،

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديو.

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات ، أغلب الظن ان اعضاء المحكمة التسعة قضوها في تدخين الشيشة ، فلم يكن هناك شيء يستحق المداولة ، لأن رئيس المحكمة ـ الفريق رؤوف باشا ـ كان يحمل في جيبه نص الحكم الذي كان محكوما عليه بأن ينطق به أمام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامي للمحاكمة ..!

هل كان عرابي مخطئا حين قبل الاشتراك في هذه المسرحية التي انتهت بتخليص رقبته من حبل المشنقة ومعه رقاب سنة من اكبر أعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد .. ؟ ؟

من السهل على قارىء التاريخ المعاصر أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطقة الحماسة ، ولكن من الصعب على الباحث المنصف أن يصدر مثل هذا الحكم قبل أن يلم إلماما كافيا بالظروف والملابسات التي أحاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض ، وبذلك يكون حكمه أقرب الى الانصاف والعدل ..

أما خصوم الثورة العرابية فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام انجليزى للدفاع عنه أمام محكمة مصرية ، ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابي بالتواطؤ مع الانجليز ..

والواقع أن عرابي لم يقصر في توكيل محام مصرى عنه ، ولكن الذي حدث أن هذا المحامي المصرى تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو .. بينما كان مستر بلنت مصديق العرابيين قد نجح مع اصدقائه الأحرار الانجليز ، في الاتفاق مع مستر برودلي وزميله نيبير للدفاع عن عرابي واخوانه ، وعندما جاء المحاميان الانجليزيان الى مصر وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر ، و آل إليها زمام الأمر كله ، فكان لابد من « تسوية » ترضى جميع الإطراف .

كان لورد دوفرين ، سفير انجئترا في الاستانة واحد اساطين الاستعمار البريطاني ـ قد جاء الى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر في ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستغماري طويل الأجل الذي سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر ، وكان من رأى دوفرين الفراغ بسرعة من قضية العرابيين واغلاق هذا الملف الثورى الى الأبد ، حتى تتفرغ انجلترا لمهمتها الاستيطانية في مصر ، ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسية لمسرحية محاكمة العرابيين ، واشرف بنفسه على اخراجها ووزيع الأدوار على كل طرف من اطرافها ، فلما كشف افندينا توفيق الخائن عن نواياه الانتقامية من عرابي واخوانه ، تصدى له دوفرين ، واظهر له يدا حديدية ملفوفة في قفاز من المخمل ، فنراجع أفندينا ورضى بالأمر الواقع ..

كان دوفرين يعارض إعدام عرابي ، ليس لانه لا يستحق الموت ، ولكن لأن الراى العام الانجليزى ، ومن خلفه احرار أوروبا وأمريكا كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية ، وأن عرابي وزمرته أبطال يستحقون التمجيد ، ولم تكن حكومة جلادستون في لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المؤثر .

هذه واحدة .. اما الثانية فترجع الى نوايا الاحتلال في مصر وعزمه على البقاء فيها لاطول فترة ممكنة بدون ازعاج ، وبدون هبّات شعبية تهدد وجود الاحتلال ، الأمر الذي يتطلب الابقاء على حياة عرابي حتى لا يصبح مصدر إلهام لتورات متجددة ، وكان لابد من اغلاق ملف البطولات الشعبية حتى تموت بذور الثورة بموت ابطالها في جزيرة نائية غارقة في مباه المحيط الهندى .

واثمرت خطة الاستعمارى العريق دوفرين ، وعاشت مصر اقسى فترات حياتها فسادا وانحلالا .. وغلب الياس على النفوس حتى فقد الناس الأمل في صبح جديد ، ولكن مصر الولود المعطاء لم تلبث أن الفاقت من غشيتها ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها .. وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صداه انحاء البلاد فايقظ النيام بعد طول رقاد ، وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها وتثبت أن في السويداء رجالا بابون الضيم والخنوع والاستعباد ..

أمراء .. لكن شرفاء



تاريخ الثورة صفحة مجهولة تتعلق بموقف امراء الأسرة العلوية من هذه الثورة، خاصة عندما تطورت الأحداث الى ذروة الصدام المباشر بين عرابى باشا من جهة، وتوفيق خديو مصر

وعميد الأسرة العلوية من جهة اخرى .. وكان على افراد الأسرة أن يحددوا موقفهم من المعسكرين .. وهو الاختيار الصعب . ومن الحقائق المعروفة أن توفيق هذا .. لم يكن يتمتع باحترام أو تاييد اقاربه لاسباب كثيرة بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقي الذى كان من أبرز مميزاته الجهل والغباء والتردد والغدر، وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الاسرة نفسها، وهي صراعات كان يقودها أمراء أقوياء يرون انفسهم أحق بالملك من توفيق ، لولا اللعبة التي دبرها والده اسماعيل لتغيير نظام وراثة العرش، وبمقتضاها أصبح الحكم من نصيب أكبر أبناء الوالي بعد أن كان من حق أكبر أفراد الأسرة ، وكانت تلك غلطة اسماعيل القاتلة ، ولعله هو نفسه كان اول ضحاياها .. فلم يكن ابنه توفيق .. وهو ولى للعهد .. ببعيد عن مؤامرة عزل ابيه ، وكان أقوى المناوئين الأمير عبدالحليم اصغر اولاد محمد على الذي نحاه اسماعيل ونفاه إلى الاستانة .. ومن هناك كان يحيك الدسائس لاستعادة عرشه السليب ، وكان هناك أيضا الأمير مصطفى فاضل شقيق اسماعيل الذي ابعد عن العرش ليحل محله توفيق الغبى الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية تضاءلت امام الحدث الاكبر حين تعرضت مصر للغزو الانجليزى، وانهالت قنابل الاسطول على الاسكندرية في يوليو ١٨٨٧ وكشف توفيق عن وجهه القبيح بانحيازه العلنى الى جيش الاحتلال. وبينما كان الجيش المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم، اجتمع قادة الأمة من كل الفئات والطبقات والاديان واصدروا قرارا تاريخيا بالوقوف خلف الجيش المصرى بقيادة عرابي وعدم الاعتراف بالأوامر التي يصدرها توفيق الخائن من مكمنه في الاسكندرية، «حيث أن

الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وكان فى طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من امراء الأسرة العلوية.

وفى اثناء معركة كفر الدوار ظهرت حاجة الجيش المصرى الى المال والعتاد والمؤن ، بعد أن استولى السير «كالفن » المراقب المالى الانجليزى على اموال الخزانة المصرية وحملها فى الاسطول الانجليزى المرابط فى الاسكندرية . وهنا ظهرت معادن المصريين الأصيلة ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب .. ولم تتخلف اميرات الاسرة العلوية عن المساهمة فى هذا الواجب المقدس ، وفى طليعتهن الأميرة خوشيار ام الخديو اسماعيل التى تبرعت بجميع خيول عرباتها، واقدى بها بقية الهراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى فى مذكراته ..

على أن الجانب المثير في موقف اميرات الاسرة العلوية إنما يتجلى رائعا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها ، ففي هذا الوقت العصيب الذي تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبراوا منها . فلات الأميرات على مبداهن العؤيد للثورة وقائدها ، ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو من الوقوف الى جانب عرابي في محنته ، وبقين معه حتى اللحظة التي غادر فيها مصر الى منفاه السحيق ، وبينما كان عرابي يستقل القطار من قصر النيل الى السويس انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته ، فبعثت اليه واحدة بمعطف ثمين ، وأرسلت اخرى مصحفا كبيرا وثالثة سجادة صلاة . . الخ .

ويكشف مستر برودلى محامى عرابى الانجليزى عن هذه الصفحة المضيئة فيقول: أن عرابى وجد فى سيدات مصر أكبر عون فى ثورته فقد ساعدنه منذ اللحظات الأولى مساعدات لها قيمتها ، وظللن يقدمن هذه المساعدة حتى بعد أن فقد آخر أمل فى النصر ، بل إن أميرات الأسرة الخديوية باستثناء أم الخديو وزوجته من يعطفن عطفا كبيرا على عرابي باشا ، والفن عدة جمعيات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى فى موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة الى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها ، وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا

تشكره فيه على دفاعه عن عرابي .

ويعلق برودلى على ذلك بقوله: ولاشك أن هذا خير رد غلى اولئك الذين يزعمون أن حركة عرابى لم تكن إلا حركة فردية ، فهى في الحقيقة حركة شعبية اسهم فيها المصريون جميعا.

وكشف برودلي في مذكراته التي ترجمها محمود كامل المحامي عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو ، قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا ..نحن الاميرات . تعطف على عرابي منذ البداية ، لاننا نعرف انه كان يرغب اصلا في تحقيق اماني المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر الى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الانحليز الذين التجأ اليهم الخديق ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر في القاهرة، اشترك في بعضها الأمير ابراهيم والأمير كامل والأمير احمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابي حتى يسير بالحرب الى النهاية ، لقد راينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات ، بل ان احدى الاميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقد مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا ، وقد عوقبت الأميرة التي طلبت الزواج بعرابي شر عقاب بالرغم من أن والدتها اعترفت بأنها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها ، ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذي وشي بسر الخطاب الى الخديو ، فضربته بمقعد على رأسه ، واخيرا صدرت الينا الأوامر بالذهاب الى القصر ، وكنا نبكي من الخوف والذعر، وبعد أن وبختنا والدة الخديو قالت لنا أن الانجليز سوف يسلمون عرابي الى الخديو ليقتله شبر قتلة ، وامسكت بكشف طويل فيه كثير من اسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا . وعندما علمنا بان حياة عرابي مهددة ساد الوجوم والحزن في دوائر القصر كان احدا من الأسرة نفسها قد مات ..!

في دواد العصو عان الحداد في الرسود علي المحامي الانجليزي قائلة « بعد كل ماحدث .. لا يمكن أن يستتب أمن في البلاد .. لا لنا .. ولا لكم .. ولا لمصر .. »

كيرئس الشامس

کان

البطريرك كيرلس الخامس من اطول أباء الكنيسة المصرية عمرا .. فقد تولى قيادة الكنيسة في عصر الخديو اسماعيل، ومات

في ١٩ اغسطس ١٩٢٧ قبل اسبوع من وفاة سعد زغلول ، وعاصر خمسة من ملوك مصر : اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني وحسين كامل واحمد فؤاد ، وعايش خلال فترة كرازته ... التي بلغت ٣٥ عاما ... احداثا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العرابية ثم الاحتلال البريطاني والحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ ثم استقلال مصر وظهور أول حكومة شعبية في ١٩٢٤.

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة تجمع بين المهابة والوقار والحزم الى جانب الزهد والورع ، ولكن المدهش في شخصية هذا البطريرك هو مشاركته الايجلبية في كل الاحداث الخطيرة التي تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العرابية حتى النهاية ، فكان في مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذي استعان بالانجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال تصدى البطريرك لكل المحاولات التي بذلها الانجليز لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التي قدمها اللورد كرومر لمنح المدارس القبطية معونات مالية .. وبعد ثورة ١٩١٩ وقف الي المدارس القبطة ، ولما حاول الانجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الإصانية ، ولما حاول الانجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الأقباط رد عليهم قائلا : ان المصريين شعب واحد وحمايته الأقباط رد عليهم قائلا : ان المصريين شعب واحد

كتب عنه عباس محمود العقلا : كان كيراس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا برسالته الدينية اشد الايمان ، وكان ـ مع رعايته لفرائض الدين ـ لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية في معاملته لاصحاب السلطان ولو كانوا من العلوك او في حكم العلوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال ـ لورد كيتشنر ـ ان يلقاه كيراس على غير موعد ، فذهب الى دار البطريركية وامر الحجاب ان يبلغوا صاحب موعد ، فذهب الى دار البطريركية وامر الحجاب ان يبلغوا صاحب الفبطة ان فخامته موجود في الدار .. وهرول الحاجب وهو يلهث

صائحا : اللورد يا أبانا .. اللورد يا أبانا .. فساله في أناة : من اللورد ياهذا ؟ وعلم جلية الأمر فلم يزد على أن قال : أذهب ياولد وقل لفخامته أن البابا لا يقابل أحدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد أن يبارك وزارة سعد زغلول ، فلم فؤاد أن يبارك وزارة تعدى أن قال : أن البركة لا تمنح باليمين لتسلب يجبه ولم يزد على أن قال : أن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهلته هذه السجايا والمواقف .. كما يقول طارق البشرى .. في مؤلفه « المسلمون والأقباط » ... لأن يكون موضع التجلة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر اليه رجال الحركة الوطنية بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم ..

ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين اقلحوا في استصدار قرار بتجريده من سلطاته ونفيه الى دير البراموس بوادى النطرون في اول سبتمبر ١٨٩٢ .. وتلك قصة اخرى ..

الكنيسة المصرية

فی

| اخريات القرن الماضى اشتد تيار الاصلاح الديني ـ بجناحيه الاسلامي والمسيحي - وإن اختلفت المنطلقات والنتائج ، فعلى المستوى الاسلامي أقاد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على الجمود فى الفقه ومناهج التعليم الأزهرى فاصطدم بقوة

السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ماهو عليه .

اما على المستوى المسيحي فقد تبلورت دعوة الاصلاح في قيام هيئة علمانية تقف الى جانب الكنيسة وتشاركها الاشراف على الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر في قضابا الأحوال الشخصية للأقباط .. الح . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس الملي) بالانتخاب الجزئي من جانب الاقباط، ومن الواضيح أن دعاة الاصلاح كانوا متأثرين بموضة المجالس النيابية والمشاركة في الحكم التي باتت صيحة العصر ، ولكنهم اخطاوا إذ تصوروا امكانية الانتقاص من سلطان الكنيسة القبطية ذات التقاليد الراسخة في احترام السلطات الموروثة للبطارقة منذ بشارة مرقس الرسول ، وأخطأوا مرة ثانية حين لجاوا الى الحكومة لتنصرهم على البابا كيرلس الخامس الذي اتخذ موقفا عنيدا ضد تداخلات المجلس الملى . صحيح انهم نجحوا في اصدار فرمان من الخديو بنفي البابا الى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور الى كنيسته اقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملى نابعا من عناد شخصى ، ولكنه كان يرى ان دعوة الاصلاح (العلماني) تخفي وراءها دعوة مشبوهة الى تنويب الكنيسة المصدية الأرثوذوكسية في تيار التبشير الذي هلُّ على مصر مع الاحتلال البريطاني ، وبالتالي اخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الأسقفية البروتستانتينية . وقضية التدخل المذهبي في شئون الكنيسة المصرية قضية قديمة ترجع الى عصور المسيحية الأولى .. ولكن كل محاولات التدخل فشلت ويقيت الكنيسة محافظة على استقلالها الديني والمذهبي .

وهناك شبهة أخرى دفعت البابا كيرلس الخامس الى معارضته

القوية لدعوة الاصلاح، وهي ارتباطها بالاحتلال البريطاني نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الاصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على القور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطني ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الروماني ، حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية ، الأمر الذي جعلها هدفا لاضطهاد الاباطرة . وفي نلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للاقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، وقد اعتصم خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، وقد اعتصم المصريون بكنيستهم ، وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشيئتها في وجه القوة القاهرة .. وذلك سر مصدر القوة الكبرى التي اشتهرت بها المسيحية المصرية ..

أغا خان في مصر

شی

اضابير التاريخ المصرى المعاصر قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعتزم تعيين « اغماضان » سلطانا على مصدر ، وذلك في غضون الفترة القصيرة التي خلا قيها عرش مصر خديه عباس حلمي الثاني ، وتمنع عمه الأمير حسين

غضون الفترة القصيرة التي خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمي الثانى ، وتمنع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه ، وبلغ من شيوع هذه القصة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا اوردها في مذكراته في معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر ، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش الا انقاذا له من أن يجلس عليه حاكم اجنبي ، ثم يقول هيكل « أن الأكثرين صدقوا هذه القصة ، واعتقد انها صادقة لأن الانجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغا خان الهندي قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش ، وتناقل الناس انهم اي الانجليز - يريدون أن يجعلوا أغا خان سلطانا على مصر ، والجزء الأول من تلك الرواية - وهو عزم الانجليز تعيين حاكم اجنبي لمصر - صحيح مائة في المائة ، أما غير الصحيح فهو أن يكون أغا خان هو السلطان المرتقب .

وترجع فكرة تعيين حاكم اجنبي لمصر الى قرار بريطانيا اجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى في مصر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا الى صف عدوتها اللدود المانيا - فقررت بريطانيا ان يكون وجودها في مصر أبديا ، وأن تقطع خيوط الشرعية التي كانت تربط مصر بدولة الخلافة ، وكان شكل العلاقة الجديدة يتراوح بين فكرتين لا ثالثة لهما ، الأولى : منم » مصر نهائيا الى التاج البريطاني فيصبح المصريون رعايا بريطانيين ، وتنمحي الجنسية المصرية ، ويرتفع العلم الانجليزي نو الصليب الأزرق على الديار المصرية ، ويرتفع العلم الحكم حاكم عام بريطاني مثلما كان الحال في الهند واستراليا ونيوزيلندا ، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالاعدام على الشخصية المصرية ، وإنهاء للوجود الشرعي والقانوني للدولة المصرية العتيدة .

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة وهي أعلان « الحماية »

على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا في السيادة على مصر مع بقاء الحكم في يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون ، وبعد بحث مستفيض اخذت الحكومة البريطانية بفكرة «الضم» واعدت بالفعل مسودات الامر الملكي ليوقعه الملك جورح الخامس ، وطلب من كيتشنر – بحكم خبرته السابقة في مصر – ترشيح احد كبار الانجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن تراجعت فجاة عن قرارها بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية في مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الديني واحتمال نشوب ثورة وطنية في صفوف المصريين ، الذين عذري بعضهم – حتى هذه اللحظة – يثق بوعود بريطانيا في الجلاء عن مصر .. فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاح !!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون وكتبوا مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف ننتزع من دولة صغيرة اخر مظهر للكيان الفردى ؟ ان قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا .. فلن يصدقنا أحد .. وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة .. ولم يعد مقبولا في القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا في أى مكان آخر - فلن نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا في أى مكان آخر - فلن يكون ممكنا في مصر .. إن طمى النيل الذي امتصه العبريون والفرس والاغريق والرومان والاتراك امتصاصا كاملا - بحيث محاكل أثر لهم - هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى ..!!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم .. واخذت بفكرة الحماية ، وخففت حكم الاعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .. وفي يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ اعلنت الحماية المشئومة على مصر ، وفي اليوم التالي اعلنت دار المعتمد البريطاني في القاهرة قرار عزل الخديو عباس وتعيين الامير حسين كامل سلطانا على مصر .. أو تعيينه موظفا في دار المعتمد البريطاني بدرجة سلطان .. وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم اجنبي على مصر ..

اما مقولة تعيين اغا خان سلطاناً على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الأداب - بنها) في كتابها (مصر في الحرب العالمية الأولى) ويتبين منها انها مقولة تفتقر الى السند التاريخي

فبالرجوع إلى مذكرات اغا خان نفسه نجد ان انجلترا قد انحضرته إلى مصر لا ليحكمها ولكن ليهدىء من روح المصريين المتذمرة. يقول اغا خان كان الوضع السياسي مضطريا ودقيقا كان عباس بالاستانة ومصر بدون حاكم ، وكانت النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضي ... لقد ذهبت الى مصر مع زميل لى وانصرفنا فورا الى اداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة الى طبقات كثيرة من المجتمع المصرى . فكان علينا أولا أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك عامة الشعب المصرى منهم المتعلمون الذين يجلسون في انمقاهي يطالعون ويناقشون الى مالا نهاية اخبار الحرب .. والفلاحون الذين كانوا ولايزالون المصدر الحقيقي لقوة مصر .. كان علينا أن نقنع هؤلاء بأن يؤازروا قضية الحلفاء »

إذن فلم يحضر اغا خان الى مصر كامير ليقفز إلى عرشها .. ولكنه جاء اليها كعميل مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطانى . فكان شانه شان جميع العملاء الذين اطلقتهم بريطانيا طابورا خامسا لإخماد الثورة في نفوس الشعوب المقهورة .

ولكن من هو هذا العميل الذي يعمل برتبة أمير؟

قاطع طريق



اغاخان ، صيتا عالميا قاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة ، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين . مع انه لم يكن شبئا صن هنؤلاء . ولكته جمع في شخصيته الغربية شبئا من كل هؤلاء .

وعندما يذكر اسم، اغاخان " تتبادر الى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته فى العواصم الأوروبية مفتونا بملكات الجمال . وعارضات الأزياء ، مشغولا بكل متع الحياة . وكان اتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاتين وقطع الماس النادرة إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم ، ولا غرابة فى ذلك فقد اضغوا عليه صفة الالوهية ، فلما مات اختاروا اسوان لتكون مثواه الأخير .

والحديث عن اغاخان لا يكتمل إلا بالحديث عن طائقة (الاسماعيلية) التي تولى زعامتها على مدى ستين عاما ، فجدد شبابها ، وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر ، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ .

والاسماعيلية هي إحدى فرق الشيعة التي نتفق جميعها على الحقية الإمام على بن أبي طالب ، بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين التبلاثة . رضوان الله عليهم اجمعين ، ولكن الاسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا ، وقالت في على بن أبي طالب قولا فظيعا ، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات التي كانت سائدة منذ القدم في الهند والعراق وفارس واليونان ، وأخذوا من كل مذهب بطرف ، ويقدر ما أخذوا وتوغلوا .. بقدر ما بعدوا عن تيار الاسلام المصفى ، وصنعوا من كل ذلك نسيجا يناقض المقرر الثابت من الاحكام والعقائد الاسلامية .

وتَعُرَّضَ * الاسماعيلية * كغيرهم من طوائف الشيعة ، للاضطهاد والقهر ، فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد ، وأثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الاسلامية المفككة ، ونجح الانقلاب الذي دبروه في المغرب ، فأقاموا دولة الفواطم التي لم تلبث أن انتقلت إلى

مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين دون ان تفلح فى استمالة المصريين المسلمين الى عقيدتها الشاذة ، فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الفلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبا شيعيا بالرغم من حب المصريين لاهل البيت .

وفى عصر الخليفة الفاطمي المستنصر ، تعرضت الحركة الاسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى ، ولكنهم تفككوا عبر القرون ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون في الهند واليمن ، ومعظمهم من اثرياء النجار ، وهم الذين نجحوا في إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح ، وأنفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات كي يجعلوا منه تحقة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيدا لإمامهم المتاله الحاكم بأمر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم في عاصمة المعز .

أما أتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح أحد زعمائهم – وهو الحسن الصباح – في إقامة دولة الحشاشين في شمال ايران ، وهي الدولة التي كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السني ، حتى اثاروا الفزع والرعب في قلوب الملوك والسلاطين ، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة إلى أن ظهرت بعض بقاياهم في ايران في أواسط القرن التاسع عشر تحت اسم « الاغاخانية » الذين ينتمي إليهم اغا خان الثالث موضوع هذا الحديث .

والاسم الصحيح لأغا خان الثالث هو : محمد الحسيني شاه ،

أما جده اغا خان الأول واسمه (حسن شاه على) فقد كان قاطع طريق ظهر في ايران في منتصف القرن الماضي واستطاع ان يجمع حوله عددا من الفتوات من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية وكون منهم عصابات كانت تنقض على القرى والقوافل حتى ذاع صيته في جميع انحاء ايران، واصبح له نفوذ واسع على اتباعه وبات مصدر قلق للاسرة الحاكمة.

وفي ذلك الوقت كان الانجليز يعملون على بسط نفوذهم في ايران. وكعادة الانجليز في بث الدسائس والفتن، وصنع العملاء، واستمالة كل طامع في الجاه والثروة، فقد وجدوا ضالتهم في هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على ان يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم ، وتمت المؤامرة الانجليزية، وأعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت ، وقبضت عليه السلطات الإيرانية وزج به في السجن ، عندئذ تدخل الانجليز واقتعوا الشاه بالعقو عن الثائر الهمام على أن يغادر أيران ، وبالفعل خرج حسن شأه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الإنجليز إلى افغانستان ليلعبوا به كورقة في صراعهم هناك مع روسيا ، ولكن الأفغان تصدوا له فرحل الى الهند واتخذ من مدينة بومباى قاعدة لنفوذه الجديد . واراد الانجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة في السيطرة على درة التاج البريطاني ، فجعلوا منه إماما لطائفة الاسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (اغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الاسماعيلية الذين فرحوا بعلو شائهم ، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون . وبظهور إمامهم الذى ظل في الستر والكتمان مئات السنين ، بدأ أغا خان ينظم صفوف الاسماعيلية تحت العلم البريطاني حتى مات سنة ١٨٨١ فخلفه ابنه (أغا على شاه) وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات افادته في نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادى والثقافي الذي بني عليه ابنه اغا خان الثالث مجدد المرموق.

عابد البقرة

200

اغاخان فى شخصيته متناقضات عديدة، كان زعيما دينيا الأتباع يضعونه فى مرتبة الألوهية انسياقا وراء الفكر الاسماعيلي الباطني الذى يتبني هذه الخزعبات منذ عصر الحاكم سامر الله،

 الفزعبلات منذ عصر الحاكم بامر الله. والى جانب هذه الصورة المقدسة لأغاخان في نظر الباعه . كان نجما من نجوم المجتمع الاوربى يخلب قلوب العذارى ويتمسع قلبه الكبير جدا للفاتنات والغانيات وملكات الجمال، وكان في نفس الوقت رائدا من رواد الاصلاح الثقافي والاجتماعي .. يقيم الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، والأندية، حتى انتقل بطائفته من حضيض التخلف والرجعية الى عالم القرن العشرين، وكان يحثهم على أن يغترفوا من منهل الحضارة الغربية كما شرب هو منه ، ويتسلحوا بالعلم والمدنية ولا يتخلفوا عن المجتمعات الأخرى ، ولم تعنعه زعامته الطائفية من ان يكون مسلما عالميا يخلع رداء الطائفية عند الملمات ويقف الى جانب قضايا الاسلام والمسلمين في كل مكان من العالم ، كان ينظر الى المسلمين عامة في الهند نظرقخالية من التعصب الطائفي وينادي بان ياخذوا مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فاشترك مع غيره من زعماء المسلمين عام ١٩٠٧ في تأسيس « الرابطة الاسلامية ، وانتخب رئيسا لها عام ١٩١٤ وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وتعمل على النهوض بمستواهم ، وهذه الرابطة تطورت الى حزب سياسي كان له خطره في تاريخ الهند الحديث ، وترتب على اعماله نشوء دولة باكستان .

• • •

وربما لا يعلم الكثيرون ان (محمد على جناح) مؤسس دولة باكستان كان من اتباع الطائفة الاسماعيلية ، ومع ذلك فقد كان اغاخان من المعارضين لقيام دولة اسلامية مستقلة في الهند ، ويقف الى جانب الرأى الذي يامل في تحقيق الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس ، ويعارض تقسيم الهند الى كيانات طائفية . والمؤرخون الذين كتبوا عن اغاخان يرصدون له عديدا من

المواقف التى تخلى فيها عن صبغته الطائفية . ولعل أبرز هذه المواقف دفاعه المجيد عن بقاء الخلافة الاسلامية فى تركيا بالرغم من العداء التقليدى بين الاتراك . السنة » والاسماعيلية «الشيعة » وكان أغاخان يعزز العثمانيين بالاموال الطائلة ليظلوا رمزا لقوة الاسلام والمسلمين .

وتزوج أغاخان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين . وكانت أولى زوجاته أميرة أيرانية هي البيجوم أي السيدة (شاه زادي) ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، فتزوج فناة أيطالية هي (تريزا ماجليانو) وأنجب منها أبنه الأكبر (على خان) الذي تزوج نجمة هوليود العالمية ريتا هيوارث وأنجب منها فتاة اسمها ياسمين ثم تزوج على فتاة أنجليزية ، أنجبت له كريم الذي تولى إمامة الاسماعيلية بعد وفاة جده .

وفى سنة ١٩٢٧ اعجب اغاخان بفتاة فرنسية كانت تبيع السجائر والشيكولاته فى كشك بجوار مقهى ألدوم بحى مونبارناس بباريس هى (اندريه كارون) وأنجب منها ابنه الثانى صدر الدين، وفى عام ١٩٤٤ تزوج عارضة أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هى (لابروس) التى اعتنقت دينه وعقيدته الاسماعيلية وبقيت معه الى أن مات عام ١٩٥٧ وهى التى تعرف باسم البيجوم " أم حبيبة " ولاتزال تحرص على الحضور الى اسوان لقضاء فصل الشتاء فى قصرها الذى يقع فى سفح التل الذى يعلوه قبر زوجها، ولاتزال رحلتها اليومية معروفة حيث تصعد كل صباح لتضع وردة حمراء على ضريح أغاخان.

ولا ينبغى انهاء الحديث عن اغاخان دون توضيح مسألة «الالوهية » التى خلعها عليه اتباعه ، وكان الظن ان هذه المسألة من قبيل المبالغة او التشنيع الذى يتعرض له الاسماعيلية من جانب خصومهم ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين ـ وهو من ادق الباحثين في تاريخ الاسماعيلية وعقائدهم يروى لنا قصة غريبة تؤكد ان اغاخان كان سعيدا بمعتقدات اتباعه فيه ، وله فيها تبرير غريب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين في كتابه (طائقة الاسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها). ومن ذكرياتي معه

رحمة الله عليه ، انى كنت اناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الإسماعيلية ، وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع الى موضوع مما جعلنى اعجب اشد الاعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، واحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية احاطة تامة ، فاستأذنته فى توجيه سؤال اليه ريما أغضبه ، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له : لقد ادهشتنى بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لاتباعك بان يدعوك آلها ؟

قضمك أغاخان طويلا جدا ، وعلت قهقهاته ، ودمعت عيناه لكثرة الضمك ثم قال :

ـ هلّ تريد الاجابة عن هذا السؤال : أن القوم في الهند يعبدون البقرة .. الست خيرا من البقرة !!

ويعقب الدكتور محمد كامل حسين على هذا التبرير العجيب قائلا : فلم أحر جوابا بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا أفكر في هذا الرجل الذي اعتقد فيه اتباعه الالوهية ، أو على الأقل أن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بإله ولم يمسسه نور الله ، ومع ذلك ترك أتباعه في اعتقادهم دون أن يرشدهم ألى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيها الاقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر في حياته التي اختارها لنفسه دون أن يجعل لاحاديث الناس عنه أثرا ، أو يقيم لهم وزنا .

أولاد تيمور

عبيب

امر العائلية التيمورية ... لم يكن يجبري في عروق ابنسائها قطرة دمياء مصريية، ومع ذلك احبوا مصر حيا صادقا، وارتبطوا بشعبها ارتباطا وثيقا، خالطوا

أولاد الحوارى في حي الأزهر، وعايشوا الفلاحين في عين شمس، وتشربوا الروح المصرية الخالصة ثم عبروا عنها بارقي وسائل التعبير: الفن والأدب، ولا عجب ان تصدر أول صبحة لإبداع أدب مصرى صميم في مطلع القرن من الاخوين: محمد ومحمود تيمور.

بم نفسر هذه الظاهرة. توهج العاطفة الوطنية عند بعض الاتراك المتمصرين ، شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم أمين وأولاد تيمور ؟ اديبنا الكبير يحيى حقى يفسرها بأن العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله وجماله .. فليست العبرة في أن يولد الكاتب في أحضان الطبقات الشعبية ، بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحي .

وهذا على أى حال تفسير مقبول ، وتشهد على صحته حوادث التاريخ ، وينطبق على الاستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم ، والبوسطجى وخليها على الله ، وغيرها من الأعمال الادبية ذات النكهة الشعبية .

. . .

أما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط مصر ضمن الحملة العثمانية التي جاءت لتهدئة الإحوال بعد خروج الحملة الفرنسية . وكان بين افرادها محمد على . وكان تيمور احد الاعمدة التي ساندت محمد على في تأسيس ملكه وتولي بعض الوظائف الادارية الكبرى وبني لنفسه قصرا منيفا في درب سعادة . وانجب ولدا وحيدا اسمه اسماعيل لم يسلك نهج ابيه في حقل الادارة العليا ، فقد شغله العلم عن وهج السلطة . وجعل من قصره مجمعا للعلماء والادباء والفقهاء ، وفي هذا المناخ الادبي تفتحت مدارك ابنته عائشة قاصبحت شاعرة مرموقة ، وابنه احمد باشا تيمور الذي لم يعرف تاريخ مصر

الحديث نظيرا له في حب العلم وعشق البحث واقتناء المخطوطات النادرة وتحقيقها حتى بلغ مجموع نفانسه ٧١٣٤ مجلدا بين مطبوع ومخطوط اهداها كلها الى دار الكتب، كما خلف للادب والفن ولديه الادبيين الكبيرين محمد ومحمود.

في هذا القصر الذي يشبه دار الحكمة في عصر المأمون ، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة الى الطبقة الارستقراطية التي ينتمى البها صاحب البيت، وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والادب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشبعب ، فلم تكن مجالس احمد تيمور باشا _ فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر _ تضم ابناء النوات . بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة، ومن هذا العالم السحرى الاصيل انطلق الصبي محمد تيمور لايلوى على شيء ، ولا على أحد من طبقته الارستقراطية فينزل من قصره يبحث عن الادباء والفنانين ويذهب محمد تيمور الى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة ابناء الذوات في ذلك العصر ، ولكن مصر لا تفارق خباله ، فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس ، ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة في التجديد ، ويقود نهضة ادبية قوامها ابراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب ..وايجاد فر شعبي صادق الاحساس وهو يعبر عن أفكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية بل يقف على خشبة الأوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ويامر بتعيينه امينا في القصر ، وهي وظيفة يتمناها ابناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراها قفصا من ذهب ، فما إن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ويعود الى عمله الرحب المنطلق ، ويتسلطن فؤاد وقد أتى به الانجليز من الكباريه الى العرش فيستقبله تيمور وسند درويش بمسرحية ، العشرة الطبية ، التي يسخر فيها تيمور من فساد الحكم . ويوجه الى السلطان رسالة على لسان الأغوات يقول فيها عشان مانعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى .. تطاطى. ويفهم فؤاد الاشارة فيوعز بوقف المسرحية .. ولا يمضني تيمور في مشوار التمرد .. فقد اختطفه الموت وهو في شرخ الشباب .. وودع الحياة قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره

المفريت ..!

في

اليوم الأول من اغسطس ١٨٩٦ خلت بيوت القاهرة من سكانها . وهرع الناس ـ رجالا ونساء واطفالا الى الشوارع . واحتشدوا على طول الطريق الممستد من بولاق الى القلعة عبر ميدان العتبة

الخضراء . ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان ملساء . والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون العفريت العفريت ولم يكن ذلك العفريت سوى أول عربة ترام تشق شوارع القاهرة في أول رحلة تجريبية لهذا الكائن الحضارى الذي سيغير وجه المجتمع القاهرى تغييرا شاملا وفي العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ومعه كبار موظفيه . وقد تملكهم الرهو والخيلاء وكانت المركبة ـ كما وصفها مندوب المقطم » تسرع حتى تسابق الرياح متى خلت لها الطريق . وتارة تسير رويدا رويدا ، أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة طريقها ، وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان والسابلة طريقها ، ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد زتمام الدورة الكهربائية

وبعد ايام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسبير الترام على الخطوط الثمانية التي كانت تتجمع في ميدان " العتبة ، وتمتد إلى اطراف القاهرة ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها شهد اهل العاصمة أمس مشهدا قلما شهد مثله اهالي المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام ، وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار ، بل بقوة الطبيعة التي تسبب البروق . هذا هو الترامواي الكهربائي

وفى الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلانى عن ترام القاهرة ، معلومات طريقة عن عملية تنظيم ركوب الترام ، فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء أو سكران ، أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية ، أو تعليق شيء عليها أو اقامة أشارات كاذبة . ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى أن تسيير الترام كان حدا فاصلا في تاريخ المجتمع القاهري ، أنتقل فيه من طور

البداوة والتأخر، الذي يتمثل في استخدام الحمير والبغال، إلى طور الحضارة والمدنية الذي يتمثل في استخدام القوة الكهربية ، وكان سواد الشعب في القاهرة يعاني مشقات هائلة في الانتقال من جراء استيداد اصحاب الحمير والعربات وتحكمهم في الناس وما يوجهونه إلى الجمهور من الفاظ نابية فلما انشىء الترام ، حدثت ثورة هائلة في جميع نواحي الحياة القاهرية ، فتلاشت العزلة بين احياء المدينة ، وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، وأصبح في منناول الشبان قضاء الليل في الملاهي والمراقص، وبدأت الروابط العائلية في التفكك ، وضعفت رقابة الأباء على الابناء ، كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران، ونشطت الحركة التجارية ونشأت المحلات الكبرى في منطقة العتبة . ولما سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدأ الراى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة ، وكثرت الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات وكان من الطبيعي أن يتعكس هذا كله على الادب .. فظهر « الأدب الترامى ... الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر ، وخلاعة ومجون ، وتقدم وتاخر .. وخصوصا بعد أن أصبح الترام سببا في وقوع حوادث لم يالفها جمهور القاهرة من قبل وفي ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكاتي

إنّ الترامواي على القاهرة مصيبة ياقومنا قاهرة فكم قلوب هالها رهبة وكم نفوس غالها طاهرة يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة فيارجال الضبط ما ضبطكم واين الأعين الساهرة

وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة التي لا ترحم العاجزين عن مواكبة ايقاع العصر ، فكاد يختفى من شوارع العاصمة ، ترى .. ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين عندما يشاهدون مركبات المترو وهي تشق بطن الأرض ؟؟ وهل سيصيحون كما صاح اسلافهم : العفريت .. العفريت ؟؟ اغلب الظن انهم لن يفعلوا .. لأن كلمة عفريت نقسها قد اختفت من قاموس الألفاظ الدارجة عند اطفائنا .

غرام الشيوخ

من الواجب أن نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد أنتقل الوفد سحزبا وجريدة سالى المقر الجديد اللذي يقع في شارع يحمل اسم هسسدا العلم الذي خفسق في سماء مصبر في مطلع القرن ،

فكان ملء الاسماع والابصار، والبطل المغوار في حقل السياسة والأدب والصحافة ، والنجم الساطع في دنيا العشق والغرام . واكتسب من كل اولئك مجدا رفعه الى مصاف العلية المرموقين. وحقق ما كان يصبو اليه من جاه وثراء ونفوذ .. ثم إذا مه .. فجأة .. يبدد كل هذا المجد، ويعتزل الأضواء والشهرة والصحف ، ويسعى اإي وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثل الرابح الذي حُسر كل شيء وهو لم يزل في حلبة الصراع ، فيلقى سلاحه وهو في يوج ائتصاره ويدير ظهره الي خصومه قبل ان ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم في ذهول من امرد لياوي الى ركن ظليل في تكية صوفية متعلقا بأهداب الانتساب الى بيت من بيوت السادة الاشراف .. عساه يجد في الشرف المصطنع ما يرضى كبرياءه الجريح ، وبعالج العقدة التي دمرت سعادته ونفصت حياته .. عقدة النسب الوضيع ـ وحرمته لذة الاستمتاع بثمار النصر التي اجتناها بيظافره في مجتمع كان يقيم اعتبارا كبيرا لعوامل الحسب والنسب.

جاء على يوسف من اعماق الصعيد شابا يافعا الى رحاب الأزهر مثل ملايين من ابناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثا عن اثارة من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد ، ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحا وثابة ، وهمة عالية ، وارادة حديدية وعنادا فطريا ضد عناصر المقاومة التي تحول بينه وبين ما يريد ، كانت نفسه تجيش برغبة عارمة في أن يكون شبينًا مذكورا ، فكان عليه أن يقتحم العالم الفوقى الذي يمسك في يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والتراء، ولم يكن شيخنا بملك المفاتيح التي تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقة النسب وفخامة الحسب وكان عليه ان يوظف هذه القدرات ليصل الى مبتفاه .. فكان ذئبا بين الذئاب يناطح اضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلفى الى صاحب العرش ، وكان عليه أن يكون ثعلبا شديد الدهاء ، يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الامير .. وكان ما اراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسائه الناطق ، واصبحت صحيفته (المؤيد) كبرى صحف الشرق في آخريات القرن الماضي هي صوت السلطة الشرعية في مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفي مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشا بين الصحف الثلاث أو قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاهرا قلمه الفتاك في وجه خصوم الخديو غير عابيء بسخط الجماهير عليه وعلى سيده ، وكان يردد : والله ما يعنيني أن يكون الناس جميعا في صف واحد ، وإنا والحق الذي اعتقده بإزائهم في صف واحد .

. . .

وتشهد الحياة السياسية المصرية في مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الاحزاب السياسية لاول مرة في تاريخ البلاد، ولم يكن من الغريب أن تولد هذه الاحزاب في حجر الصحافة التي كان لها دور الريادة في ايقاظ الحس الوطني وتحريك الجمآهير بعد فترة الركود المتى رانت على مصر منذ ابتليت بالاحتلال البريطاني قفي احضان (اللواء) ولد الحزب الوطني بين يدي رُعيمه الشَّابِ مصطفى كامل وهو يومئذ عند أخر عهده بالدنيا واول عهده بالاخرة ، وفي احضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح اثرياء مصر في مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة في شخص عباس الثاني ، وينهض الفيلسوف احمد لطفى السيد ليتكلم باسم (اصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالي على صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف في معسكر الارستقراطية المصرية الناشئة. ولم يكن للحديو الشاب ان يقف متفرجا في الساحة التي تفور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشىء حزبا يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التي تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامحة ، وعقلانية احمد لطفى السيد المتهادنة مع الاحتلال ، وكان على الشيخ على يوسف ان يلبى رغبة الامير ويصنع له حزبا .. اسماه حزب (الاصلاح على المبادى الدستورية) ، وكاى حزب يولد فى حجر السلطة فيكتب شهادة وقاته مع شهادة ميلاده ، كان مصير هذا الحزب الاميرى ، فكان معدوم التأثير والفعالية فى الشارع المصرى ، بينما ظل صوت (المؤيد) اقوى تأثيرا واكثر فعالية حتى خلع البعض على صاحبه لقب (اعظم صحفى فى العالم) ووصفوا صحيفته بأنها (تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشبع هذه الامجاد طموحات على يوسف .. فراح يبحث عن المجد فى دنيا الحب .. فلم يجد إلا الجحود والعذاب والحرمان .

عاشيقان جرينان

مكتب الشبيخ على باشا يوسف في صحيفة ، المؤيد ، اشيه بمنتدى فكرى يتردد عليه وجوه القوم من رجال الدين والسياسة والأدب، وكان

كان من ابرز هؤلاء : السيد عبدالخالق السادات عميد بيت السادة الوفائية ، وهو من اعرق البيوت المصرية وينتهى نسبهم الى الحسن السبط ابن الامام على كرم الله وجهه ، وأعتاد السادات أن يصحب معه الى المؤيد صغرى كريماته (صفية) وكانت صبية مليحة على شيء من البدانة التي كانت من سمات الجمال في ذلك العصر ، وراقت الصبية في عين الشيخ على وصلاقت من نفسه هوى ، فخطبها من أبيها الذي رحب بمصاهرة رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ، وتجاهل الأب فرق السن بين الشيخ والفتاة ، كما تجاهل أنعدام الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب، واسرة تحظى يشرف الانتساب الى البيت النبوي ، وقبض الآب مهر اينته وسافر الجميع لقضاء الصيف في ربوع تركيا كعادة الوجهاء في ذلك العصر ، على أن يتم الزواج بعد العودة الى مصر .. ولكن .. بعد العودة شعر الشيخ على يوسف بأن السادات يماطل في إتمام العقد . بل صرح بانه ان يصاهر رجلا لا يضارعه حسبا ونسيا . ولما كان الشيخ العاشق واثقا من تعلق الصبية به ، واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة أبيها ـ فقد اقدم العاشقان على خطوة جريئة في عرف العصر ، وهي إبرام عقد القرآن في بيت أخر خارج بيت الوالي الشرعي ، ووقع اختيارهما على سراى البكرى بالخرنفش محلا مختارا لإتمام العقد .

وكان السيد توفيق البكرى ـ نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية .. على راس البيت الآخر من بيوت العلية الإشراف هو بيت السادة البكريين الذين ينتهى نسبهم الى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان البيتان الكريمان - البكرى والوفائي .. يتناوبان زعامة نقابة الأشراف ، وهو منصب كان له جليل الخطر وعقليم الأثر في نفوس المصريين لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من ينتمي لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الإبرار.

واراد السيد توفيق البكرى ان يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقاية الأشراف، خاصة ان السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنئت، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) وزوج الوسطى (اسماء) من ابن اخيه عبد الحميد البكرى حتى تتوافر له وراثة الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد، ويقيت الصغير (صفية) لتكون من نصيب على يوسف، ولتكون بطلة هذه القصة التي هزت المجتمع المصرى من إعماقه، وانقسم بسببها الرأى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الإجتماعية، ومؤيد للتحرر والخروج على الإعراف الموروثة، ولم يكن غريبا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين الموروثة، ولم يكن غريبا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين القوى السياسية الكبرى: المعتمد البريطاني كرومر والخديو عباس والزعيم الشاب مصطفى كامل وكل الإحزاب السياسية فضلا عن حرمة الشرع.

لقد فوجىء السيد توفيق البكرى بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته مصفية مديقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش مالذى كان يوما مقرا وسكنا لوالى مصر عباس الأول ومن بعده سعيد باشا ويضعانه امام الأمر الواقع ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله ، واسقط في يد الرجل . فقد كان يعلم جيدا مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الأشراف ، فضلا عن منافاته للزداب العامة التي لا تقبل بحال أن تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها ، ولكنه وجد نفسه امام عاشقين مصممين على تنفيذ عرمهما ، ويهددان بتنفيذ غرضهما في عاشقين مصممين على تنفيذ عرمهما أو يهددان بتنفيذ غرضهما في مكان أخر إذا أصر على الرفض ، فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام ، وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة ، وشهد على العقد زوجا الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة ، وشهد على العقد زوجا

وبعد ٤٨ ساعة ، وفي يوم السبت ١٦ يولية ١٩٠٤ خرجت

أختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع الشربات .

صحيفة (المقطم) تزف الى قرائها نبأ « عقد قران السيد على يوسف على إحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات في حفلة ضمت الكثير من العلماء ، ثم قصدت العروس بعد ذلك الى المنزل الذى اعده لها بناحية الظاهر » وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان الذى عقد فيه القران إمعانا في تضليل الأب الذى جرح في كرامته امام أتباعه ومريديه ، وإذلاله أمام الرأى العام الذى يضع بيت السادات حيث هو من التكريم .. وبعث السادات بخطاب الى الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع - الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع من الطبيعى أن تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة ، ولكن المريب من الطبيعى أن تمتنع (المؤيد) عن نشرها بعد أن نشرت الخبر وخرجت كان امتناع (المقطم) عن نشرها بعد أن نشرت الخبر وخرجت إللواء) وفي صدر صفحتها الأولى رسالة الأب الجريح ، فكانت أشبه بقنبلة انفجرت فتطايرت شظاياها في رقعة واسعة من الأرض .. هي كل أرض مصر .

أبوخطوة يظب المائدة

بعد

عشرة أيام فقط من أعلان زواج الشيخ على يوسف وصفية السادات ، بدأت محكمة مصر الشرعية في نظر الدعوى التي رفعها السيد عبدالخالق السادات طالبا فسيخ العقد لانعدام شرط

الكفاءة بين الزوجين ، واستند الأب إلى أن الشيخ على يوسف ـ وإن كان صحفيا مرموقا وأديبا مشهورا وزعيما لحزب سياسى واحد المقربين من أمير البلاد ـ فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذي يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوى .. فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئا ، وهو أن الشيخ على من « المعامة » الذين لا يحق لهم التطلع الى مصاهرة الأشراف .

وفي يوم نظر القضية غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق باشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات .. جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التي تعس يعض مقدسات المصريين في احترام العلاقات الاسرية ، ومراعاة الاداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، وكانت الكثرة الغالبة من الراي العام تقف في صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذي اغوى فتاة شريفة وحرضها على التمرد والخروج على الآداب فتزوجت بغير رضاء والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ على يوسف الذي صنع مجدا لم يستمده من عراقة الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح .. ولا ترى هذه الفئة عيبا في خروج فتاة على ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذي أحبته .

. . .

تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقي الظاهري كان يخفي وراءه صراعا اشد وأعتى بين القوى السياسية الجبارة التي وقفت وراء الكواليس كل منها تؤيد طرفا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود على يوسف ، الذي كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه يوسف ، الذي كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه

بالرعونة والتطرف، وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح، ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى - عباس الثانى - الذى نفض يده من معسكر الحركة الوطنية وانحاز نهائيا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل ١٩٠٤ اى قبل اربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية.

وكان عباس يعى جيدا ابعاد الهجوم الشرس الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف ، ويعرف أنه المقصود بالهجوم حتى لو تذرع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن أداب الشرع وحرمة التقاليد ، ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف الى جانب رجله في محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التي تطورت إلى محنة سياسية، وضعت القصر في دائرة الاتهام ، فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذي اوحي الي الشبيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الغرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة احد رجاله الاصفياء، وكان عياس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية في مصر، ولا سيما الرئاسات التي لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الايراد المالي الوفير ، وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخي معروف بين الامير ومفتى الديار الإمام العظيم محمد عبده الذي رفض بإباء وضبع الاوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .

...

ولم يتخلف جبار الاحتلال - اللورد كرومر - عن المشاركة في إذكاء حمى الصراع بين اطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للانجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية التي اتخذت موقف الشماتة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الانجليز لرجل القصر القوى اولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس ، وإغراء الامير بمزيد من التورط في مهادنة الاحتلال . تلك كانت طبيعة القوى العظمى التي تخفت وراء القوى الصغرى استعدادا للجولة الحاسمة في ساحة القضاء . وكانت

كل منها نظن انها سوف تكسب الجولة ، ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة ان كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار أمام جبروت شيخ ازهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الرأى .. لا يكاد يظهر من خلف منصة القضاء التي يجلس عليها .. إسمه الشيخ أحمد أبو خطوة فلم يكد ينفرج الستار عن الفصل الأول من القضية حتى اهتزت مصر من أقصاها إلى اقصاها بسبب الحكم الذي أصدره .. وقلب به المائدة على رؤوس اصحابها .

إضراب القضاة

نظر قضية الزوجية امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعى، فالسلطة ـ ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر ـ كانت تساند الشيخ على يوسف وتسعى جهدها لكى يصدر الحكم فى

مصلحته ، ويرد له اعتباره الذي اطاح به تهجم صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل . وكان الرأى العام الذي يقدس التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التي هجرت بيت البيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله ، إلا أن هذا الروج كان في رأى الناس مغتصا اغار على النسب الأنجب !

وقى الجلسة الأولى لنظر القضية أمام محكمة مصر الشرعية طلب محامي الزوج حسن صبري باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذي مات أثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) التأجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية ، فانبرى له الشبيخ عثمان الفندي محامى السادات قائلا : إذا رأت المحكمة التأجيل فلتأمر بالحيلولة بين الزوجين إلى أن يبدأ النظر في الموضوع . فما كان من القاضى الشبيخ احمد أبو خطوة إلا أن أمر باقامة الحيلولة بين الزوجين وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية واعادتها الى بيت أبيها . ومعنى ذلك انه اخذ بوجهة النظر التي ترى أن الزواج قام على أساس باطل ، وأن استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما ، الأمر الذي يستوجب التفريق بينهما لحين البت في الطلب الأصلي وهو فسخ عقد الزواج . وتقبلت الجماهير المكتظة في ساحة المحكمة قرار القاضي بالهتاف والتهليل ، اما الشيخ على يوسف فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة وسافر لتوه الى الاسكندرية ليدبر الأمر مع ولاة الأمر الذين كانوا يقضون هناك شبهور الصيف لعلهم يساعدونه في الخروج من هذه المحنة خاصة أن زوجته أخبرته بأنها لن تعود الى بيت والدها إلا جثة هامدة وساعد على تازم الموقف ان صحيفة (المقطم) الناطقة باسم الاحتلال قالت بعد اجتماع الشبيخ على مع بطرس غالى باشا وزير الحقانية (العدل) أن أمر الحيلولة لن ينفذ ، فانبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات تحذر

كان

فيها من تدخل السلطات في شئون القضاء ، وتستنفر الرأى العام للدفاع عن حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .

وفى الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٠٤ اتصل الشيخ عبدالرحمن الأفندى قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة . وساله عما تم بشان تنقيذ امر الحيلولة ؟ فأجابه المحافظ بأن الأوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير الداخلية ـ مصطفى باشا فهمى ـ بالاسكندرية . عندئذ ادرك قاضى القضاة أن الحكومة ماضية في تعويق احكام القضاء وتعطيل قرار الحيلولة ، فأتصل على الفور بالقاضى الشيخ أحمد أبو خطوة وطلب منه أن يذهب الى قاعة المحكمة وينتظر منه كتابا يقرؤه في الجلسة عند افتتاحها ، واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة إجراء يجب أن يكون بمناى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم . وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ أبو خطوة موقعه على المنصة وبن أن يتكلم .

وظلت الجماهير تترقب بلهفة انجلاء الموقف ، ولم يكن يسمع سوى وجيب القلوب يتردد في القاعة وقد خيم عليها صمت رهيب . ومرت فترة كأنها دهر حتى تلقى الشيخ أبو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة فغض الظرف وقرا الرسالة على الجمهور ، وكانت تتضمن قرارا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية عن نظر القضايا المعروضة عليها إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء واحترام قراراته ، فكانت أول دعوة الى الاضراب العام في تاريخ القضاء المصرى ، ولم يكد الشيخ أبو خطوة يعلن قرار الاضراب العام ، حتى ضجت القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله، وخرجت الجماهير الى ميدان باب الخلق وقد اشتعلت حماستها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمننى المحكمة تعديرا عن سخطها لتدخل السلطات الحاكمة في شئون القضاء، وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل أركان الدنيا .. وتكهرب الجو في جميع انحاء مصر ، ودب الفرع الي نفس الخديو عياس حلمي الثاني ومعه اللورد كرومر ، واجتمع مجلس الوزراء على الفور واحسر بيانا اعلن فيه التزامه بتنفيذ قرار الحيلولة ، واضطرت الدولة بكل هيلمانها إلى أن تتراجع أمام سطوة شيخين ازهريين لا يملكان من مظاهر القوة سوى شجاعة القلب ، ويقظة الضمير ، واحترام النفس ، والترقع عن تملق الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .

وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفا جديدا.

نهاية المأساة



السيدة صغية السادات على عدم العودة الى بيت ابيها تنفيذا لقرار المحكمة الشرعية باقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبين زوجها الشيخ على يوسف الى ان تفرغ المحكمة من البت في

الموضوع الاصلى، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين، وازاء اصرار الشيخ ابو خطوة على تنفيذ امر الحيلولة، تم الاتفاق على ان تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالتقوى والصلاح وحسن السيرة هو الشيخ الرافعي، وقبلت صفية هذا الحل، وانتقلت بالفعل الى بيت الرافعي ولكنها لم تنفذ امر الحيلولة بالدقة التي ينتظرها الشيخ أبو خطوة، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما .. وتصرخ بلوعة الحبيبين اللذين قرقت بينهما التقاليد العاتية، بعد أن جمعت بينهما الشريعة قرقت بينهما الشريعة

وكانت لدى الشيخ على خادمة اوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين، وتسربت انباء الخادمة والرسائل الى الصحف المعادية للشيخ على، فلم تتحرج من نشرها فى اطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين واحراج الشيخ الراقعى، وزادت الصحف بان الشيخ على نفسه يتسلل فى الهزيع الاخير من الليل الى بيت الرافعى ويختلى بزوجته صفية ثم ينسحب علادا الى بيته قبل ان يبزغ الفجر، وثار الشيخ الرافعى لهذه الإنباء المليرة التى تمس كرامته وتهز امانته كحارس على الزوجة عبر رسائل الغرام الملتهبة، وكتب الشيخ الرافعى الى قاضى عبر رسائل الغرام الملتهبة، وكتب الشيخ الرافعى الى قاضى القضاة طالبا اخراج صفية من بيته وايداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى والد الاستأذ عبدالخالق حسونة الإمين العام السابق للجامعة العربية ـ الذى اسقط فى لمتنازعة وتمكن من اعادة الأمور الى نصابها بعد أن تعهدت المتنازعة وتمكن من اعادة الأمور الى نصابها بعد أن تعهدت

صفية بعدم استقبال الخادمة الاوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل.

وبدات المحكمة في نظر الدعوى وتحدث الشيخ الفندى محامي السادات فطالب بيطلان الزواج على اساس أن الزوج كان في شبابه من الفقراء ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع يؤهله لمصاهرة بيوت الاشراف وكانت " تهمة " النسب الوضيع هي التهمة الأولى في حق الرجل ، أما التهمة الثانية فكانت .. حرفته .. إذ قال المحامي إن الشيخ على يحترف " مهنة دنيئة " هي مهنة الصحافة التي تقوم على التجسس والتلصص على اسرار الناس .. وهي امور ينهي عنها الشرع .!!

واستمعت المحكمة الى أقوال الشهود الذين جاءوا ليقراوا عن ظهر قلب شجرة الاسرة التي ينتمي اليها السادات والتي تنتهي الى الدوحة النبوية ، فاذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا انهم لا يعرفون له اصلا ! وكانت الصحف خارج اسوار المحكمة تردد نفس الدعاوى التي ترد على السنة الشهود ، ويعترف الاستاذ عباس محمود العقاد بانه لفق للشيخ على لقبا حقيرا مستمدا من حساب الحروف والطوالع ، فاختار له لقب (نورى) الذي يعرف به المغجر وشذاذ الافاق ، ويبرر ذلك بان الشيخ على كان متهما بالانتساب الى هذه الطائفة ، كما كان يقال بانه من (المسلمانية) بالانتساب الى هذه الطائفة ، كما كان يقال بانه من (المسلمانية) الدخلاء على الاسلام من ناحية جده الاول .

إلى هذا الد بلغت قسوة المثقفين في الطعن على الرجل لانه خرج على التقاليد، ولم يشفع له عندهم انه صنع مُجدُه بيده، وشق طريقه في الصخر، وتربع على القمة التي ترنو اليها الإبصار دون اعتماد على الحسب الموروث. ولكنها طبيعة المناخ الذي كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية في اخريات القرن الماضي وبدايات القرن العشرين وكان الشيخ أبو خطوة من اشد القضاة تزمتا ومغالاة في الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التي بزغت ريحها في كتابات قلسم أمين ولطفي نزعات التحرر التي بزغت ريحها في كتابات قلسم أمين ولطفي السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة. وبعد الفراغ من التحقق من نسب الطرفين، انتقلت المحكمة وبعد الفراغ من المهنة التي ينتمي اليها الشبيخ على، فإذا

بالشبيخ الفندي يصول ويجول طعنا وتحقيرا من شان الصحافة .. وانتهى الى أن الشيخ على يوسف - صاحب اكبر جريدة في الشرق ـ ليس مشتغلا بالصحافة ، قائما بها ، ، وإنما هو مشتغل بشيء يشبهها لأغراضه ، وهذا اشتغال بأخس الحرف وادنئها ، وعبثا حاول « المتهم » أن يدافع عن نفسه مالحق به من عار وشنذار .. وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ ايو خطوه عن الناس لإعداد الحكم الذي اعلنه وسط تهليل العامة وتصفيقهم ويقضي بفسخ عقد الزواج .. ونظر الناس الي هذا الحكم على أنه انتصار للأخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج والفساد .. أما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة الوطنية وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر .. وهكذا نظر كل منهم بالمنظار الذي يخصه ، أما أبطال القصة الإصليون فقد المسحبوا خلف الكواليس بعد أن انفض السامر وانصرف الجمهور ، وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدا عن صحب العامة وضحيج السياسة وتزمت القضاء، وتدخل أهل الخير ودعاة الصلح بين الطرفين ، فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته ممن أحبت بعقد جديد ، وظن الشبيخ العاشق أنه قد بلغ المرام يهذا الاعتراف ، وأنه سينهل من بحر العسل في عش الزوجية الجديد ، ولكن حياته انقلبت جحيما على يد زوجته الشابة التي كانت في سن إحدى بناته . واضطر الشيخ وهو في سن الكهولة إلى ان يهرب من البيت لينسى همومه في دوامة العمل فكأن يقضى معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول في دنيا السياسة بعد أن خسر معركة الحب ، حتى أذا بلغ قمة المجد الصحفى والسياسي خرج على الناس بقرار غريب هو اعتزال الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفائية الصوفية ، عساه أن يؤاسي الجرح الدى حطم كبرياءه وينتسب -ولو زورا وبهتانا .. الى الشجرة التي لفظته وهو في قمة المجد والسؤدد . وما هي الاستوات قليلة حتى ودع الشيخ على يوسف باشا الدنيا بعد أن أنهكه المرض وهدته معارك الحب والحرب وخلف وراءه زوجة شابة لم تتحقق له ما كان يطمح اليه من سعادة رُوجِيةً . ولقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن مأساة الشيخ على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التي انتقد فيها علل المجتمع

المصرى في ذلك العصر ومطلعها :

فما انت يا مصر دار الاديب ولا انت بالبلد الطيب

حطمت البراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبوالطيب

وقال (المؤيد) في غمرة رماه بها الطمع الاشعبي دعاه الغرام بسن الكهول فجن جنونا ببنت النبى فنادى رجال باسقاطه وقالوا تلون في المشرب

وزكى (أبوخطوة) قولهم بحكم اشد من المضرب

فيا امة ضاق، عن وصفها جنان المفوه والأخطب تصيع الحقيقة ما بيننا ويصلى البرىء مع المدنب

ويهضم فينا الامام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبى

أدب البصل



عيناى على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا .. كان الرجل بهى الطلعة .. وسيم الملامح .. مفتول الشارب .. توحى نظراته بالارتياح والثقة ، فكانك امام عم أو خال أو جد .. ولقد ظننت في

البداية أنه احد الأقرباء .. فلما بلغت مرحلة الصبا عرفت أنه لايمت إلينا بصلة الدم .. ولكن بصلة العقل والروح .. فقد كان أبى من عشاق المنفلوطي .. فلما دخلت المدرسة الابتدائية واجهت نفس الصورة في كتاب المطالعة وتحتها عبارات تذوب رقة وعذوبة عن الرحمة والتراهم والبؤس والبؤساء .. وكان على أن احفظها حتى استخدمها في صياغة دروس الانشاء ، فقد كانت الوصية الأولى عند اساتذة اللغة العربية في كل انحاء مصر : إقرأ المنفلوطي ثم اكتب على منواله ، وكلما تقدمت في مراحل التعليم ازددت قربا من المنفلوطي ، فقرات « النظرات ، ثم بقية السلسلة الراقية التي صاغها السيد مصطفى لطفي المنفلوطي : الفضيلة وما جدولين وفي سبيل التاج .. حتى لات المنفلوطي . جزءا لايتجزا من كياني الثقافي .

وإذا سالتنى عن سر عظمة المنفلوطى قلت لك إنها تتمثل فى قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة والآداب السامية والمثل العليا فى اسلوب محبب الى النفس – وتلك وظيفة الادب كما كنا نتعلمها – فانت أمامه لا تشعر بانك بإزاء واعظ أو أستاذ ، ولكنك بجوار صديق عزيز يمس أوتار قلبك باصابع حانية. . فلا تلبث ينابيع الخير أن تتفتح فى نفسك لتستقبل معانى الحق والفضيلة والجمال . . مثلما تتفتح الزهرة لتحتضن أشعة الشمس .

وانت حين تقرا المنفلوطي ، فإنك في الواقع لا تقرأ كلاما مرصوصا أو عبارات جامدة .. وإنما تسمع ألحانا شجية تنبعث من قيثارة مستكنة في أعماقك .. فتحرك في نفسك إحساسا بالسمو والارتقاء ، فإذا بك تصعد الى أفاق علوية ، وإذا بك قد تجردت من نوازع الحقد والجشع والظلم والإنانية .. وإذا بك قد استحلت كائنا نورانيا يشع بالجمال والطهر والعفاف ..

وظلت رفقتي للمنفلوطي حتى بعد أن تخرجت في الجامعة .. وتعرفت إلى ادباء من الشرق و من الغرب .. لكل منهم طعمه ومذاقه .. وأسلوبه ومنهاجه .. ومع ذلك بقى المنفلوطى مستقرا فى اعماقى .. ألوذ به كلما أجهدنى المسير .. ولسعتنى شدة الحياة .. فارتشف من نبعه الصافى بضع قطرات تملأ النفس بشرا وأنسا .

وكان اشد ما يؤلمنى تحامل النقاد على الأدب المنفلوطى .. واتهامه بإشاعة روح الضعف والتخاذل والخور فى نفوس الشباب . وكان على رأس هؤلاء الناقدين الاستاذ العقاد .. فقد كان من المؤمنين بفلسفة القوة ، والمبشرين بفكرة البطولة ، وقد أزعجه أن رأى كراريس الانشاء عند تلاميذه ـ وقت أن كان مدرسا ـ لاتخلو إحداها من « ميزاب دمع أو ماتم شجو وأنين » تأثراً بادب المنفلوطى ، وقد بلغت السخرية عند العقاد أن طلب من طباخ المدرسة أن يجمع مخزون البصل عنده ثم يقدمه الى التلاميذ اثناء حصة الانشاء ليستخدموه فى استدرار الدموع بدلا من ادب المنفلوطى .. « فالبصل أولى بمهمة تصريف الدمع من كراسة الانشاء » على حد تعبير العقاد .

ولم يكن العقاد فريد عصرة في التحامل على المنفلوطي واتهامه بالإفراط في البكاء وإشاعة الأحزان في نفوس قرائه ، فقد شارك في الحملة كثيرون ساءهم أن يكون للمنفلوطي هذا التأثير الكبير عند الشباب وأن يكون أدب المنفلوطي حجر الأساس في تذوق الادب .

وكان المنفلوطي يتقبل هذه الحملات الطالمة .. كعهده .. صابرا راضيا .. و لايملك حيالها دفعا .. حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع جثمانه .. فقد شاء القدر أن يلقى وجه ربه في يوم عصيب ، وهو يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول في ١٢ يوليو يوم ١٩٧١ ، فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن على حياة زعيمها ونسيت أديبها الكبير . وقد لفتت هذه المفارقة نظر أمير الشعراء أحمد شوقى فانشد مخاطبا المنقلوطي :

أختسرت يسوم السهلول يسوم وداع

ونعاك في عصف الرياح الناعي هشف النعاة ضحى فأوصد دونهم

جرح (الرئيس) منافد الاسماع

من مسات في فرع القيسامية لم يجد

قدما تشيع أو حفاوة ساع

سعد زغلول .. الأنضائى

كان

السيد جمال الدين الافغاني ، وقد اغلقت في وجهه أبواب التدريس في الأزهر يتخذ مجلسه المفضل في قهوة متانيا يميدان العتبة ، يوزع السعوط بيسراه .. والثورة بيمناه .. ، وكان الطالب

الأزهري سعد زغلول أحد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها . فبقيت مستكنة في وجدانه نصف قرن ، حتى تفجرت كالاعصار وهوشيخ جاوز الستين ، وسرى إشعاعها كما تسرى موجات الأثير في اعظم ثورة شعبية عرفتها مصر في تاريخها العريق. جاء سعد الى القاهرة ليجاور في الازهر في نفس السنة التي هبط فيها الافغاني مصر .. فكأنهما على ميعاد . واقام الافغاني في مسكن متواضع في خان ابو طاقية بحي الجمالية ، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون افكاره في الثورة والاصلاح كما تتشيرب الارض العطشي قطرات المطر . وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول الى حلقة الافغاني ، وما إن راى سعد الشيخ المهيب واستمع اليه حتى قال لنفسه " هذا مغيتي » وأضحى سعد عضوا دائما في ندوة الشيخ . وكان من عادة الافغاني أن يستكتب تلاميذه في الموضوعات الذي يتحدث فيها كي يدريهم على قوة التعبير وترتيب الافكار ، وكتب سعد مع غيره في ، الحرية ، فاعجب به الأفغاني وعلق قائلا : مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر .. أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشيء .

وتفاعلت بذور الحرية فى نفس سعد مع اندلاع الثورة العرابية ، كان وقتها شابا فى الخامسة والعشرين ويعمل ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة بعد ان كان محررا يالوقائع المصرية ومساعدا لاستاذه محمد عبده ، لقد جرفته احداث الثورة فى اتونها .. فلما قشلت اصابه من أذى الاعتقال ما اصاب كل ثائر غيور ، وفقد سعد وظيفته وبات هدفا للمطاردة والتنكيل ، كان

بوسعه أن يعتذر ويتزلف ليسترد وظيفته ، ولكن روحه الأبية انفت من السقوط في الشرك الذي سقط فيه ضعاف النفوس ، وإنما أثر أن يحترف المحاماة وهي يومذاك ـ كما يصفها العقاد ـ ليست بالمهنة الشريفة التي نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من الإيحسب المرافعة الا مجالا للبذاء وطول اللسان وضيربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس .. ولكن سعدا صاحب النفس الابية ارتفع بكرامته عن الدنايا ، فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من اشرف المهن .

ولم تنم عين السلطة الغالبة عن سعد ، فقبضوا عليه وعلى شريكه في مكتب المحاماة حسين افندى صقر بتهمة الاشتراك في جماعة سرية اطلقت على نفسها اسم (جماعة الانتقام) هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة ، وارسال خطابات تهديد بالقتل الى الوزراء وكبار المسئولين المتعاونين مع الاحتلال وتحمل وثائق الثورة العرابية منشورا وزعته الجمعية على قناصل الدول الاجنبية قالت فيه إن اهدافها تتمثل في تحرير الوطن وطرد الانجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش . ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية ارواح الاجانب من كل الجنسيات والاديان ، وتطلب منهم عدم إيواء الإجانب من كل الجنسيات والاديان ، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال أو التعامل معهم ، وحددت الجمعية مهلة لتصفية جنود الاحتلال أو التعامل معهم ، وحددت الجمعية مهلة لتصفية أمواله وطرد عائلته من البلاد .. واختتم المنشور بعبارة « فلتحي مصر والموت للانكليز » .

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا ، فقد وضعت لنفسها قانونا اساسيا مكونا من ٢٠ مادة يحدد شروط الانضمام للجمعية وطريقة العمل بها ، ونظام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات والضمانات المكفولة للأعضاء في حالة الاعتقال واسلوب التخفي ونوعية الاسلحة التي يتدربون عليها .

وشكلت لجنة للتحقيق مع المتهمين تضم عددا من رجال القضاء الأجانب والمصريين، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعدا وشريكه حسين صقر.

فامرت بالافراج عنهما ، ولكنهما بقيا رهن الاعتقال اكثر من ثلاثة أشهر لأن الحكومة كانت عازمة على نفيهما إلى أقاصى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا محافظ العاصمة باعداد المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار واوشك الامر بالنفى أن يصدر لولا أن ناظر الحقانية ـ حسين فخرى باشا عارض فيه وقال: أن صدور الأمر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الإجانب الذين جيء بهم لتنظيم القضاء المصرى . فعدلت الحكومة عن النفى وبقى السجينان معتقلين .. عندئذ كتب سعد الى لجنة التحقيق ، أنى لا إزال موضوعا في السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتى مما نسب الى فالأمل إسعافى باجراء أمر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذا للقانون ، باجراء أمر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذا للقانون ، وعلم النائب العام الانجليزى ـ مستر ماكسويل ـ بامر السجينين وعلم النائب العام الانجليزى ـ مستر ماكسويل ـ بامر السجينين تعجبه من هذا التصرف المريب ، وأمر بالافراج عنهما فورا .. ولم تعجبه من هذا التصرف المريب ، وأمر بالافراج عنهما فورا .. ولم يسع الحكومة إلا الإذعان .

وَحْرِج سَعد ليستانُف عمله في المحاماة .. سائرا على الصراط المستقيم الذي اختطه لنفسه ، ولا يحيد عن المثل والإخلاقيات التي فطر عليها .. لا يقبل أبدا الدفاع عن باطل .. ولا يرفض أبدا الدفاع عن الحق .. وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر .

بيسن ثورتيسن

كانت

الفترة الممتدة بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ من أكثر فترات التاريخ المصرى غموضا ، فلم تجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل احداثها ، رغم أن هذه الفترة كانت غنيلة

بالاحداث التى وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العرابية ، وجاء بعضها الآخر إرهاصا بمقدم الثورة الوطنية في ١٩١٩ ، فإذا كانت هذه الفترة الزمنية هي اللحد الذي احتضرت فيه ثورة ، فإنها ايضا الرحم الذي تخلقت فيه ثورة آخرى ..

ويمكن تشبيه هذه الفترة التي امتدت ٣٧ سنة ، بليل طويل حالك السواد ، جاء بعد غروب شمس العرابيين ، وقهر الامل في قلوب المصريين ، ولكنه في نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد .. وبعث الأمل مرة اخرى في الصدور اليئسة .. فاستعاد المصريون ثقتهم بانفسهم .. وهبوا يطلبون الحرية والاستقلال .

فى هذه الفترة اصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع وصاحب الامر والنهى فى كل مقدراتها ، واضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد .. وبات الوزراء مجرد اشباح او بصمحية بالقياس الى المستشارين الانجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الامبراطورية ، وبثهم فى الوزارات والمصالح ومديريات الاقاليم . وصدقت فى وزرائنا مقولة أحد الكتاب الانجليز : «نحن لانحكم مصر .. وانما نحكم الذين يحكمونها » .

وشهدت هذه الفترة انتشار مبوجة الفسياد والنفاق والوصولية .. كانت الهزيمة كالاعصار المدمر اكتسح المبادىء الخلقية والقيم الروحية .. وساد الياس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح ..

وكان من المؤسف أن نجد الادباء والشعراء يدبجون قصائد المديح في جبار الاحتلال كرومر .. وينشرون ما تجود به قرائحهم في كل مناسبة انجليزية .. فاذا حل عيد ميلاد ملك الانجليز تتابع الاعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم أمات التعربك والتهنئة .. واذا مات الجنرال الغشوم كتشنر غرقا في بحر الشمال انهمرت دموع الحزن عليه أنهارا .. وخلع عليه الشعراء صفة الشهيد .. يتساوى في ذلك كبار الشعراء وصغارهم .. كان من المفجع أن تمسك الصحيفة فتجد فيها قصائد من هذا النوع تحمل اسماء شعراء كبار مثل آحمد شوقي وحافظ ابراهيم واحمد نسيم وغيرهم .. وكان من الطبيعي أن يقتدى بهم صغار الشعراء .. وأن تتأثر بهم الجماهير التي كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب وشغف ..

وبدا كرومر خطة جهنمية لتغيير خريطة المجتمع المصرى، ظهر معها وكانه القارس الموعود الذى بعثت به الأقدار لتحقيق الأمانى القومية التى فشل الثوار في تحقيقها .. لقد ثار المصريون على السخرة والظلم والغطرسة التركية والارستقراطية الشركسية التى احتكرت ملكية الأراضي وكتمت انقاس المصريين وسعدت بفشل الثورة .. فلماذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتماعي بما يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاحم الفلول الشركسية وترثها ..؟ وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف من الشركسية وترثها ..؟ وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف من الضرائب وإلغاء السخرة .. وكان له ما أراد .. وبرزت على سطح المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال ليس عن كفر البلوطن ، ولكن عن شعور بان مقامهم أرتفع بقيام السلطة الجديدة التى أنقذتهم من طغيان السلطة القديمة التى لم يكونوا يستطيعون لها دفعا .

وفى رأى محمد زكى عبدالقادر ان قيام هذه الطبقة واعتمادها على الاحتلال في حمايتها من بطش الخديو ، والكراهية المتاصلة في نفسها للحكم التركى .. كانت البذرة الأولى لنشوء ، فكرة الاستقلال ، عن تركيا وانجلترا وهي الفكرة التي حمل لواءها ونادى بها بعد ذلك حزب الامة وأحمد لطفى السيدفي الجريدة . وظلت هذه الطبقة اكثر انحيازا الي سلطة الاحتلال منها الي القصر . ولعبت دورا خطيرا في الحياة السياسية المصرية وكان لها شانها في ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات . كما كان لها تثيرها في الحياة البرلمانية ، وما تعرضت له من هزات واضطراب . واتخذت موقف العداء المستمر من القصر .

والمهادنة المستترة للاحتلال ، ليس عن رضاء به ولكن عن خوف من استبداد السراى وبطشها .. كان الاحتلال يريد ان يبقى اطول فترة ممكنة في مصر ، وكان يعرف ان هذا الهدف لن يتحقق إلا اذا كسب ولاء اعيان المصريين ورضاهم .. ولن يفعل المصريون ذلك الا اذا شعروا بان حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا .. بل يفوق حالهم على عهد اسماعيل .. واستطاع كرومر أن يغرس في نفوس المثقفين فكرة الاصلاح التدريجي بديلا عن بذرة الثورة .. وبهذه الخطة الجهنمية نجح في تاجيل الثورة لاكثر من ثلث قرن .

نسورة النسساء

كانت

مظاهرات النساء ابرز مفاجات ثورة ١٩١٩ .. ففى اليوم التالى لاعتقال سعد زغلول اندلعت المظاهرات فى شوارع القاهرة، وخرجت جموع الشعب من كل الفئات والطوائف تواجه رصاص

الانجليز في شجاعة منقطعة النظير، وتساقط الشهداء والجرحي وسالت الدماء في الشوارع دون أن يفت ذلك في روح الشعب المتعطش الى الحرية والاستشهاد، ولم تكن المرأة المصرية أقل إقداما من الرجل، وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة في تاريخ مصر الحديث ـ وربما في تاريخها الطويل ـ مظاهرات نسائية صرفة ترفع الاعلام وتهتف للحرية وتنادى بسقوط الاحتلال والحماية.

وفى يوم ١٦ مارس ١٩١٩ خرجت اول مظاهرة نسائية ، أى بعد اسبوع من نفى سعد ورفاقه الى مالطة وكانت تضم ٣٠٠ سيدة ، وقد وصف الرافعى احدى المظاهرات النسائية فقال :

نظمت السيدات مظاهرة فخرجن من جاردن سيتى وسرن ماشيات وفي مقدمتهن سنة اعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللفتين العربية والفرنسية وسارت المتظاهرات وخلقهن مركباتهن حتى وصلن الى شارع قصر العينى وشارع سعد زغلول ووقفن امام بيت الامة هاتفات لمصر وحياة سعد ، ثم اقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الانجليز في سيارات مسلحة فضربوا نطاقا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات في الشمس ، وأرسلن باحتجاجهن الى سقارات الدول ، وجاء القنصل الامريكي بنفسه واحتج على هذه الفظاعة ، فصدر الامر على عجل برفع الحصار ،وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب برفع الحصار ،وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب عولهن ، فركبن السيارات والعربات وانصرفن الى بيوتهن بعد ان مصر .

田 佳 5

وفي يوم ١٠ ابريل سقطت اولى شهيدات ثورة ١٩١٩ وهي شابة عمرها ٢٨سنة اسمها شفيقة محمد ، وعقب وفاتها اصدرت السيدة هدى شعراوى رئيسة اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات ، منشورا اعلنت فيه ان شفيقة محمد هى اول امراة مصرية تسقط برصاص الانجليز منذ اندلاع الثورة ، ثم اصدرت قيادة الثورة منشورا روت فيه قصة استشهادها على النحو التالى :

شاركت شفيقة محمد في مظاهرة يوم ١٠ ابريل ١٩١٩ وكانت مظاهرة كبيرة ضمت السيدات من مختلف الطبقات وسرن في الشوارع حتى وصلن الى مقر المعتمد البريطاني وطلبن مقابلته ليرفعن اليه احتجاجا مكتوبا ، فمنعهن العساكر الانجليز بالسلاح وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونكيات ، ومع ذلك لم يعبأن ، وتقدمت واحدة منهن (شفيقة) وهي تحمل العلم في يد والاحتجاج في اليد الاخرى ، واخترقت الحصار وجرت حتى وصلت الى مكتب « ملن شيتهام » القائم باعمال المندوب السامي البريطاني ، فتناول الاحتجاج من شفيقة ودعاها للدخول الى مكتبه فدخلت وراءه ، واشار إليها بالجلوس ولكنها رفضت قائلة :

وتصفح شيتهام الاحتجاج وتظاهر بأنه لم يفهمه مع انه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وقال لشفيقة محمد : إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية ، ماذا تريدين ؟ فأجابت : أنه احتجاج على الاعمال الوحشية التي يعاملنا بها جنودكم بدون ذنب الا اننا نطالب بحرية مصر واستقلالها وسالها شيتهام : وما تلك الأعمال الوحشية ؟ فقالت : ضرب النار على اولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجردين من السلاح لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام ، وذلك مثل باقي بلاد العالم وتنفيذا لمبادىء الرئيس السلام ، وذلك مثل باقي بلاد العالم وتنفيذا لمبادىء الرئيس فيلسون .. وسالها شيتهام مرة ثانية : وهل هناك اشياء اخرى ؟ فأجابت نعم نحتج على اعتقال زعمائنا ونفيهم الى مالطة .. ويئس شيتهام من شفيقة وضاق صدره بها فوقف وقال لها منذرا :

تلك هى المرة الأخيرة التى نراك فيها تشاركين فى المظاهرات وإلا فسيكون الاعتقال مصيرك! فقالت شفيقة: ستروننى فى كل مظاهرة .. واستدارت الشابة المصرية لتغادر الغرفة بخطى ثابتة وهى رافعة الراس .. والعلم فى يدها .. وفتحت الباب لتخرج،

واغلق الحارس الباب خلفها واخذ شيتهام الاحتجاج الذى تركته ومزقه وألقى به فى سلة المهملات .. وقطع سكون الموقف صوت طلقات الرصاص ينهمر، وأطل المندوب البريطاني من نافذة غرفته ليجد شفيقة محمد جثة هامدة مضرجة فى دمائها الزكية ، ومن حولها زميلاتها وهن يهتفن :

تحيا ضحايا الحرية .. في دمة الله ياشفيقة .

شهيد أسيوط

كان

البكباشى محمد كامل مامورا لبندر اسيوط حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها الى الصعيد ، ودارت معارك طاحنة بين قوات

الاحتلال والأهالي العزل ، فما كان من المامور البطل الا أن فتح غرفة « السلاحليك ، على مصراعيها ، وترك الثوار يغترفون منها البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة .

كانت اسيوط قد علمت بنبا اعتقال سعد ورفاقه ونفيه الى مالطة ، فخرج طلبة المعهد الدينى ومدرسة الامريكان ومدرسة إخوان ويصا والمدرسة الثانوية في مظاهرة سلمية يهتفون لسعد والثورة ، ويرددون هناف الثورة المجيد « الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، فنصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون في اسيوط ، وأطلقوا عليهم الرصاص فثارت مشاعر الاهالى ، وشكلو المنهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن المدينة وإزدادت حدة التوتر عندما أقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال بعض الزعماء المحليين : المحامى احمد علوان والمحامى محمود بسيونى ومحمد محفوظ باشا . وتناقل الناس انباء الاهانات البلغة التي تعرضوا لها في السجن فازداد هياجهم ، وانطلقت الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادفت الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادفت الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادفت الحاما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول فاشعلوا فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة

وفقد الانجليز اعصابهم فأخذوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين في وحشية، وتساقط مئات الشهداء والجرحي وسالت الدماء في الشوارع كافواه القرب مما دفع الثوار الى مزيد من العناد والصلابة والاصرار على مقاومة الاحتلال، وشددوا من هجماتهم على المعسكرات البريطانية حتى اضطر الانجليز الى تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانويية وفرضوا عليها ستارا حديديا من الحصار المسلح، فكان الثوار ينقضون على الثكنة العسكرية في هجمات فدائية جريئة، مما

أثار فزع سلطات الاحتلال ودفعها الى الاستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني .

ولأول مرة في تاريخ الصعيد، وفي صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتهما من القنابل على المدينة الباسلة في غارات وحشية لم تقرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة، وتساقط المئات دون أن ينال ذلك من روح الأهالي وصلابتهم.

وأمام هذا العناد الصعيدى لجأت سلطات الاحتلال إلى اسلوب دنىء لإذلال الأهالي ، فأعلنت أنها ستقوم بتقتيش البيوت ليلا ، وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها ، ولم يستسلم الأهالي للتهديد الحقير فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة ، حفاظا على الأعراض من أن تمسها شراذم الاحتلال .

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر يقل بعض كبار الضباط الانجليز في طريقهم الى القاهرة . وارسلت مديرية امن أسيوط إشارة الى جميع مراكز ونقط الشرطة لتشديد الحراسة على المحطات ، ولكن الضباط بدلا من أن يشددوا الحراسة أبلغوا الأهالي حتى لا يقلت منهم الصبيد الثمين ، وتحركت جموع الثوار من القرى والمنجوع نحو محطة ديروط، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل ، وانهالوا ضربا على الضباط الانجليز فقتلوا منهم اثنين ومعهم خمسة جنود . وكان لهذا الحادث أثره في اسيوط، فشدد الانجليز الحصار على المدينة استعدادا للانتقام منها ، واحَدُوا في حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة ، وارسل القائد البريطاني رسالة الى البكباشي محمد كامل مأمور البندر يطلب اليه فيها التسليم ، فكان جواب الضابط الذي تحول الى ثائر: لن تدخلوا المدينة إلا فوق اشلائنا ، وبدأت القذائف تمطر المدينة بوابل من الثيران ، ولكن المأمور لم يستسلم ، وقام بتوزيع مالديه من سلاح على الأهالي ، وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة إلى أن وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة، وكان أول مافعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور أسيوط وتقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة التفريط في السلاح « الميري » وتحريض الأهالي على التمرد . وأصدرت المحكمة حكمها بإعدام البكباشي محمد كامل، وتلقى الرجل الحكم في شجاعة نادرة، وحاول وجهاء اسيوط إنقاذ رقبة المأمور البطل، وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه، ولكن السلطات البريطانية اصرت على إعدامه. وفي يوم ١٠ يونيه ١٩١٩ سيق البكباشي محمد كامل الى ساحة الإعدام داخل احد المعسكرات البريطانية ونفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص، وبقى اسمه في سجل الخالدين الذين انبتتهم مصر على مدى تاريخها العريق.

دولت نعمى

كان

عبد القادر محمد شحاتة - الطالب بالمدرسة الالهامية الثانوية - جالسا على مقهى بميدان باب الخلق يلعب « عشرة طاولة « مع صديق له ، عندما تقدم منهم الماري المارية .

السحسسا منهما شاب متوسط الطول قمحى اللون، فسحب كرسيا وانضم إليهما في مباراة الطاولة ، وقدم نفسه باسم «فهمى » . وبعد التعارف وتبادل الاحاديث الودية انصرف «فهمى » لحال سبيله ، ولكن زيارته لعبد القادر تكررت بطريقة مريبة . كان يهبط عليه فجأة في منزله وهو في زى عامل أحيانا .. وادرك عبدالقادر أن وراء الصديق الجديد سرا عامضا ولكنه حار في تفسيره .. حتى جاء اليوم الذي كشف «فهمى » فيه عن حقيقة أمره . قال له : إسمع ياعبد القادر .. نحن نعرف الكثير عن شجاعتك ، والإعمال البطولية التي قمت بها في نعرف الكثير عن شجاعتك ، والإعمال البطولية التي قمت بها في المنيا اثناء عدوان الانجليز على أهلها العزل ، ونعرف أنك أنت الذي اشعلت الثورة في المنيا ، والأن حان الوقت لأكشف لك عن مهمتي .. فأنا مندوب الجهاز السرى ، فهل تقبل أن تكون عضوا معنا في الجهاز السرى ، فهل تقبل أن تكون عضوا

قال عبد القادر على الفور: تعم .. اقبل بلا تردد واقسم على حفظ السر.

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩ يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطاني، ويطعنون الثورة في ظهرها .. ويحطمون إرادة الأمة التي اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيما ومتحدثا وحيدا باسمها في مواجهة الانجليز . وكان محمد شفيق باشا وزير الأشغال في وزارة ابراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء حين وافق على إطلاق يد الانجليز في تغيير نظام الرى في السودان خدمة للمصالح الاستعمارية وإلحاق الضرر بالمصالح الوطنية، وقررت قيادة الثورة قتله .

وفى يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ذهب « فهمى » الى عبد القادر وأبلغه أن الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا ، ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة .. وقام الشاب الجرىء بالعملية كما طلب منه ، والقى قنبلة على سيارة الوزير أثناء مروره فى العباسية ، وانفجرت القنبلة ولكن الوزير اقلت من الموت .. وقبض على الفدائي الجرىء ، وبدات سلطات التحقيق تمارس معه افظع الوان التعذيب لتعرف منه اسماء قيادة الجهاز السرى للثورة ، خاصة أن بعض شركائه في المنزل شهدوا بانه كان يبيت لياليه الأخيرة خارج البيت ، وهنا حدثت المفاجأة التي يرويها عبد القلار في مذكراته التي نشرها استاذنا مصطفى أمين في (الكتاب الممنوع) :

وإذا بى اتلقى داخل السجن رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن ، بان سيدة اسمها دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال الاحمر سابقا ، ستتقدم للشهادة وتقول إنى كنت فى تلك الايام ابيت عندها ! وإنه يجب أن اعترف بهذا ، رغم أن هذا يسىء الى سمعتى وإلى سمعتها ، ولكنها قبلت أن تقوم بهذه التضحية ! واستدعانى النائب العام توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد ليسالنى أين كنت أبيت ؟ وكانوا يتصورون أن هذا السؤال هو الخيط الذى سيوصلهم الى الجهاز كله ! فقلت وأنا أظهر الخجل : الخيط الذى سيوصلهم الى الجهاز كله ! فقلت وأنا أظهر الخجل : باننى كنت أبيت عند السيدة دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال سابقا ، وأصدر النائب العام على الفور أمرا بالقبض عليها ، فجاءت مكيلة بالحديد ، ودخلت سيدة حسناء الى غرفة النائب العام ، وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلنى وتنادينى : ياحبيبى ! ياحبيبى ! ااعترفت باننى ابيت فى بيتها واننى عشيقها .. وذهل النائب العام والحكمدار الانجليزى .

وصدر الحكم باعدام عبد القادر شحاتة ، ثم خفف الى الاشغال الشيافة المؤبدة ، وقضى القدائى الشياب ايامه ولياليه فى ليمان طرة وهو لا يكف عن التفكير فى أمر هذه السيدة التى ضحت بسمعتها من أجل إنقاد شياب مصرى جسور .. كانت تملأ عليه خياله وهو يقطع صخور الجبل .. وتؤنس وحشته وهو ياوى الى زنزانته ، ويناجى طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكئيب .. حتى أحس بانه يحبها فعلا .. ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبد القادر شحاته فى ليمان طرة حتى جاءت حكومة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول ، فافرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذي سجنتهم سلطات الاحتلال ، وكان أول مافكر فيه عبد القادر بعد عودته الى الحرية هو البخث عن دولت فهمى ليتزوجها ولكن بعد عودته الى الحرية هو البخث عن دولت فهمى ليتزوجها ولكن

الجميع كانوا يتهربون منه ويطلبون منه ان يكف عن السؤال عنها ..

ولم يكف الشاب عن السؤال حتى وجد نفسه أمام الحقيقة المفجعة .. فقد عرف أن أهلها قد قتلوها ليغسلوا العار الذى لحق بهم أثناء التحقيق ، ولم يدركوا أنها طوّقت أعناقهم بأكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من أجل إنقاد زهرة شباب مصر ..

نموت وتميا مصر

أعقاب الاعتقال الثانى لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١) اتخذت قيادة الوفد قرارا بتنظيم المقاومة السلبية اسلاحتلال . واصدرت عدة منشورات طالبت فيسها المواطنيان بمقاطعة الشركات

والمحلات والبضائع الانجليزية واستعمال البدائل المصرية، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الاجنبية الى بنك مصر الذى مضى على إنشائه عام واحد. وفي اليوم التالي اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التي كانت تضم: حمد الباسل وويصا واصف وعلى ماهر وجورج خياط وعلوى الجزار ومرقص حنا ومراد الشريعي وواصف بطرس غالي. وعلى اثر ذلك شكلت قيادة جديدة للوفد من المصرى السعدى وحسين القصبي وفخرى عبد النور وسلامة ميخلئيل والشيخ مصطفى القاياتي ونجيب الغرابلي. وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح فاصدرت بيانا طالبت فيه الأمة بالاستمرار في المقاومة، واعتبار المقاطعة الإقتصادية شكلا من اشكال الجهاد لانه يصيب المصالح البريطانية في مقتل، ويعمل على تشجيع الراسمالية الوطنية المصرية الوليدة، ويغرس في الشعب روح الانتماء للوطنية المصرية الخالصة.

وبعد الافراج عن المعتقلين انضموا الى زملائهم الجدد، وتحولت قيادة الوفد الى كتيبة نضائية تؤجج جدوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية، وتسميم الآبار في وجهها، وانهالت المنشورات في كل انحاء البلاد تحض الجماهير على مقاطعة انماط الاستهلاك الاجنبية والاقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت اقل جودة أو اغلى سعراً من مثيلتها الاجنبية. واستجابت الامة لنداء قيادتها الوطنية .. ونجحت المقاطعة حتى اوشكت المؤسسات البريطانية على الافلاس وتعرضت المنتجات الاجنبية للده الاحاكم للده الحاكمة للده الحاكمة الاحاكمة الاحاكمة الاحتبات الاحتبات الاحتباد الاحتباد الاحتباد الاحتباد الحاكمة الحاكمة الحاكمة الحاكمة المنتجات الاحتباد اللهداد والكساد .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٢٧ أصدرت سلطات الاحتلال أمرا باعتقال سبعة من قيادات الوفد . وبدات الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالى والقى بهم فى تكنات قصر النيل ، وكان مراد الشريعى فى بلدته ـ سمالوط ـ فلما علم بنبا القبض على

نی

زملائه ركب القطار الى القاهرة وسلم نفسه الى سلطات الاحتلال ،
وكذلك فعل علوى الجزار الذى قيم من شبين الكوم . أما ويصا
واصف فقد قبضوا عليه فى رأس البر . كما قبضوا على جورج
خياط فى الاسكندرية ، والتام شمل الزعماء السبعة فى قشلاق
قصر النيل دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من أجلها
الى أن بدأت الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال
الحكومة البريطانية وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون
الحكومة البريطانية وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون
بتهمة التحريض على قتل الانجليز فى شوارع القاهرة ، وأنهم
وسيواجهون عقوبة الاعدام . واستقبل الابطال هذه الانباء
بالسخرية وظلوا يمارسون نشاطهم اليومى فى لعب الطاولة ولا
يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية الى حد إعدامهم
يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية الى حد إعدامهم

وهذه صنورة وصفية للروح المعنوية العالية الابطال السبعة سجلها مرقص حنا في مذكراته التي نشرها الاستاذ مصطفى امين ويقول فيها: «كنا في غاية الشجاعة .. ونؤمن باننا دافعنا ، بتمام الشرف والهمة والاخلاص ، عن بلادنا وعن حقوقها ، هذا هذا جرم ؟ إن العقاب على هذا الامر كالعقاب على الاكل والشرب ، غريب أن يسمى نفسه شريفا ذلك الذي يسمى الدفاع عن الوطن غريب أن يسمى نفسه شريفا ذلك الذي يسمى الدفاع عن الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفا ذلك الذي يستعمل قوته وسلاحه ضد امة عزلاء ليسطو عليها ويسلب اصحابها اموالهم وأرزاقهم ؟ انهم يريدون عقابنا .. ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون الانجليز الى هذا العمل وبأي وصف اصفهم ؟ إن احط ويدفعون الانجليز الى هذا العمل وبأي وصف اصفهم ؟ إن احط الكلمات لا تكفى لوصفهم .. » .

ولما وجدت السلطات البريطانية ان تهمة التحريض على القتل لا تستند إلى دليل ، عدّلوا الاتهام وحصروه في دائرة الحض على كراهية الحكومة واحتقارها ، وتسلم الابطال قرارات الاتهام ، واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم ، وانابوا حمد الباسل لإلقاء كلمة امام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية في اول جلسة من جلسات المحاكمة التي عقدت في مبنى محكمة استثناف القاهرة بباب الخلق ، ونهض

حَمَد الباسل يرقل في ملابسه البدوية التقليدية يقول في صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة: باسم الشعب المصرى .. إننا نحن الوكلاء عن هذا الشعب ، المكلفون بالمطالبة باستقلاله ، ولهذا لا نستطيع أن نعترف بأي حال من الاحوال بقضاء محكمة اجنبية ، ولو أن هذه المحكمة العسكرية الانجليزية تأخذ بتصريح ١٨٥ فبراير) وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان تصريح ٨٨ فبراير) وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان حقا عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا ؛ أن لكم أن تحكموا علينا .. ولكن ليس لكم أن تحاكمونا .. ! مهما تكن العقوبة التي يروق لكم أن تشرفونا بها ، فإننا سنقابلها بالسرور والفخار ، لأنها خطوة إلى الأمام في طريق المجد الذي تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد ! ولو خرجنا من السجن فسنعود الى جهادنا مرة اخرى .. ولو متنا .. فإن مصر الن

وخيم على القاعة سكون رهيب .. ووقف بقية المتهمين فقال كل منهم إن كلام حمد الباسل يعبر عن راينا جميعا .. ورفعت الجلسة للمداولة ثم عادت بعد قليل لتصدر حكمها بالاعدام على الابطال السبعة .. وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم حتى وقف حمد الباسل ليهتف: نموت وتحيا مصر .. !! وضجت القاعة بالهتاف: تحيا مصر .. يحيا الاستقلال .. يحيا سعد ..

وارسل الحكم الى اللورد اللنبي فصدق عليه وبعث به الى حكومته للتصديق . ووجدت الحكومة البريطانية أن إعدام الأبطال السبعة سيؤجج لهيب الثورة من جديد ، فخففت الحكم إلى السبن سبع سنوات وغرامة خمسة الاف جنيه .

ينك يصيير

كان

قيام بنك مصر في مايو ١٩٢٠ هو اعظم إنجاز اقتصادي لثورة ١٩١٩، ولكي ندرك (همية هذا الصرح الشامخ في تاريخ مصر الحديث، ينبغي ان

المصرى منذ التغلفل الاستعمارى الأوربي الذي بدا في عصر المصرى منذ التغلفل الاستعمارى الأوربي الذي بدا في عصر الخديو اسماعيل، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصرى للسيطرة البريطانية، حتى تحولت مصر بكاملها الى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الانجليزية، وتحول المصريون الى مستهلكين للمنتجات الانجليزية، وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الاجنبية، وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا في المدن، وانبثوا في القرى يمتصون عرق ابنائها بارخص الاثمان.

كنت نعشى فى قلب القاهرة التجارى فلا تجد محلا مصريا عليه القيمة ، فكل المحلات الكبرى تحمل اسماء اجنبية : شيكوريل، شملا ، أوركو ، أفرينو ، بنزايون ، صيدناوى ، عمر أفندى ، داود عدس . حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطلبان والأرمن واليونانيون ، واقتصر نشاط المصريين على تجارة العطارة في المحلات الصغيرة المكدسة في الغورية وبين الصورين وعربات المولات الصغيرة المكدسة في الغورية وبين الصورين وعربات الفول والطعمية والكشرى التي تزين جدارتها بشعارات انهزامية تقول : ملك الملوك إذا وهب .. لا تسائن عن السبب .. !! وكانت البنوك ـ عصب الاقتصاد ـ تابعة للمصالح الاجنبية بما فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة ـ البنك الاهلى المصرى ـ كان الدولة القائم على إصدار العملة ـ البنك الاهلى المصرى ـ كان الدولة القائم على إصدار العملة ـ البنك الاهلى المصرية سوى الاسم المزيف .. قلم يكن (هليا .. ولا مصريا .. !!

فى هذا الجو القاتم .. وفى هذه الغابة التى تمرح فيها وحوش كاسرة ، ظهر شاب مصرى مشبوب العاطفة ، صادق الوطنية ، متقدم الفكر اسمه طلعت حرب استحودت على فؤاده فكرة اشبه بالخيال هى إنشاء بنك مصرى يعمل على تجميع مدخرات المصريين واستخدامها في إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية .. ويعمل فيه مصريون ويستخدمون في معاملاته اللغة العربية .. وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين اصدر في عام ١٩١٠ كتابا صغيرا عنوانه (علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك مصر او بنك الأمة) واذا كان الخطاب يقرا من عنوانه، فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه وهو انه «لكي يتم الاستقلال السياسي فإنه من الضروري أن تتوافر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادي التي ترسي دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن إن يواجه بها الاختناقات التي سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار .. تغذي كفاحه وتدعمه وتمنحه الصعود ..» .

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء .. إن الاستعمار الاقتصادى هو الهدف الحقيقي للاحتلال .. وراى بفكره الثاقب ان الاستقلال السياسي لن يكتمل إلا إذا تحررت البلاد من اغلال الرق الاقتصادى . وكتب بيده روشتة العلاج في هذا الكتاب الصغير .. وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعى مصالح المصريين وياخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول .

ولكن .. كيف يمكن لهذا المشروع الاسطورى ان يرى النور وسط الدياجير المظلمة التى تخيم على مصر فى ظل جبروت كرومر .. وتواطؤ عباس الثاني .. وسلبية كبار الملاك الذين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه .. ولم ينظروا الى أبعد من اقدامهم فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى متحرر من اغلال القهر الانجليزى يعمل فيه مصريون .. كانوا يتصورون ان حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات ..!

مثل هذا المشروع كان لا يمكن أن يرى النور إلا في أحضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادي ..

وقامت الثورة في مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وتفتحت ينابيع الوعى في الشخصية المصرية ، وترددت اصداء الحرية في جنبات الوادى وتاقت نفوس المصريين الى الحرية بمعناها الشامل .. وبابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

وارتبط شعار « الاستقلال التام او الموت الزؤام » بشعار « مصر المصريين » وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية ، واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروشهم القليلة في راسمال (بنك مصر) .. ومن حصيلة هذه القروش تجمع مبلغ لا يزيد على ثمانين الف جنيه كان هو النواة الأولى في بناء الصرح الكبير .. وارتبط بنك مصر بثورة مصر واصبح اولى ثمراتها العباركة .. واروع إنجازاتها العملية ..

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من اهداف الثورة الوطنية .. فحين لجات الثورة الى اسلوب المقاطعة الاقتصادية للمصالح الاجنبية ، طلبت من المصريين ان يسحبوا اموالهم من المصارف الانجليزية وان يودعوها في بنك مصر ، وحثتهم على شراء اسهم بنك مصر «حتى يبلغ راسماله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية ، وبذلك يتسنى للبنك ان يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية » .

وشب الوليد عن الطوق واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطنى .. واثبت قدرة المصريين على الوقوف على اقدامهم .. وخرجت الى الإسواق منتجات مصرية اقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخار والاعتزاز لانها من صنع بلادهم .. وكان من بين الشركات التي اسسها بنك مصر شركة اسمها (بيع المصنوعات المصرية) تخصصت في بيع السلع المصنوعة بايد مصرية .. ولكنها تحولت الآن .. في ظل الانفتاح .. الى مركز لترويج السلع المستوردة مثل غيرها من شركات القطاع العام والخاص .. وتبدد الحلم الذي كافح من أجله طلعت حرب منذ ستين عاما على أيدى الغافلين الذين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية .

سنبار المصري

i.

إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى بنك مصر - حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء الشهير (سنمار) الذي بني قصرا

فخيما لأحد ملوك الغرس الأقدمين ، فلما انبهر الملك من روعة البناء خاف من سنمار ان يبنى لغيره افخم منه ، فصعد به الى سطح القصر ، والقى به من حالق ، وبات جزاء سنمار رمزا على المحدود ونكران الجميل ، وكان جزاء طلعت حرب الإبعاد عن الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة ، ولكن عزاءه الوحيد ان البنك رسخت جذوره في تراب مصر ، وفاعت ظلاله على الروابي الخضر ، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الارادة الوطنية في مواجهة البطش الاستعماري . . !

B B B

فعلى مدى عشرين عاما (١٩٢٠ ـ ١٩٢٠) استطاع طلعت حرب أن يجعل من بنك مصر بيتا مصريا خالصا ياوي إليه المصريون هربا من نار النفود الاجنبي الذي ياخذ بخناقهم ، ويستنزف اموالهم، ويسخر بلادهم سوقا استهلاكية لتصريف منتجات المصانع الانجليزية ، فظهرت شركات بنك مصر لتبني قواعد النهضة الصناعية والتجارية والادبية والفنية والثقافية، وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعي خامل الي بلد مزدهر بالحركة والوعى ، وانطلقت المداخن الى عنان السماء في المحلة الكبرى وكفر الدوار لتقدم الى المصريين نسيجا من اقطان بلادهم، ودارت عجلاة (مطبعة مصر) لترعى حركة التثقيف والتنوير وتقدم الى العقل المصيري ثمرات الابداع المصيري ، وقام البناء في مسرح الازبكية ليقدم الى الناس فنا مصريا راقيا، وغذاء ثقافيا مفيدا ، حتى صناعة السينما لم تفلت من نشاط طلعت حرب وقام ستديو مصر في صحراء الهرم ليرعى صناعة السينما التي كانت حكرا على الإجانب ، واتسع نشاط ٢٤ شركة ليشعل كل مجالات العمل الوطني من التامين الى العقارات ، ومن صناعة الزيوت والالبان إلى صناعة الاسمنت المسلح والمناجم والمحاجر، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران .. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعا من فروع الاقتصاد إلا غزاه، وإقام له شركة تحمل اسم (مصر) العزيزة، وبأموال مصرية شابة وضعت في موضع الاختبار فكشفت عن جدارتها، وتولد لديها الاحساس بالثقة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب المصرى، واضحت شركات بنك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التي حملت عبء النهضة الوطنية، واستردت أرضا كانت سداحا مداحا للغرباء والاجانب.

فعل طلعت حرب كل هذه الإفاعيل في ظل الوجود الانجليزى المتسلط على شئون مصر والمتحكم في إرادتها ، كانت مصر في ذلك الحين قد حطمت بالثورة اغلال التبعية ، ومضت تمزق اكفانها وتستروح نسمات الحرية ، ولم يكن الطريق سهلا ميسورا .. كانت الحركة الوطنية تشق طريقها في الصخر لاستكمال مسيرة الثورة ، وتكافح كفاح الصابرين من أجل تحرير الارادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع في قصر الدوبارة ، واستبداد الطاغية القابع في قصر عابدين ، وهي بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعثر خطه ات ..

وفي هذا الجو المبلد بالدسائس والمؤامرات استطاع طلعت حرب ان يقود سفينة بنك مصر في غفلة من عيون الاحتلال ، ولو شئت الدقة لقت انها كانت غفلة الذئب الذي يترك فريسته حتى تتعثر في شباكه وتسقط مستسلمة في بؤرة الفشل والاحباط .. في البداية كان الانجليز يظنون ان بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقا وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا الملل والتجارة والصناعة ، ولكن الايام اثبتت لهم كذب مايزعمون ، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق .. فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية ، واشتدت قبضة الانجليز على القصاد مصر ، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب ، وهدم البنك على رأس بانيه ، قاوعزت الحكومة البريطانية الى مستشارها المالي في مصر ليطلب من حكومة على ماهر ان تسحب من بنك مصر رصيد الحكومة المصرية ، وودائع صندوق توفير البريد .

فتعرض البنك لازمة خانقة في السيولة النقدية ، اراد طلعت حرب أن يعالجها بالطريق المصرفي السليم وهو اللجوء الى بنك الاصدار ... وهو يومئذ البنك الاهلى .. المصرى اسما والانجليزي فعلا ... ليرهن عنده محفظة أوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة ، بعد أن تزاحم الناس لسحب ودائعهم بسبب نذر الحرب ، ولكن البنك الاهلى رفض الطلب بجة أن طلعت حرب افرط في تقديم قروض « معدومة » الى السوادي في وصفها في الفصل البديع الذي كتبه عن طلعت حرب السوادي في وصفها في الفصل البديع الذي كتبه عن طلعت حرب أمن كتابه (اقطاب مصر بين الثورتين) فقد بعث المستشار الانجليزي برسالة إلى طلعت حرب فحواها أنه من الممكن معالجة أرمة البنك إذا استقال الرجل ، ونقل الاصدقاء الرسالة ، وكانت دهشتهم بالغة حينما وجدوا طلعت حرب وقد انبسطت اساريره وهو يقول : الحمد لله .. فليبق بنك مصر لمصر .. وليذهب الفوليت حرب ..

واجتمعت الحكومة المصرية ، وبدلا من ان تصر على بقاء طلعت حرب على رأس البنك الوطنى ، استجابت المطلب الإنجليزى واعدت مشروعاً تحل فيه الحكومة محل البنك الاهلى ، واجتمع البرنمان لبحث الاتهامات الدنيئة الى وجهت إلى طلعت حرب وتبين المجلس ان الرجل لم يزل كما كان دائماً مشرق الصفحة وضاء الضمير ، وان كل ما قيل عنه مفتريات املاها الحقد ووافق البرلمان على مشروع على ماهر ، وذهب طلعت حرب وجاء حافظ عفيفى المعروف برعايته المصالح الإنجليزية ، لينفذ وجاء حافظ عفيفى المعاون وهو ملاحقة رجال الاعمال المصريين ، الجزء الاخير من المؤامرة وهو ملاحقة رجال الاعمال المصريين ، الذين كانوا يتعاملون مع البتك ، وفرض عليهم تسديد القروض فى وقت جفت فيه ينابيع السيولة النقدية ، فبيعت بيوتهم فى المزاد

وقضى طلعت حرب ايامه الأخيرة في سكون بعيدا عن الصرح الذي شيده بإصراره وجلده وايمانه . ولم يندم إذ اوى إلى الظل بقوة القهر ، وبقى البناء شامخا يواصل عطاءه النبيل . وظل اسم طلعت حرب مقترنا باغلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع .. اسم مصر .

الوزارة الشعبية

لم

تمكث وزارة سعد زغلول الأولى والأخيرة في الحكم سوى عشرة شهور و٢٤ يوما، وبعدها بدأت لعبة الانقلابات الدستورية التي باتت طابع الحياة السياسية في العصر الملكي، وكان من نتيجتها

ان قضى حزب الأغلبية البرلمانية معظم وقته في المعارضة، وتربعت احزاب الاقلية على دست الحكم، وكان آخر الانقلابات: الانقلاب العسكرى في يوليو ١٩٥٧ الذي اطاح بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية والحزبية معا.

والمؤرخون يخلعون على وزارة سعد اليتيمة صفة «الوزارة الشعبية» أو وزارة الشعب الأولى، وهم على حق فى هذه التسمية، لأنها كانت أول وزارة فى تاريخ مصر تتولى الحكم بارادة الشعب وليس بارادة السلطان، ولقد حاول الملك أحمد فؤاد أن يتملص من هذه الحقيقة الجديدة المؤرقة له، بأن يخدع نفسه ويخدع معه سعد زغلول، ويفهمه فى خطاب تكليف الوزارة بأن اختياره لهذه المهمة الجليلة لم يكن إلا «لصدق ولألك وعظيم خبرتك وسداد رأيك فى تصريف الأمور» ولكن سعدا الجسور الواعى لم يبلع هذه العبارات المزوقة التى كانت ترد فى خطابات التكليف فى عصر الوزراء الأغوات .. وردها لملك مصر الاتوقراطى : إننى ما توليت الوزارة إلا بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف، مما يوجب على والبلاد داخلة فى نظام نيابى احترام ارادة الأمة وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها.

ومضى سعد القادم على اعناق الجماهير يضمن «بروجرام» وزارته مبادىء جديدة تقيلة الوطء على مسامع احمد فؤاد: التمسك بالروح الدستورية في جميع المصالح ، وتعويد الكل احترام الدستور والخضوع لأحكامه .

ومضى سعد المعجون من تراب مصر وماء نيلها ، يطعم وزارته بوزراء من صميم الشعب ، ولدوا وعاشوا وليس على رؤوسهم ريشة سوى ريشة الجهاد الوطنى ، وزير المواصلات مصطفى النحاس ابن تاجر الاخشاب في سمنود ، ومحمد نجيب الغرابلي افندى المحامي في طنطا ، ومرقس حنا المحامي في أسبوط، واحمد ماهر افندى وعلى الشمسى افندى .

ولك ان تتصور شعور افندينا المعظم سليل الارستقراطية التركية المتغطرسة وهو يتعامل مع وزراء لا يعرفون الاسموكن والردنجوت، وليس في بيوتهم عبيد ولا محظيات ولا جوار .. ورئيسهم نفسه فلاح ابن فلاح واخوته في إبيانة يحملون أسماء شلبي والشناوي وستهم وفرحانة!

● هل كنت تتصور أن تسكت أوكار الارستقراطية عن هذا التغير الاجتماعي الهائل الذي هدث باسم الديمقراطية .. وباسم الدستور .. وباسم الحياة النيابية ..!!

●● وهل يمكن لمن تربى فى احضان الاستبداد والطغيان والحكم المطلق أن يسكت عن هذا الفلاح وهو يدق باب قصرة قائلا: عفوا يا مولانا .. أن تصرفك هذا غير شرعى .. لأن الدستور لا يعطيك حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ المعينين .. والدستور لا يعطيك حق تعيين كبار موظفى القصر دون موافقة الحكومة .. ولا .. ولا ..

●● الله اكبر ..

سلطة الشعب تكبر وتنمو وتتسع لتصل إلى عقر عابدين .. وتسلب صاحبه حقوقا كانت له ولاجداده اشبه بالثوابت والمسلمات غير القابلة للنقاش ..!

- ●● ولكن .. هكذا قال الدستور .. وإذا تكلم الدستور .. فعلى الجميع أن يصمتوا ، فهل يصمت احمد فؤاد الاتوقراطي بطبعه ، المستبد بالوراثة ، الذي لم يتعود سوى سماع عبارات السمع والطاعة من أفواه العبيد .. وهل تلومه إذا امتلات نفسه حقدا على هذا الدستور يوم ولد .. ويوم صدر .. ويوم أصبح حدا فاصلا بين سلطاته وسلطات الأمة ..!
- ●● وهل يسكت كبار ملاك الاراضى الذين وصفوا انفسهم بأصحاب المصالح الحقيقية، وظنوا انهم الورثة الطبيعيون لطبقة الشركس المنقرضين، لقد أسقطهم الشعب في الانتخابات ولم يمنحهم ثقته، وأسقط هيبتهم في مراكز نفوذهم التقليدي في الريف ..! فتعجبوا من أمر هؤلاء الفلاحين الذين يعملون في الوسايا والتفاتيش والابعديات والشفالك .. ما إن أتيح لهم حق الانتخاب حتى تخلوا عن سادتهم وانتخبوا مرشحي الوقد ..! فكيف يمكن .. بعد ذلك .. ترويض هؤلاء الفلاحين وقد انحازوا إلى

معسكر سعد واصبح لهم وزراء ونواب وشيوخ ..! ومن المسئول عن هذا التغير الهائل سوى الدستور والبرلمان والحياة النيابية ..! وهل نلوم هؤلاء الجبابرة إذا امتلات نفوسهم حقدا على الدستور والبرلمان والوزارة الشعبية .. وسعد والوفد ..!! والسبون ، وقد امتلات رؤوسهم غرورا واستعلاء على الشعب والمنور أو ود امتلات سوف تحملهم من أبراجهم العلجية إلى المقاعد المخملية في البرلمان .. فما بال الشعب خذلهم .. ولقنهم درسا في السياسة .. وعلمهم أن التمثيل الشعبي يختلف عن التمثيل التقافي ، وأن الزعامة الشعبية لها أربابها ورجالها الذين يحسون بنبض الجماهير .. فهل نلوم هؤلاء أيضا إذا هم نقموا على الدستور والبرلمان الذي أزدحم «بالجهلة» وخلا من العباقرة «الملهمين»..!!

وتكونت من كل هؤلاء الشراذم جبهة قوية متحدة .. تغرق بينهم المصالح المتباينة ، ويجمع بينهم الحقد على الدستور والنقمة على الوفد ، والتحامل على الحياة النيابية ، والتربص بالسلطة الشعبية .. والتآمر على وزارة الشعب الأولى .. واستجمعت هذه القوى الشرسة اسلحتها يساندها الاحتلال الانجليزى .. فضربت فضربتها .. واطلحت بكل المكاسب التي حصل عليها الشعب .. والتدخل وبدأ عصر التزوير العلني .. والتزييف الفاضح .. والتدخل السافر لتحطيم إرادة الشعب . وكان سعد يرى هذه المهازل ويتذكر حكومة الشعب فيقول متحسرا : عيبنا الإكبر في تلك الوزارة اننا أخذناها جدا .. وصدقنا اننا مستقلون ..!!

عسزب المسرش



مصر في حياتها النيابية حياة اقصر البرلمانات عمراً في العالم، حيث لم يستفرق عمره سوى تسع ساعات صدر بعدها مرسوم حله قبل أن يتبدد في الفضاء العريض صدى خطاب العرش الأي

القاه رئيس الوزراء احمد زيور باشا امام سيده ومولاه احمد فؤاد .. لقد فعلها الملك تاديبا وتهذيبا وانتقاما من الشعب الذي افسد الخطط الملكية التي عكف فؤاد على تدبيرها في الظلام . وكانت تهدف إلى هدم الوفد وإقصاء سعد زغلول عن زعامة الشعب ، وسلب الحقوق الشعبية التي تضمنها الدستور ، وإخماد صوت الشعب الذي هتف تحت شرفة قصر عابدين : سعد أو الثورة ! لمجرد أن الملك تجرا على تعيين حسن نشات وكيلا للديوان الملكي دون إذن من الحكومة ..!

وكانت استقالة وزارة سعد زغلول فرصة ذهبية لتدبير هذه المؤامرة واسعة النطاق لضرب الحياة النيابية في الصميم، ونسف ميدا السيادة الشعبية والعودة إلى حكم الصفوة المفروضة على الشعب دون سند أو مساندة من الشعب ، وشياركت في هذه المؤامرة كل القوى التي أضيرت في الانتخابات ، فالأحرار الدستوريون الذين صاغوا الدستور وطبخوه على نار هادئة انقلبوا عليه وأبدوا استعدادهم لمرمطته انتقاما من الشعب الذي خذلهم في الانتخابات ، وتناسوا خصومتهم التقليدية مع الملك فؤاد مادامت المصالحة سوف تدفع بهم إلى كراسي الحكم ولو عنوة .. أو على جثة الدستور الذي وصفوه بانه «فضفاض» . ومع ذلك ، فإن الملك فؤاد .. السياسي المحنك .. لم يسلم ذقته لخصوم الأمس ، وراى أن يعطيهم قضمة صغيرة من الكعكة ، أما الهبرة الكبرى فتكون من نصيب حزب جديد يقوم بتاليفه اذناب القصر ومن يلوذ بهم من الوصوليين وطلاب المنافع واصحاب الحاجات ، عسى أن ينجح هذا الحزب الملكي في سحب البساط من تحت اقدام الوفد ويقتنص منه الاغلبية الشعبية في الانتخابات . وفى يوم ١٠ يناير ١٩٢٥ وفى حفل مخملى باذخ اقيم فى فندق سميراميس اعلن عن ميلاد (حزب الاتحاد) وشهد الاحتفال نجوم الارستقراطية المصرية ، قديمها وحديثها ، تحيط بهم شرزمة من محترفى السياسة ، وتتبعهم زمرة من كبار الضباط القدامى ، وتلحق بهم عصبة من الانتهازيين الباحثين عن اللقمة الدسمة فوق اى مائدة .. وبعض الخارجين على الوفد .

●● هكذا ولد حزب الملك ..

وانفض الحفل .. فانفض الحزب .. ولم يسمع له صوت في ارجاء مصر الصابرة الصامدة التي كانت ترقب ما يدبر لها وهي تكفلم غيظها وتتحين لحفلة الانتقام كي تلقن هؤلاء الاوغاد درسافي احترام ارادة الشعب .

وكان تشكيل حزب الملك انتهاكا صريحا لاحكام الدستور، وخرقا للتقاليد النيابية التي تجعل الملك فوق الاحزاب، وتناى به عن المعارك الانتخابية حتى لا يكون فشله فيها استقتاء شعبيا يحسب عليه، وعلى هذه النقطة يعلق الرافعي المؤرخ قائلا: لم يكن تاليف حزب «الاتحاد» على قاعدة انه حزب الولاء للعرش من الحكمة السياسية، ولا من الاخلاص للبلاد والعرش في شيء، المحكمة السياسية، ولا من الاخلاص للبلاد والعرش في شيء، كلها، لا أن يكون له حزب خاص لان هذا معناه التشكك في ولاء الاحزاب الأخرى للعرش، ومعناه ايضا أن الدعاية لهذا الحزب إذا لم تنجح – وهي لم تنجح – ولم تنضم له اغلبية الامة، كان ذلك دليلا على أن اغلبية الامة مشكوك في ولائها للعرش مما يعد كشفا للعرش وإعلاما بانه لم يكتسب محبة الشعب..

ويعلل الرافعي دوافع انشاء هذا الحزب في تصور اصحابه بان الشعب يجب أن يسيره الحاكم كما يشاء ويهوى ، وأن تكون السراى هي مرجع الحكم ومصدره ، أما الشعب سفى تصورهم للا يصبح أن تترك له إرادة في ولاية الحكم أو توجيهه ، بل يجب أن يحكم بواسطة حكومة تفرض عليه فرضا ، دون أن يكون له رأى في قيام الوزارات أو سقوطها ، وبعبارة أخرى ، لا محل لما يسمونه الدستور ، وإذا كان لابد من نظام دستورى فليكن نظاما صورد! ، أو كان لابد من أحزاب فليكن اهمها وسيدها الحزب الذي

تنشئه السراى او يخضع لارادتها وتحركه كيف تشاء ، وهذا الضرب من الحكم هو من أنواع الحكم المطلق ، وأساسه إهدار حقوق الشعب ، والرجوع به إلى نطاق الذل والعبودية ، وهو نظام يمتنع معه كل تقدم سياسى او أخلاقي في البلاد .

هذا هو حزب القصر الذى ولد في الظلام ليكون اداة القصر إلى الحكم .. ومعه بدات الأحزاب السياسية تستنفر انصارها وتحشد اتباعها استعدادا لليوم المنتظر .. اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات .. ويقول فيه الشعب كلمته الفاصلة .. وفي ذلك اليوم قال الشعب كلمته على رؤوس اعدائه .

وفدية .. سعدية .. زغلولية

كان

حل مجلس النواب في ٢٣ مارس ١٩٢٥ ، وهو لا يزال في المهد ، اشبه بمهزلة تثير الدهشة والسخط والاشمئزاز ، وكان هذا التصرف الشاد هو بداية الطوعة الشاد على المناطقة المناطق

الطريق الموعر الذي اختطه الملك فؤاد المستبد الطاغية ، وتوغل فيه ابنه فاروق المستهتر الذي بلغ العبث بالدستور ، والاستهانة بالارادة الشعبية في عهده مبلغا عظيما .. وانتهى كل ذلك بتصدع النظام النيابي .. وزعزعة إيمان الأمة بجدوى النصوص الصريحة القائلة بأن الأمة مصدر السلطات .. وانهيار النظام الملكي كله .

وعندما تبحث عن مبرر معقول لحل مجلس النواب ، الذي انتخبه الشعب ، بعد تسع ساعات من انعقاده ـ فلن تجد سوى مبرر واحد هو الحرص على استبعاد سعد زغلول الذي آلت إليه مقاليد الزعامة الشعبية ، وبات ـ ومعه الوفد ـ الناطق الرسمي الوحيد باسم شعب مصر ، في وقت ظن فيه الظانون انهم احق واجدر بهذه الوكالة اعتمادا على ثراء عريض ، أو مجد موروث ، أو علم مكتسب.

. . .

قبل موعد الانتخابات بشهرين جاءوا باسماعيل صدقي ليدير المعركة على هوى الملك، ويضع السدود والمتاريس أمام عودة الوقد إلى البرلمان، وتقبل صدقي التكليف ممتنا، فسوف تتاح الفرصة له للانتقام من سعد الذي طرده من الوقد فانتقل إلى المعسكر الآخر، ومضى في طريقه غير عابيء بقانون أو دستور.. ووضع خطة لتغيير معالم الأرض الانتخابية حتى يتوه فيها أصحابها، وسلك في ذلك مسالك أصبحت فيما بعد تقاليد راسخة في عمليات التزييف والتزوير والتأثير على جهاز الادارة، فقد عمل على تعديل الدوائر الانتخابية بحيث تخدم مصالح المرشحين غير الوفديين، ثم تراجع عن نظام الانتخاب المباشر وعاد إلى نظام الانتخاب احد المرشحين) والقي ثلاثين ناخبا يختارون ممثلا عنهم لانتخاب احد المرشحين) والقي ثلاثين ناخبا يختارون ممثلا عنهم لانتخاب احد المرشحين)

محرم من وعد او وعيد .. وإغراء او تهديد .. حتى اثمرت هذه الخطة وظهرت البشائر بتخلى الشعب عن مرشحى الوفد ، لدرجة أن سعد زغلول نفسه لم ينجح في الانتخابات الثلاثينية (يعنى لم يجد ثلاثين شخصا يجمعون على انتخابه في انتخابات الدرجة الأولى) ..!!

وعندما فرغ اسماعيل صدقى من إعداد المسرح ، وظن ان كل الترتيبات قد تمت على ما يروم ، مضى إلى مولاه الملك قائلا : تمام افندم .. كل شيء عال .. وتحدد يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ لاجراء الانتخابات وتقدمت إليها كل الأحزاب : الوفد والوطني والاحرار الدستوريون .. ومعهم بالطبع حزب القصر (الاتحاد) الذي اطلق عليه سعد زغلول (حزب القش) .

ويبدو أن الهوية الحزبية للمرشحين لم تكن واضحة للسلطات ، وان كانت واضحة للناخبين الذين اللحوا في إخفاء مشاعرهم عن مرشحيهم الحقيقيين ، انتظارا للحظة التي يقفون فيها أمام صناديق التصويت .. وعندها يكشفون عن انتمائهم الصحيح . ولعل هذه العملية الانتخابية التي تمت في يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ كانت من اشد الاحداث غموضا .. وإثارة ، بل كانت « أغمض » انتخابات عرفتها مصر كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر نتيجتها إلا بعد عشرة ايام من اجرائها ، وقضي القصر والحكومة ودار المندوب السامي طوال هذه الفترة وهم حيارى : كم حصل الوفد ..؟ وكم حصل الأخرون ؟ وتسرعت الحكومة في صبيحة يوم اجتماع المجلس الجديد واعلنت ان الأحزاب غير الوفدية حصلت على اغلبية تسمح باستمرار الحكومة ، وبالفعل اصدر الملك فؤاد مرسوما باستمرار حكومة زيور، والقى زيور خطاب العرش امام الملك، وبعد انصراف الملك أجريت مراسم انتخابات رئيس مجلس النواب والوكيلين، وهنا حدثت المفاجأة التي كان لها وقع الصاعقة: حصل سعد زغلول على ١٢٣ صنوتا مقابل ٨٥ صوتا حصل عليها عبدالخالق ثروت مرشيح الأحرار الدستوريين، وفاز بمنصب الوكيلين، النائبان الوقديان : على الشمسى وويصا واصف ..!! وتبين ان المجلس يضم اغلبية وفدية سعدية زغلولية ..!!

واكتشف الملك انه امام مجلس نواب وفدى ، وان كل الحيل

التى ابتدعها لم تقلح فى إبعاد الوفد عن الشعب ، وان ذكاء شعب مصر اكثر فاعلية من خبث صدقى ، وأحس خصوم الوفد بان الأرض تميد تحت اقدامهم ، وإن ما حسبوه تحطيما لقوة الوفد ، انقلب فأضحى إثباتا لهذه القوة ، ويصف الدكتور هيكل هذه اللحظة التاريخية بقوله : لقد وجم أنصار الحكومة وجعلوا بضربون اخماسهم فى أسداسهم ويتساءلون : ما عسى أن يتمخض عنه الموقف بعد ..؟؟

ولم يضيع زيور باشا وقته في التفكير .. وإنما عكف سحابة النهار .. وهي المسافة الممتدة بين انتخابات الصباح واجتماع المجلس في المساء .. على إعداد مرسوم حل المجلس ، وذهب به إلى الملك فؤاد فوقعه على الفور ، وعاد زيور إلى النواب المجتمعين ، وتلا عليهم مرسوم حل المجلس وكانه يقول لهم : نحن لا نريد الوقد ولا نريد سعدا .. ولا نريد الدستور .. ولا نريد البرلمان .. ولا نعترف بشيء اسمه إرادة الشعب .

لطمسة طوكيسة

کان

احمد فؤاد سادس أبناء الخديو اسماعيل الثمانية ، وعندما طرد أبوه من مصر في عام ١٨٧٩ ، كان هو لا يزال صبيا تخطى العاشرة فكتب عليه أن يقضى صباه وصدر شبابه منفياً في العواصم

الأوروبية فعمل ضابطا في الجيش الايطالي ولقى العطف من كبار القادة الذين عاملوه على أنه (عزيز قوم ذل) . وارتبط فؤاد بالحياة الايطالية شكلا وروحا ، وظلت المؤثرات الإيطالية واضحة في حياته حتى بعد أن صار ملكا ، فكان للايطاليين وجود كبير في القصر وفي المشروعات الكبرى ، وورث فاروق عن أبيه حب الطليان ، فكان منهم معظم العاملين في القصر : الحلاق والطباخ الطليان ، فكان منهم معظم العاملين في القصر : الحلاق والطباخ والكهربائي والجنايني .. حتى منسق السهرات الخاصة انطون بوللي .

واستنكف السلطان العثماني أن يعمل أحد رعاياه ضابطا في الجيش الايطالي فاستدعى الأمير أحمد فؤاد إلى الآستانة والحقه بمعيته ثم أوفده ملحقا عسكريا في فيينا ، إلى أن مات أخوه الخديو توفيق سنة ١٨٩٧ وخلفه أبنه عباس حلمي الثاني فاستدعى عمه أحمد فؤاد من المنفى وعينه رئيسا للحرس الخديوى ، وعاد فؤاد إلى مصر ليبدأ مرحلة الصعلكة والفساد في حياته التي قاربت السبعين . وكان المعروف عنه في هذه الفترة المبكرة – أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل المبكرة – أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل وصالات القمار .. يشرب ولا يدفع .. ويخسر ثم يستدين .. ولا يتحرج من أن يمد يده إلى الجرسونات طالبا قروضا غير مردودة لكي يواصل اللعب .. وهناك كثير من أثرياء مصر يفخرون – صدقا أو كذبا – بأن الأمير فؤاد مدين لآبائهم بخمسة جنيهات اخذها على مائدة القمار ..

وتزوج فؤاد إحدى اميرات الاسرة العلوية ، وهي الاميرة

شويكار فانجب منها فتاة وحيدة هي الأميرة فوقية ، وكان فؤاد دائم الإلحاح على زوجته الثرية لتعده بالدعم اللازم للمجون، فكانت تأبى حينا ، وتذعن أحيانا ، وذات يوم رفضت الأميرة شويكار تلبية طلباته فاستشاط غضبا .. ورفع يده وهوى بها على وجه زوجته في لطمة دوى صداها في أنحاء البلاد حتى بلغ مسامع أخيها الأمير سيف الدين ، وكان شابا عصبيا حاد المزاج لا يحسن التقاهم باللسان ، فما كان منه إلا أن حشا مسدسه بالرصاص وانطلق كالثور الهائج بين البارات والكباريهات بحثا عن زوج أخته ليغسل العار الذي لحقه من اللطمة الملوكية ، حتى عثر عليه في النادي الخديوي ـ نادي محمد على فيما بعد ـ ودارت بين الأميرين مشادة ساخنة - باللغة التركية، طبعا انتهت بأن أخرج الأمير سيف الدين الطبنجة واطلق منها رصاصة استقرت في حنجرة الأمير فؤاد .. وفشل الأطباء في استخراجها فبقيت حيث هي ، وبقيت مؤثراتها على حباله الصوتية .. فكانت تصدر عنه اصوات اشبه بالنباح مما يسبب الارتباك لسامعيه .. وقع هذا الحادث يوم ٧ مايو ١٨٩٨ ، وبعدها قدم الأمير المعتدى إلى المحاكمة ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ثم خفف إلى خمس .. واستكبر بعض الامراء الاقوياء ان يعيش احدهم في السجن بين اللصوص والنشالين وقطاع الطرق، فتدخلوا لدى حاكم مصر الفعلى ـ اللورد كرومر ـ واستعانوا بتقرير طبى كتبه احد اطباء الأمراض العصبية ، وافتى فيه بان الأمير لا يتمتع بكامل قواه العقلية ، واقتنع كرومر بهذه الفتوى .. واستطاع أن يقنع بها حاكم مصر الشرعي ـ الخديو عباس حلمي ـ فاصدر مرسوما بالإفراج عن سيف الدين على أن يقضى بقية حياته تحت العلاج في إحدى المصحات النفسية بانجلترا .. ومرت السنون والشاب سجين المصحة العقلية حتى ودع الشباب والكهولة واشرف على الشيخوخة دون أن يتمتع بالضياع الواسعة والثروة الطائلة والنعيم الرغد الذي خلفه في مصر.

وتطورت الأمور في مصر على المستويين العام والخاص، فطلق الأمير احمد فؤاد زوجته شويكار انتقاما من اخيها المتهور، ثم اصبح سلطانا على مصر بعد وفاة أخيه حسين كامل واعتذر ابنه كمال الدين عن ولاية العرش .. وجلس فؤاد على الأريكة السلطانية فواتته الفرصة لتعويض أيام الضنك والصعلكة التي قضاها في البارات والحانات متسولا ومقترضا .. وفكر في الزواج الثاني فوقع بصره على الفتاة الجميلة _نازلي _كريمة عبدالرحيم باشا صبرى مدير المنوفية السابق ، وحفيدة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وكانت الفتاة على علاقة عاطفية بشاب يمت إليها بصلة القربى ويعتزمان الزواج عندما شاءت إرادة عظمة السلطان أن ينفرد هو بالفتاة دون خطيبها ، واتخذت أجراءات الزفاف بسرعة بالغة . وفي ليلة الزفاف هربت نازلي من قصر أبيها ولجات إلى بيت خطيبها ، واخذ العاشقان يتنقلان من بيت إلى بيت هربا من جحافل السلطان التي جدت في البحث عنهما . وأخيرا استسلم الشاب واعاد خطيبته ليلا إلى بيت ابيها لتزف في اليوم التالي - عنوة واقتدارا - إلى عظمة السلطان احمد فؤاد . وشاعت انباء الحادثة في ارجاء مصر ، وسجلها بيرم التونسي في قصيدة مشهورة تدخل تحت باب الادب الفاضح أو الجارح - أو الهابط .. ودفع بيرم ثمن تطاوله نفيا وتشريدا .

نزاهسية النمساس



اختيار شوكت بك ، وكيل الأمير نوجوان ، على المحامين الثلاثة : مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، جعفر فخرى ، لرفع الدعوى لإلغاء الحَجُر المفروض على الأمير أحمد سيف الدين

وتقرير نفقة سنوية له تتناسب مع ثروته الهائلة ومكانته العالية ، وحرر الوكيل مع المحامين الثلاثة عقدا بالاتعاب وطريقة دفعها ، وبدا المحامون في ٢ فبراير ١٩٢٧ الاجراءات القضائية ، وسارت الدعوى سيرها الطبيعي أمام المحاكم .

ولكن القضية لم تكن كغيرها من الأف القضايا التي تنظرها المحاكم، فبطل القضية هو الرجل الذي حاول قتل الأمير أحمد فؤاد واطلق عليه رصاصة استقرت في حلقه، وسببت له عاهة مستديمة جعلته عاجزا عن توضيح مخارج الالفاظ فيصدر عنه فحيح اشبه بالنباح.

لقد اصبح فؤاد ملكا على مصر ، وراسا لعائلة محمد على ، فانيء له أن يصغح عن الرجل الذي حاول قتله وتسبب له في كل هذه الأوجاع ، وهل كان له أن يتغافل عن هؤلاء المحامين ويغفر لهم جراتهم عندما قبلوا الوكالة عن الرجل الذي حاول قتل الملك قبل ثلاثين عاما .. لم يكن فؤاد بالرجل الديمقراطي الذي يقدر معنى الواجب الانساني الذي يفرض على المحامي الوقوف إلى جانب موكله ليستخلص له حقه الضائع .. بل كان يرى في القيام بهذا الواجب مساسا بذاته المصون .. ومن ثم بَيْتُ النية على الانتقام .

واخذت الأحداث السياسية الكبرى تختلط بالأمور الشخصية التافهة حتى ليصعب على الناقد الفصل بينهما ، ففى ذلك الوقت كان الائتلاف قائما بين الحزبين الكبيرين : الوقد صاحب الأغلبية الارستقراطية ، كان الائتلاف وحسن التفاهم صيغة فرضتها الضرورة بعد الانتخابات العامة التى اجريت في ٢٥ مايو ١٩٢٦ وفاز فيها الوقد ـ للمرة الثالثة ـ باغلبية ساحقة ، ولكن بات مفهوما أن

الوفد لن يسمح له لتولى سلطاته الدستورية كما تقضى التقاليد النيابية بتسليم مقاليد الحكم إلى صاحب الاغلبية ..

فعندما ظهرت نتائج الانتخابات تحركت بارجتان بريطانيتان نحو ميناء الاسكندرية إشارة إلى إصرار بريطانيا على منع سعد زغلول من العودة إلى كرسى الوزارة حتى لو كان شعب مصر يريد ذلك، وتقبل الملك فؤاد إشارة الاسطول البريطاني سعيدا مسرورا .. فقد كان ابغض ما يتصوره عودة سعد ـ أو عودة الشعب - إلى المشاركة في شئون الحكم. وللخروج من هذه الورطة ، ولكى لا تتكرر مهزلة حل مجلس النواب مرة ثالثة ، تم الاتفاق على أن يتولى عدلى يكن رئاسة الوزارة ، ويتولى سعد زغلول رئاسة مجلس النواب . وبعد اقل من عام استقال عدلي وخلفه عبدالخالق ثروت . وفي عهد وزارته انتقل سعد زغلول إلى جوار ربه ، وتصور الأحرار الدستوريون أن موت سعد قد أزال من طريقهم خصما عنيدا، وتوقعوا انفضاض الجماهير من حول الوفد بعد غياب زعيمه الأكبر، ولكن الشعب التف حول مصطفى النحاس بنفس القوة التي التف بها حول سعد ، وبويع النحاس خليفة وزعيما ثم انتخب بالاجماع رئيسا لمجلس النواب فاجتمعت له زعامة الامة ورئاسة المجلس النيابي، ثم دخل ثروت في مفاوضات يائسة مع الحكومة البريطانية لحل المسائل المعلقة بتصريح ٢٨ فبراير ، فلما فشلت المفاوضات استقال ثروت فعهد الملك إلى النحاس بتشكيل أولى وزاراته في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، فلما جلس النحاس على كرسى الوزارة راى أن التقاليد القضائية تفرض عليه التنحى عن نظر القضايا التي كان موكلا فيها ومن بينها قضية سيف الدين ، وكتب النحاس خطابا إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان يخطره فيه بتنحيه عن الوكالة ، أما ويصا واصف الذى خلف النحاس في رئاسة مجلس النواب فقد عهد بمهمته في القضية إلى المحامي محمود بك بسيوني.

ووجد الأحرار الدستوريون أن سياسة الائتلاف مع الوقد لم تحقق لهم أغراضهم فبدأوا يعملون بإيعاز من القصر والانجليز على فض الائتلاف، والانسحاب من وزارة النحاس واحدا بعد الآخر .. وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من مصطفى النحاس عن طريق تلويث سمعته وتعريض نزاهته المعروفة للشكوك ..

وبدات المؤامرة الدنيئة بسرقة عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة والوكيل .. ومحاولة إثارة الاقاويل حول فداحة الاتعاب التي تضمنها العقد .. واخذت المؤامرة طريقها إلى العلنية على وجه الصحف المعادية للوفد ، وفي شكل حملة تجريح لم يسبق لها مثيل ضد النحاس وهو لايزال على رأس الوزارة . ففي يوم ٢٤ يونية ١٩٢٨ خرجت صحيفة «السياسة» تحمل العناوين الآتية : مصطفى النحاس وويصا واصف وجعفر فخرى ينتهزون فرصة ضعف الأمير سيف الدين والأميرة أمه ويسعون كما يسعى أحط الأنذال لابتزاز أموال هذه الاسرة ابتزازا ... وقالت «الأخبار» الماحبها أمين الرافعي .. «الا إنه شرف النعال ، وإنها لكرامة الاوحال ، وإنها لأمانة المحتال ، وإنها لصيانة دستور الدجال .. الا تخشى أن يتلطف معك صاحب الجلالة ويسالك أين استقالتك ؟ فيماذا تجيب أيها النتن القنر ..!» .

وصدقت نبوءة الصحيفة وفي اليوم التالي انكشفت ابعاد المؤامرة ، فاصدر الملك فؤاد مرسوما بإقالة النحاس زعيم الأغلبية . وهكذا دبر ونفذ اشد الانقلابات الدستورية إسفافا ، واقسدها ، اسلوبا .. واحَطها تعبيرا .. واوى مصطفى النحاس إلى الفلل ينتظر عدالة السماء لتقضى بينه وبين خصومه الإلداء .. حتى برّاه الله مما قالوا .

اليسد المديديسة



إقالة أول وزارة للزعيم مصطفى النحاس في ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، عن مؤامرة محبوكة شارك في تدبيرها اصحاب القصرين : عابدين والدوبارة ، بالإضافة إلى حـزب الأحرار الـدستوريين الـذي كـان ع المقد في منادة النجاس .

مؤتلفا مع الوفد في وزارة النحاس.

لم يكن هدف المؤامرة _ فقط الاطاحة بوزارة النحاس، وتلويث سمعة الرجل الثائر الذي عمل قاضيا ومحاميا ووزيرا فكانت نزاهته ابرز صفاته ، وإنما كان الهدف اعمق ، وهو الانقلاب على الدستور ، وتصفية البرلمان ، ووضع البلاد تحت مظلة حكومة استبدادية ليس لها سند سوى تأييد القصر والانجليز ، فاطلقت على نفسها اسم «اليد الحديدية» دلالة على انتهاجها العنف والقمع وكبت الحريات وتكسير فوانيس الديمقراطية . تلك كانت وزارة محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين الذي كان وزيرا في وزارة النحاس ثم استقال بايعاز من الملك حتى يترنج الائتلاف ، ويوجد مبرر امام الملك لاقالة الوزارة بحجة تصدع الائتلاف . وتلاقت إرادة المتامرين الثلاثة : الأحرار والانجليز والملك على تصفية الائتلاف . بعد أن فشل كل طرف في استثماره لمصلحته الخاصة .

اما الأحرار الدستوريون فقد ارادوا من الائتلاف أن يهيىء لهم فرصة الاستيلاء على تراث الوفد بعد رحيل زعيمه الاكبر سعد زغلول . وكان ظنهم أن شخصية مصطفى النحاس لن تسد الفراغ الهاثل الذى تركه سعد . ولكن النحاس خيب قالهم .. وكشف عن شخصية عنيدة صلبة يصعب اكلها ، ومن ثم تبخرت آمال الاحرار في تعويض ضعفهم الشعبي عن طريق شعبية الوفد ، فاتجهوا إلى فض الشركة حتى ينفردوا بالحكم ولو على جثة الدستور الذى

ينتسبون إليه اسما وتاريخا .. ولكنه انقضوا عليه طمعا في السلطة

أما الانجليز فقد وقعوا في نفس الشرك الذي وقع فيه الاحرار بالنسبة لشخصية النحاس، وظنوا أنه سيكون اقل صلابة من سعد، واكثر استعدادا منه نقبول العروض البريطانية لمقد معاهدة تحدد علاقة مصر بانجلترا، ولكن النحاس لم يكن اقل صلابة من سعد. ولم يكن لديه ادني استعداد للتهاون في حقوق مصر القومية، وتعمد لويد جورج ـ المندوب السامي ـ أن يقدم للنحاس نفس العروض التي سبق أن رفضها النحاس عندما عرضها عليه عبدالخالق ثروت في الوزارة السابقة. وكان معنى ذلك الاطاحة بحكومة النحاس الائتلافية، وتشكيل وزارة اقلية تكون اكثر لمونة.

واما الملك فقد قبل صيغة الائتلاف بين الوفد والاحرار لأن سعد زغلول ارتضاها .. أما وقد مضى سعد إلى جوار ربه .. فلا محل لبقاء الائتلاف ، ولا معنى لبقاء النحاس شوكة فى حلق الملك مثل الرصاصة التى اطلقها عليه سيف الدين .. ومن ثم تولدت الرغبة فى العدول عن الحكم النيابي والعودة إلى الحكم المطلق عن طريق وزارة (اليد الحديدية) التى استفتحت عهدها بتعطيل البرلمان لمدة شهر ، قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد البرلمان لمدة شهر ، قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد بأن الشعب المصرى لا يصلح للحياة البرلمانية ولا يستحق بأن الشعب المصرى لا يصلح للحياة البرلمانية ولا يستحق الدستور ، وأن الاغلبية تمارس الاستبداد ، من هنا ظهر تعبير (طغيان الاغلبية) الذي ورد كثيرا على لسان الدكتور هيكل باشا .. (طغيان الاغلبية الشهر استصدرت الوزارة امرا ملكيا بحل مجلسي وقبل نهاية الشهر استصدرت الوزارة امرا ملكيا بحل مجلسي العواب والشيوخ لمدة ثلاث سنوات حتى تتهيا للوزارة فرصة العمل في هدوء !!

وهكذا تمت وقائع الانقلاب الدستورى الثالث خلال خمس سنوات هي عمر الحياة الدستورية المصرية ، وتم حل البرلمان للمرة الثالثة ولم يتجاوز عمره سنتين وبضعة ايام ، وبدات مرحلة جديدة من مراحل الحكم الاستبدادى بقيادة الملك احمد فؤاد ، وبرعاية المندوب السامي البريطاني ، أما اداة الانقلاب فكانت الاحرار الدستوريين .. وبدا محمد محمود سياسة القمع

والارهاب بتعطيل الصحف اليومية ومنع الاجتماعات السياسية، وفتحت السجون ابوابها لتستقبل احرار الساسة والكتاب والصحفيين ، واستدار الملك لينتقم من مصطفى النحاس ورفيقيه ويصا واصف وجعفر فخرى ، لقبولهم الوكالة عن الأمير سيف الدين . واستحكمت حلقات الانتقام بتقديمهم إلى النيابة ومنها إلى المحاكمة التاديبية في ظل حملة غوغائية شرسة لتلطيخ سمعة مصطفى النحاس ، ووقف مكرم عبيد المحامي مدافعا عن رفيق جهاده مصطفى النحاس .. موجها الكلام إلى القضاة : « عندما بدا للنيابة ، أو أبدى لها ، أن ترفع هذه الدعوى التاديبية وجاءنا نبؤها ، كنت مع صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا واتيح لى أن أتبين أثر ذلك النبأ السيء في نفسه قبل ان اتبينه في نفسي ، فرايته يضحك من خصومه ويهزأ بأساليبهم ، ولولا بريق في عينيه وهزة في صوته دلت على كمين جرحه ، وثورة في نفسه ، لظننت أن شعوره كان مقصورا على عدم المبالاة والازدراء ، ولكن مصطفى النحاس الذي عُبِئت جميع القوات لمحاربته ، وشحد كل سلاح ونبشت كل قادورة إما للنيل من شجاعته او من كرامته ، هذا الرجل ما كان خصومه ليعباوا بمقاتلته إذا لم يكن مقاتلا ، أو يجمعوا جموعهم لمناضلته إذا لم يعرفوا فيه مناضلا ، ولذلك لم يدهشني أن رأيته يستبشر بتلك المعركة النهائية الحاسمة بين حقه وباطلهم ، وأن يعد لها العدة ، لا من صحيفة الاتهام، بل من صحيفة نفسه الطاهرة».

حسادت مسرقه !

تعيين النحاس باشا رئيسالمجلس الوزراء في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، بادر إلى التنازل عن الوكالة في قضية الأمير سيف الدين، وبعث إلى شوكت بك وكيل

فور الأميسرة نوجسوان أم سيف السدين إخطارا بتنحيه عن نظر القضية .. لقد فعل النحاس ما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه مقتضيات الأمانة والشرف ، فلم يكن مقبولا ولا معقولا أن يستمر .. وهو رئيس الوزراء .. في ممارسة مهنة المحاماة ، وتصورَ الرجل الطيب أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ونسى أن الخير قد ينام مطمئناً ، ولكن عيون الشر لا تنام ، وأن أبناء إبليس يتحركون في الظلام يدبرون له المكائد والدسائس، ويبحثون عن كل نقيصة لتلويث سمعة رجل كان كل راسماله الشرف والنزاهة .. ولم يتورعوا في سبيل تحقيق مأربهم عن ارتكاب جرائم تماثل تلك التي نراها في القصص السينمائية .

قبل اسبوع من تعيين النحاس باشا ، وقع بالاسكندرية حادث سرقة تافه في مظهره ، خطير في مغراه وأبعاده ، كان جعفر بك فخرى المحامي وشريك النحاس وويصا وأصف في الوكالة عن سيف الدين يقضى مع أسرته إجازة بالقاهرة ، وترك بيته في حراسة الخدم بعد أن أحكم إغلاق النوافذ ، ولكن في صبيحة ٨ مارس ١٩٢٨ لاحظ بعض الحدم أن إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعيها فأبلغوا مكتب جعفر بك ، فحُف إليهم بعض المحامين العاملين بالمكتب ودخلوا إلى المنزل عبر الناقذة المفتوحة فاكتشفوا انها مكسورة من الداخل ، ثم تفقدوا اثاث البيت فوجدوم سليما من كل عيث فاطمانوا وأقفلوا النافذة وأخطروا جعفر بك تليقونيا بالأمر ، فاطمأن لما علم بأن شيئًا من التحف الثمينة لم يُسرق ، فلما عاد إلى بيته بعد بضعة ايام تبين له بعد البحث الدقيق في غرفة المكتب أن سرقة قد وقعت بالفعل ، وأن السرقة قد اقتصرت على مستندات خاصة تتعلق بقضية سيف الدين إهمها عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة وشوكت بك وكيل الاميرة ، واتهم جعفر بك طباخ البيت بالسرقة فقبض عليه وسيق

إلى النيابة للتحقيق ، وقد صحب معه احد المحامين العاملين فى دائرة الأمير سيف الدين ، مما يقطع بأن الدائرة كانت على علاقة بحادث السرقة وإن لم يكن الطباخ هو السارق الفعلى ، فقد تبين بعد ذلك أن اللص هو كاتب فى مكتب جعفر بك ، خان سيده لحساب المتآمرين الكيار .

وانتهى المفصل الأول من هذه الكوميديا السوداء ، بالافراج عن الطباخ لعدم كفاية الادلة ، وبقيت المستندات المسروقة مخفية في انتظار الوقت المناسب لنشرها في شكل فضيحة تحطمن كرامة المحامين الثلاثة على اساس انهم اتفقوا مع الوكيل على اتعاب باهظة مقابل العمل على رفع الحجر عن الامير امام مجلس البلاط ، وانهم استغلوا نفوذهم السياسي للتأثير على الوكيل .

وجاء الوقت المناسب لتفجير القضية عندما فقد الانجليز الامل في تطويع إرادة مصطفى النحاس، وحمله على قبول عروضهم لعقد اتفاق ينظم العلاقة بين مصر وانجلترا. واضاء الانجليز النور الاخضر للملك فؤاد للتخلص من النحاس ـ زعيم الاغلبية الشعبية ..!! ـ فاوعز بدوره إلى الوزراء التابعين لحزب الأحرار الدستوريين كي يستقيلوا فيتصدع الائتلاف الوزاري ويقال النحاس.

وقبل الاقالة بيومين ، فوجىء الناس بالمستندات المسروقة منشورة في الصحف الموالية للقصر وفي جريدة الأهرام وسط سيل من الشتائم والقانورات الموجهة إلى شخص مصطفى النحاس واتهامه بالنصب والاحتيال والرشوة واستغلال النفوذ ، وإن كان الهدف الحقيقي منها هدم الدستور وتحقير الحياة البرلمانية وإقناع الرأى العام بعدم جدوى النظام النيابي ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية الديمقراطية في مصر . فتحت عنوان «مساكين» قالت صحيفة «السياسة» لسان في مصر . فتحت عنوان «مساكين» قالت المحمد بين بيالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء في الحكم لينصبوا بالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء في الحكم لينصبوا وليسرقوا وليرتشوا وليفعلوا ذلك كله بالوثائق موقعة باسمائهم ، وقعوها في غير خجل ولا حياء .. إلى أن قالت : دعك من انهم لا يقدرون شيئا اسمه الشرف ولا الكرامة ، فليس يطلب إلى الناس

جميعا أن يكونوا ذوى شرف وكرامة ما دام في الناس مجرمون بالقطرة يستحقون أن يتخلص المجتمع منهم تخلصا حاسما » .

وما هو إلا يوم او بعض يوم حتى تكشف الهدف الاعمق من إثارة قضية سيف الدين وتلويث سمعة النحاس وزميلية . فقد عهد الملك إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الاحرار ـ المستقيل من وزارة النحاس ـ بتشكيل الوزارة الجديدة ، فعطل البرلمان لمدة ثلاث سنوات بحجة أن الفساد قد دب فيه فاستحق التعطيل ، وقال في حديث مع مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون ونشرته الاهرام : «أن البرلمان عندما يصير مشوبا بالفساد لا يعود دستوريا ، وهذا هو البرلمان الذي عطلته ، فقد كان زعماء البرلمان الماضي يتاجرون بمناصبهم العالية ..» .

●● فهل صحيح أن النحاس تأجر بمنصبه العالى ..؟؟ . ●● الم يتنازل الرجل عن وكالته في القضية وتنحى عن النظر

فيها فور تعيينه رئيسًا للوزراء ..؟؟

ولكنها الأحقاد السياسية والضغائن الحزبية التي دفعت خصوم النحاس إلى التغاضي عن مسالك الحق .. وارتكاب اساليب الفحش من اجل الاطاحة بالرجل وتلطيخ صورته في عيون الجماهير التي تحبه وتثق بنزاهته وامانته وشجاعته ..

« ويمكرون ويمكر الله .. والله خيس الماكسريان» صدق الله العظيم .

أمير في المنفي

وعشرون عاما قضاها الأمير سيف الدين حبيس السجن والياس والضياع بسبب رصاصة طائشة

اطلقها على زوج اخته الأمير أحمد فؤاد ، منها سنتان عاشهما في أحد السجون المصرية، أما ربع القرن الذي امتص عصارة حياته ، فقد قضاه منفيا في إحدى المصحات العقلية في قرية تقع بالقرب من لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية، وهي فترة كانت كفيلة بتدمير قواه العقلية والجسمانية والنفسية، حتى تحول إلى كائن سقيم. وكانت عملية إبعاد الأمير سيف الدين من سجنه المؤقت في مصر، إلى منفاه المؤبد في بريطانيا عام ١٩٠٠ تحت ستار العلاج ، قد تمت من خلال مؤامرة دنيئة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر ، وشاركت فيها القوى الخفية التي كان يهمها الخلاص من الأمير الثرى الأهوج ، حتى يخلو لها الجو لاستلاب ثروته الطائلة التي قدرت يومئذ بعشرة ملايين جنيه ، ولاتزال أثارها باقية حتى اليوم في تلك العمارات الشامخة بشارع قصر العيني ، وفي العمارات المتكررة القائمة على ارض خان الخليلي ، ولاتزال ابوابها الحديدية تحمل اسم : سيف الدين . ولقد تم تنفيذ المؤامرة وفق خطوات محسوبة، بدأت باستصدار حكم بتوقيع الحجر عليه حتى يحرم من التصرف في أمواله ، وكانت الخطوة الثانية إبعاده عن مصر نهائيا ، ووضعه في مكان سحيق يقضيي فيه بقية عمره، وعلمت أمه الأميرة نوجوان _ وكانت تقيم بصفة دائمة في تركيا _ بما يدبر لابنها في الخفاء ، فكتبت الى اللورد كرومر مستنجدة ومحذرة ليقطع على المتآمرين سعيهم ، ووعدها اللورد بما أثلج صدرها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وقع ما خشيته الأم ، وتمكن علية القوم من تنفيذ مخططهم ولم يتحرجوا من ارتكاب التزوير لتنفيذ مسعاهم .. فجاعوا بأحدى أميرات البيت المالك فانتحلت لنفسها صفة أم الأمير وحررت التماسا إلى حكومة الخديو عباس حلمي تطلب فيه نقل ابنها ـ المزعوم ـ من سجنه ليلقى الرعاية والعلاج في مصحة «تايسهرست» في بريطانيا، واستجابت الحكومة لطلب الأم المزيقة ، وتم بالفعل نقل الأمير إلى منفاه السحيق دون ان تدرى امه الحقيقية بما جرى له .

وبدأت الأم المنكوبة نوجوان رحلة البحث عن ابنها الضائع في المدن الأوروبية ، حتى عرفت المكان الذي وضع فيه ، وفي عام ١٩٢٤ طلبت الأم رؤيته فرفضت ادارة المصحة، وقالت لها أنها لا تعرف له أما غير الأم التي طلبت إدخاله المصنحة ، ولجأت الأم إلى أحد كبار المحامين الاتراك اسمه جلال بك عارف ، كان سفيرا سابقا لتركيا في روما، فانتقل الى بريطانيا وقابل رئيس الوزراء رامزي مكدوناك وعرض عليه ماساة الام المحرومة من لقاء ابنها .. وقضية الأمير المسجون رغم انفه .. ولكن إدارة المصحة اظهرت له نص الطلب الأصلى الذي تقدمت به الأم المزيقة لعلاج الأمير ، ويحتوى على أمر صريح منها يحظر على الأمير مقابلة أي انسان .. ! وبالرغم مما ينطوى عليه هذا الطلب من ربية ، فقد التزمت به ادارة المصحة مما يدل على انها كانت متواطئة مع المتأمرين .. ومع ذلك تمكن المحامي من لقاء الأمير سيف الدين عن طريق الرشوة فوجده شيخا دب فيه الضعف والوهن ، وحصل المحامي على تقرير من الحارسين المكلفين بحراسته قالا فيه : كان الأمير عند دخوله المصحة في حالة طبية للغاية ، واستمرت هذه الحالة خمس أو ست سنين ، وكان محبوبا من الجميع وقد بدأ الاضطراب العقلي بعد ذلك من جراء التضبيق عليه ، ولأنه كان محروما من الاختلاط الجنسي ، ولأن حياته كانت متشابهة جملة ، ولانه كانت تعطى له كمية هائلة من الخمر والدخان .. الامر الذي يكشف عن رغبة مبيتة لتدمير الرجل.

وعندما اطلعت الأم البائسة على حالة ابنها جن جنونها، واصرت على تحريره ليقضى ما بقى من عمر فى حضائتها، واستخدمت سلاح الرشوة حتى تمكنت من تهريبه إلى تركيا فى اغسطس ١٩٢٥ وهنك اتاحت له رعاية طبية مكثفة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا عمره الضائع، وأرادت الأم أن تستخلص ثروته التى تكالب عليها النهابون، فأوفدت وكيلها محمد شوكت بك إلى مصر ليرفع قضية أمام المحاكم المصرية يطلب فيها رفع الحجر عن الامير سيف الدين، وتقرير نفقة شهرية من أمواله المجمدة تتناسب مع مكانته الاجتماعية، ووقع اختيار الوكيل على ثلاثة

من مشاهير المحامين ليباشروا القضية ، اما اول هؤلاء المحامين فكان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، وكان الثاني ويصا بك واصف ، وكان الثالث جعفر بك فخرى ، واما عن سبب اختياره لهؤلاء المحامين الثلاثة من دون خلق الله فقد قال : لمعرفتي لأهمية القضية أردت أن انتخب أناسا أصحاب علم غزير وقوة دفاع ، وشبجاعة مدنية ، واصحاب ذمة طاهرة ولهذه الأسباب أنتخبت صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لكونه صاحب هذه الصفات كلها وصاحب الشجاعة المدنية ، صحيح والله .. ما شغتش في عمرى إلا إميل زولا في فرنسا ومصطفى النحاس باشا في مصر .. فهما الاثنان اتهما النيابات في القوة المستبدة بقولهما: اني اتهم .. وده وجه مشابهتهما لبعض ... فترجيت من حضرة رئيس النيابة إذا كان لديه معرفة بالشخص الثالث اللي يماثلهما في الشجاعة المدنية حتى افتخر به بصفتي إنسانا ، وانتخبت ويصا واصف بك لعلمه الغزير وطهارة نمته ، واستخبت جعفر فخرى بك اولا لمعرفته باللغة التركية ، وثانيا لمعرفتي بماضيه الشريف.

ولكن هذا الاختيار كان سببا في ابتلاء المحامين الشرقاء وتعريضهم لابشع انواع الانتقام.

براءة

كان

المنتظر .. وقد ظهرت المستندات المسروقة من بيت المحامى جعفر بك فخرى منشورة في الصحف .. بعد أن تبادر النيابة العامة إلى إعادة التحقيق في

جبريمة السبرقة للتوصيل الى الفاعل بعد أن ظهر جسم الجريمة ، ولكن النيابة سكتت سكوت اهل الكهف ، عندئذ تقدم جعفر بك الى النيابة طالبا التحقيق ، ومرة أخرى لم تتحمس النيابة للبحث عن اللص لانها كانت تعرفه وتعرف ال يى الجبارة التي تقف خلفه ، واكتفت النيابة بسؤال مديرى صحيفتي الأخبار والسياسة عن كيفية حصولهما على الوثائق المسروقة ، فاحتمى كل منهما وراء د سرية المهنة ، فأبلغ جعفر فخرى النائب العام بان الاحتماء وراء سرية المهنة هو تضليل ، الهدف منه إعانة المتهم على الهرب من وجه العدالة ، ومرة ثالثة لم تحرك النيابة ساكنا مما دفع مكرم عبيد المحامي إلى نقد موقف النيابة نقدا لاذعا .. واعتبره تقصيرا معيبا في حق العدالة ، وقال سلخرا : لو أن الأمر كان خاصا بمنشور سياسي لقامت النيابة وقعدت وفتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور ولو لم تكن عناصر الاجرام متوافرة ، أما والجريمة ظاهرة والدليل ملموس فالنيابة لم تتحرك بينما تجهد نفسها في تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد إلى بلد عسى أن تصل إلى دليل أو شبهة إدانة . واختتم مكرم عبيد هذا الشق من دفاعه بهذه العبارة البليفة في قسوتها : حقا إن عدالة النيابة في هذه القضية عدالتان .. وإذا كانت هناك عدالتان فلا عدالة بالمرة ..!

كان هذا موقف النيابة من قضية سرقة الوثائق .. اما موقفها من حملة السباب والقذف في حق الزعيم مصطفى النحاس فقد كان ادهى وامر .. لقد تقدم النحاس باشا ببلاغ الى النيابة ضد الصحف التى وجهت إليه اقذع التهم واشنعها واحطها .. ومع ذلك حفظت النيابة التحقيق بالنسبة للقلافين ، وقدمت النحاس وزميليه إلى المحاكمة التاديبية .. وهم ضحايا القذف

والسب .. !! وكان هذا الموقف من النيابة من اغرب المواقف فى تاريخ القضاء المصرى ، وارتكنت النيابة فى قرار الحفظ الى أن الوقائع المنسوبة للنحاس باشا وزميليه صحيحة ، وأن ما يشكون منه فقط مو التعليق عليها .. وارتكنت أيضا إلى أن الأحكام القضائية تبيح نقد الخصوم السياسيين .

وانبرى مكرم عبيد لتفنيد حجج النيابة فقال إن الطعن في هذه القضية ليس موجها إلى الخصوم السياسيين بوجه عام ، بل إلى اشخاص معينين بالذات هم النحاس وزميلاه ، ولذلك فالإلفاظ الموجهة إليهم تعتبر من قبل الإهانة والسب .. واذا كان النقد مباحا في النظم الديمقراطية إلا أنه يجب أن ينصب على العمل دون غيره .. ثم تساعل : فأين هذا من تعليق الصحف على الوثائق المسروقة .. هذا التعليق لم يتناول العمل ، بل تناول الأشخاص وجاء بعيدا عن الاعتدال والاخلاص اللذين جعل منهما القانون شرطا اساسيا في النقد ، لايمكن أن يكون منه أن ينسب إلى المطعون عليهم أنهم نصابون ومرتشون ومجرمون بالفطرة واحط الانذال .. قذرون .. ونتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم أو الإنذال .. قذرون .. ونتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم أو سياستهم .. ولكنه طعن في الشرف والأمانة باجلى معانيه .. ولو قلنا بأن هذا نقد مباح لفسد الجو الذي نعيش فيه واصبح جو شتائم وسياب !!

ونهض مكرم عبيد لتفنيد تهمة استغلال النفوذ السياسى التى وجهتها النيابة إلى النحاس وزميليه فقال: إن الاتهام لا يحدد كيفية استخدام النفوذ ؟ بل يتهرب من التحديد عمدا بحجة ان هذا التحديد لا يهم الاتهام !! وتساعل مكرم عبيد : ماهذا الهزل في قالب الجد ، هل من المعقول أن توجه إلى متهم تهمة عائمة حائرة لا تستقر على حال ، حتى إذا سد الدفاع بعض الابواب استفتح الاتهام أبوابا أخرى .. وهكذا دواليك إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

ولم يكن مكرم عبيد باشا هو المحامى القدير الوحيد فى هذه القضية المثيرة ، وإنما كان يعمل ضمن فريق من فطاحل المحامين تطوعوا للدفاع عن زعيم الوفد وزميليه هم : محمد نجيب الغرابلى باشا ، وحسن صبرى باشا ، ومحمود بك بسيونى ، وكامل بك صدقى ، وانبرى كل منهم للرد على جانب من جوانب الاتهام ،

وشغلت مذكرات دفاعهم اكثر من الف صفحة كانت في مجموعها شهادة فخار وتمجيد لمصطفى النحاس ، وبيانا لسلوكه البعيد عن مواطن الشبهات .

وفى يوم ٢ فبراير ١٩٢٩ انتهت اجراءات المحاكمة ، واتعقد مجلس تاديب المحامين المنبثق عن محكمة استئناف مصر الأهلية برئاسة حضرة صاحب المعالى حسين درويش باشا وكيل المحكمة ، وبحضور حضرات اصحاب العزة عبدالحكيم عسكر بك ، ومحمود سامى بك ، ومحمد بهى الدين بركات بك المستشارين بالمحكمة ، وعبدالخالق عطية افندى عضو نقابة المحامين واحمد عرض الشاذلي شرف الدين بك رئيس نيابة الاستثناف ، واحمد عوض الشاذلي افندى سكرتير المجلس ، واصدر المجلس حكمه التاريخي ببراءة كل من :

- حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا
 - ويصا واصف افندى رئيس مجلس النواب
 - جعفر فخرى بك المحامى .

واسدل الستار على هذه القضية التي شغلت الرأى العام لكثرة ما استخدم فيها من فنون الدس والتآمر والتلفيق والسب والقذف ، ومع ذلك لم تلفح كل هذه الأساليب الدنيئة في إطفاء نور الحق .. ولم تنل من سمعة النحاس باكثر مما تنال ريح السموم من المعدن الأصيل .. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ، صدق الله العظيم .

في هندق الشعب

كان

مصطفى النحاس من الزعماء القلائل الذين اعتنقوا الديمقراطية فكرا وسلوكا .. لدرجة يصعب معها الفصل بين افكاره وممارسته العملية . فكان يقول مايفعل ، ويفعل مايقول ، وهـو في هـذا

يختلف عن طراز من السياسيين المصريين كانوا يتغنون بالديمقراطية مادامت الديمقراطية تعود عليهم بالمغانم، ويتغزلون في عظمة الشعب بشرط أن يدفع بهم إلى السلطة، ولكنهم سرعان ما يتنكرون للديمقراطية إذا حالت بينهم وبين الحكم، وسرعان مايسبون الشعب أذا حجب ثقته عنهم، ولا يتورعون عن الانضمام إلى صفوف إعدائه وفرض الوصاية عليه بحجة أنه قاصر .. ومضلل .. ولايعرف مصلحته .

كان مفهوم الديمقراطية عند مصطفى النحاس بسيطا لأ تعقيد فيه ولا فذلكة ، إنه يعنى الاحتكام الى الشعب ، واحترام إرادته ، واحترام مبادىء الدستور التى تنظم السلطات العامة ، وتنص على ان الأمة ـ وليس الملك ـ مصدر السلطات ، وكان الخروج على الدستور أو انتهاك احكامه ـ كبيرة الكبائر التى لا تغتفر ولا تقبل التسامح عند مصطفى النحاس ، ولذلك كانت حياة النحاس السياسية سلسلة من المعارك والحروب الشرسة مع اعداء الدستور واذناب القصر ، وانصار الحكم المطلق ، وجميع القوى الرجعية والفاشية التى أرادت أن تجعل من الدستور مجرد ديكور مستورد من بلاد الفرنجة يرضى أحلام المثقفين المفتونين بنظم الحكم الغربية ولكنه ـ في النهاية ـ يعنى استمرار الحكم الخروق عن عصر الإغوات

. . .

من أين اكتسب مصطفى النحاس هذه النزعة المتشددة فى احترام الدستور والقانون والانحياز إلى الكتلة الشعبية العريضة ؟ هل تعود إلى سليقته التي فطرت على عشق الحرية والنقور من الاستبداد ؟ ربما .. هل تعود إلى نشاته القانونية محاميا وقاضيا ؟ ربما .. هل تعود إلى جذوره الاجتماعية الممتدة في الشريحة الوسطى من السبيكة المصرية الخالصة ؟ يجوز ..

على اية حال كان مصطفى النحاس ظاهرة فريدة فى تاريخ مصر بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٧، وشاء حفا مصر الطيب أن يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة فى التسك بحق المصريين فى إدارة شئونهم عن طريق حكومة مسئولة أمام برلمان منتخب، وشاء حفا النحاس العائر أن يعاصر الحلقات الأخيرة من سلالة الاسرة العلوية وهى تدخل مرحلة الاحتضار وتحارب معركة البقاء، وتدافع عن وجودها الاستبدادى فى مواجهة الشعب المصرى وهو يتلمس طريق الخلاص والفكك...

فالملك فؤاد كان ينطوى على بغض دفين للديمقراطية ، ويرث عن آبائه احتقارا خسيسا للشعب المصرى ، وفي خلال السنوات الست الأخيرة من حكمه ، وهي الفترة التي شهدت مولد الحياة النيابية بعد دستور ١٩٢٣ استخدم هذا الاتوقراطي العريق حقه في حل مجلس النواب بكثرة لم يشهدها اطلاقا تاريخ الدساتير .. فقد بلغت مرات الحل اربعا انتهت بإلغاء الدستور نفسه .

أما فاروق - الغلام العنيد الأحمق - فقد ورث عن أبيه كراهة الدستور ومصطفى النحاس، ولذلك قضى النحاس : زعيم الأغلبية الشعبية - ما مجموعه عشر سنوات بعيدا عن حقه الدستورى في الحكم خلال عهد فاروق الذي بلغ ١٦ سنة ، وكانت سنوات الغيبة العشر من نصيب احزاب الأقلية واذناب القصر الذين استخدمهم فاروق في انتهاك الدستور والمشاركة في حكومات لا تحظى بثقة الشعب .

. . .

كان مصطفى النحاس يرى رقاق النضال القديم وقد تقطعت انفلسهم من طول الكفاح ، فيضعفون أمام وهج السلطة الزائف ، ويتساقطون في مستنقع القصر ويتحولون إلى ادوات في يد الملك يلهب بهم ظهر الشعب ، ثم لا يلبث أن يلفظ لفظ النواة .. ويبقى مصطفى النحاس – وحده – في الميدان .. تتناوشه السهام ، فلا يساوم .. ولا يضعف .. ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك .. كان يساوم .. ولا يضعف .. ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك .. كان يقف في خندق الشعب غير عابىء بمجد زائف أو سلطة زائلة .. فالوقوف مع الشعب هو ذروة الفلاح للزعيم الصادق .. وكان مصطفى النحاس زعيما حقيقيا يعرف موقعه جيدا .

انقلابات دستورية



الأول من يناير ١٩٣٠ شكل الزعيم مصطفى النحاس وزارته الثانية بعد انتخابات حرة أجراها المرحوم عدلى يكن باشا ، واسفرت عن فوز الوقد فوزا سلحقا إذ حصل على ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواس .

كانت تلك رابع انتخابات عامة تشهدها البلاد منذ دستور ١٩٢٣ ، وجاءت لتحمل الوفد إلى موقعه الطبيعى في الحكم بعد الانقلاب الثالث في سلسلة الانقلابات الدستورية التي دبرها الملك فؤاد للتخلص من حكم الشعب ، وتعطيل الحياة البرلمانية ، وإسناد الوزارة الى اشخاص لا يتمتعون بثقة الشعب ، ولا يؤمنون بحقه في حكم نفسه ، ويضعون انفسهم في مكان الوصى على الشعب ، القاصر ، في نظرهم ، ويظنون أن مهارتهم وكفاءتهم على الشعب ، القاصر ، في نظرهم ، ويظنون أن مهارتهم وكفاءتهم الذاتية ترجح قوة الشعب .

اماً الانقلاب الأول فقد وقع اثناء حكم وزارة الشعب الأولى برياسة سعد زغلول عام ١٩٧٤، فقد استغل الملك فؤاد حادث مصرع السردار واستقالة الحكومة، فامر بحل مجلس النواب حتى يتهيأ الجو امام احمد زيور للعبث بمقدرات البلاد في غيبة الرقابة البرلمانية، ووقف الزحف الشعبى الذي ظهر جليا في أول برلمان منتخب، فقد كان برلمان ١٩٧٤ أول مظهر نظامي لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم، بل القوة الوحيدة التي لها حق الحكم، الأمر الذي راى فيه المؤرخون تطورا عميقا دل على ان الشعب نما نموا كبيرا، واضحى على الرغم من كل القوى التي حاربته القوة الأولى المرهوبة الجانب.

ولكن .. هل كان من الممكن أن يستمر هذا النمو كي يأخذ مداه ، وتكن .. هل كان من الممكن أن يستمر هذا النمو كي يأخذ مداه ، وتترسخ به سلطة الشبعب ؟ وهل كان من الممكن أن تتواصل قوة الفئات الشعبية مع قوة الزعامة الشامخة التي خرجت من صفوف الفلاحين ممثلة في سعد زغلول ؟ ؟

لقد اجابت الحوادث عن هذا السؤال من خلال اول انقلاب دستورى دبره الملك بايعاز من الانجليز وبالتواطؤ مع كبار ملاك الاراضى الذين حسبوا انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية ثم خذلهم الشعب في الانتخابات.

ووقع الانقلاب الثانى في العام التالى عندما اجرى احمد زيور باشا الانتخابات العامة بعد مؤامرات واحتياطات وتداخلات اشرف على حبكها قطب الدهاء والديكتاتورية اسماعيل صدقي وزير الداخلية ، وكانت كلها تهدف إلى إبعاد الوقد عن قيادة الأمة ، ثم فوجىء مدبرو الانقلاب بنان المجلس الجديد يضم اغبية وقدية انتخبت سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، وتبين أن ذكاء الشعب ودقة تنظيم الوقد يقوقان دهاء صدقى ، ولم يخجل اصحاب الانقلاب الاول من تنفيذ انقلابهم الثاني فاصدر يخجل اصحاب الانقلاب الاول من تنفيذ انقلابهم الثاني فاصدر الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من انعقاده ، واستمرت البلاد تحت حكم وزارة غير شرعية تحكم دون

اما الانقلاب الثالث فقد وقع في صيف ١٩٢٨ بعد ثلاثة شهور فقط من تشكيل النحاس باشا وزارته الأولى .. كان الصراع بين الفئات الشعبية بقيادة الوف والعناصر الارستقراطية بزعامة القصر قد بلغ اشده ، ولم يكن هذا الصراع السياسي - في رأى بعض المحللين التاريخيين - إلا انعكاسا حقيقيا للصراع بين طبقتين على النفوذ :

 طبقة الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة التي تحدث باسمها لطفي السيد في الجريدة منذ أوائل القرن ، وهي التي تعتقد أنها طبقة أصحاب المصالح الحقيقية التي يجب أن يستقر في يدها الحكم لرعاية هذه المصالح .

● البورجوازية المتوسطة والصغيرة التي نمت في ظل ثورة 1919 ، وفي ظل النهضة الاقتصادية التي قامت على يد طلعت حرب وبنك مصر ، وهي الطبقة التي قوامها التجار والشباب المتعلم ومفكرو المدن وموظفو الحكومة وضباط الجيش يؤيدهم الفلاحون والعمال بحكم مصلحتهم في تأييد الوفد ، وكان نضال الوفد من أجل الاستقلال التام والتخلص من الحكم الاجنبي وإصراره على التمسك بحق الانتخاب المباشر ، يتلاقي مع أهداف هذه الطبقة الجماهيرية في الاشتراك في الحكم عن طريق النواب .

...

ونجح التحالف بين القصر وحزب الاعيان (الاحرار

الدستوريين) في الإطاحة بحكومة النحاس بعد حملة تشهير مبتذلة ، اتخذت من قضية الأمير سيف الدين مادة لتلويث سمعة : مصطفى النحاس ، وعهد الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل وزارة استهلت حكمها بحل مجلس النواب حتى تنفرد بالشعب ، واطلق محمد محمود على وزارته اسم « اليد الحديدية » اعلانا عن انتهاجه اسلوب العنف في تأديب الشعب، وسلكت الوزارة في ذلك سلوكا شرسا، فعطلت الصحف الوطنية وحرمت الاجتماعات العامة ، واطلقت الحكم البوليسي ، وانتهكت حرمات البيوت والافراد ، وقتحت أبواب السجون والمعتقلات لتستقبل حشودا من الأحرار والمناضلين الذين لم يخضعوا لحكم الارهاب ، وتحرك حزب الوفد حركة منظمة وشعبية عارمة لمكافحة هذا المد الاستبدادي، ونشطت لجان الوفد في كل المدن والقرى لتحريك همة الجماهير للوقوف في وجه « اليد الحديدية » وتحولت نقابات المحامين في القاهرة والمدن الكبرى إلى بؤرات للاشعاع السياسي ، وامتلات المدارس بلجان الطلبة الوقديين الذين اشعلوا الحمية في نفوس الجماهير ، وانتشرت العناصر الوفدية في صفوف العمال بالقاهرة والاسكندرية ، وأسفر هذا عن النشاط الحزبي الجماهيري عن صحوة شعبية فعالة ، أثبتت لصاحب اليد الحديدية أنه مجرد نعر من ورق.

أكبر رأس في البلاد



تمكث وزارة النحاس الثانية فى الحكم اكثر من خمسة شهور ، وتسعة عشر يوما ، تعرضت خلالها للدسائس من جانب القصر وأعبوانه أعداء الديمقراطية الإلداء الذين لم يؤمنوا بجدوى

البرلمان المنتخب من الشعب ، ولم يؤمنوا قطبحق الشعب في ان يحكم نفسه عن طريق حكومة مسئولة امام البرلمان . وإنما كانوا يؤمنون بحكم ، العباقرة » المستبدين الذين يختارهم القصر فيكون ولاؤهم له وليس للشعب .

وكان النحاس باشا يسعى جاهدا للافادة من دروس الماضى الأليم . ويحاول أن يضع الضمانات الدستورية التي تعالج القصور في دستور ١٩٢٣ بما يحول بين الملك فؤاد ومعاودة العبث بالدستور ، بعد أن أسرف هذا الطاغية في استخدام حقه الدستورى في حل مجلس النواب إسرافا مسفا ، لدرجة أنه أقدم على حل المجلس ثلاث مرات خلال أربع سنوات ما بين ١٩٢٤ -١٩٢٨ ، وكانت المادة ٣٨ من الدستور التي تعطيه حق حل المجلس دون قيد أو شرط، بمثابة سيف مُصْلَت على رقبة الحياة النيابية ، وهذا هو السبب الذي من اجله عارض الوفد وضع الدستور عن طريق (لجنة الاشقياء) المعينة بمرسوم ملكى، وكان من رايه أن يوضع الدستور عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب حتى يضمن حقوق السيادة الشعبية في مقابل حقوق الملك الاتوقراطية التي اصر صاحب العرش على أن يتضمنها مشروع الدستور ، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الامة الى يد الملك ، وقال سعد زغلول يومها انه من الخطر الكبير ان توضع سلطات كبيرة في أيدى الملوك خاصة إذا كانت البلاد تخضيع للنفوذ الأجنبي .

وصدقت نبوءة سعد زغلول ، وتحولت السلطات الممنوحة للملك الى سوط يستخدمه الاحتلال الانجليزى فى إرهاب الأمة ، كلما لاحظ اشتداد قوة الشعب ونضجه السريع ، ورغبته فى ان يكون مصدر السلطات جميعا ، فلما جاء النحاس باشا الى الحكم فى أول يناير ١٩٣٠ وفى جعبته هذه المغامرات الملكية المدمرة ،

اراد ان يضع حدا للعبث بالدستور، فوضع مشروع قانون لمحاكمة الوزراء الذين يُقدمون على قلب الدستور او حذف حكم من احكامه، او تغييره، او تعديله بغير الطريقة التي رسمها الدستور، ولم يكن لمثل هذا المشروع الخطير الذي يقيد الملك، ان يمر من تحت ذقن الاتوقراطي العريق الذي كان يبغض الحكم الدستوري من اعماق قلبه، فعمد الى عرقلة اعمال الوزارة حتى الدستوري من اعماق قلبه، فعمد الى عرقلة اعمال الوزارة حتى يضطرها الى الاستقالة، وادرك النحاس أن المعركة الدستورية بينه وبين الملك يجب أن تنتقل الى الشارع السياسي ليكون الشعب حكما في هذا الصراع الدستوري

ويلاحظ الدكتور عبدالعظيم رمضان في رصده لتطور الحركة الوطنية أن ما قعله النحاس في ١٩٣٠ كان محاولة من الوقد لتَلْقَينَ الملك نفس الدرس الذي لقنه إياه سعد زغلول في ١٥ نوفمبر ١٩٧٤ وهو اليوم الذي صاحت فيه الجماهير في ساحة عابدين صيحتها المشهورة «سعد او الثورة » ففي ١٧ يونية ١٩٣٠ قدم الفحاس باشا الى الملك فؤاد استقالته « الوحيدة » وسجل فيها الأسباب التي دعته الى تقديمها ، وهي : عدم تمكنه مع زملائه من تنفيذ البرنامج الذي قطعوا على انفسهم العهد بتنفيذه ، ولم يلبث أن أتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى فتوجه الى مجلس النواب حيث اعلن استقالته بطريقة مؤثرة، وفصل اسبابها بعدم تمكن الوزارة من ان تتقدم الى البرامان بمشروع محاكمة الوزراء الذي تقضى به المادة ٦٨ من الدستور ، وقد فعلت خطبة النحاس فعلها في نفوس النواب ، ووقف الدكتور احمد ماهر ليطلب من النواب الثقة بالوزارة « حتى تسمم الامة تابيدهم لصاحب الدولة الرئيسي في موقفه المشرف الذي يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية وعن النظام الدستورى للبلاد ، ، وقوبلت كلمة ماهر بتصفيق حاد، وسادت المجلس روح التنديد بالمحاولات التي تقع من جانب القصر لإرغام النحاس على الاستقالة ، وهنا وقف النائب الوادى عياس محمود العقاد وقال قولته الشهيرة ، الا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق اكبر رأس في البلاد من اجل صيانة الدستور وحمايته ».

وفى اليوم التالى احتشدت الجماهير امام بيت الامة وهى تهتف بحياة النحاس والدستور ، بينما كان الوفد المصرى مجتمعا الى ساعة متأخرة من الليل ، وعقدت الهيئات والمنظمات الشعبية اجتماعات لتاييد الوزارة ثم خرجت ، الاهرام ، لتعلن عن اعتزام قيام مظاهرة شعبية ضخمة يوم الجمعة التالى لتطوف بشوارع العاصمة وتذهب الى ساحة عابدين للهتاف بحياة الدستور ومطالبة الملك بعدم قبول استقالة المنحاس .

وأدرك الملك فواد خطورة السبلق بينه وبين الوفد الذي يتسلح بالجماهير، ويحركها لإرغامه على رفض استقالة الوزارة، وأيقن الملك أنه سيواجه موقفا عسيرا شبيها بما حدث أيام سعد.. فانقض في حركة سريعة لإجهاض مخطط الوفد وسارع إلى إصدار أمر ملكي بتكليف اسماعيل صدقي بتشكيل الوزارة في نفس اليوم الذي صدرت فيه « الاهرام » وفي صدر صفحتها الاولى خبر المظاهرة الشعبية ، وبذلك سلب الجماهير ذريعتها للتحرك الى ساحة عابدين واتخذ من التدابير الأمنية والاحتياطات البوليسية ما حال بين الشعب والوصول الى القصر.

وبمجيء اسماعيل صدقى الى الحكم وقع الانقلاب الدستورى الرابع ، وانتقلت البلاد الى عهد بغيض .. ساد فيه الظلام ، وانهدم البرلمان ، والغي الدستور ، واصطبغ الصراع الدستورى بالدم .

البرلمان في الأغلال

تكليف اسماعيل صدقى باشا بتشكيل الوزارة .. عقب استقالة النحاس باشاء نذيرا بدخول البلاد في كان مرحلة البيات الديمقراطي والانهيار الدستوري ، فقد كسان معروفها عن اسماعيىل صندقى لررايتيه بالامة، واستهانته بكل ما يتصل بإرادة الشعب، ويرى ان عبقريته أو كفاءته السياسية تغنى عن النظام النيابي كله ، وكان اختيار الملك فؤاد لهذا المستبد الطاغية دليلا على نية الملك في تاديب الشعب وإذلاله عن طريق اساليب البطش والتنكيل التي برع صدقى في انتهاجها وكان له فيها باع طويل . وشكل صدقي وزارته من عناصر عرفت بعدائها التقليدي للدستور، واحتقارها للارادة الشعبية ، وكرهها الموروث للوقد الممثل الشرعي للأمة ، وجاء بخليط من السياسيين الذين يقتقرون الى السند الشعبي من أمثال على ماهر وحلمي عيسي وتوفيق دوس وحافظ عفيفي . ورغم كون اسماعيل صدقى من مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، إلا أنه في كتاب تشكيل الوزارة تبرأ من اتصاله بهذا الحزب مدعيا انه سيلتزم بالحيدة السياسية المطلقة ، ويعنى ذلك انه انفصل عن حزبه في آخر لحظة ، لا لسبب إلا لكي يؤلف الوزارة . ويعقب الرافعي على هذا التصرف اللاأخلاقي بقوله : ء إن الإنتساب إلى الإحزاب أو الانفصال عنها عند هؤلاء القوم هو وسيلة الى الوصول الى مناصب الوزارة فحسب ، ولا يبعد عن هذا الغرض قيد انملة ، وهذا يعطيك فكرة واضحة عن انحطاط الاخلاق السياسية والشخصية في هذه البيئة من الناس ، وانهم من العوامل الإساسية لفسلا الحياة العامة والخاصة في البلاد ». ولم تكن الحيدة التي زعمها صدقي اكثر من الحيدة التي ادعاها الانجليز حيال هذا الانقلاب، وقد كانوا سنده الحقيقي والمحرضين عليه . وكان من دلائل كذب الادعاء ان صدقي عمد الي اصطناع حزب جديد اطلق عليه اسم (حزب الشعب) وكانما كأن الرجل يشعر بعقدة الذنب تجاه الشعب ، فسرق الاسم وأطلقه على حزبه المصطنع .. ثم شرع في تنفيذ الخطة المبيتة التي دبرها مع سيده صاحب العرش فاستصدر مرسوما بتأجيل البرلمان لمدة شهر بدءا من ٢١ يونيو. ١٩٣٠ دون ان يعرض المرسوم على

مجلس النواب الذي كان من المقرر ان ينعقد بعد ٤٨ ساعة . وتم الاتصال بين ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب وعدلي يكن باشا رثيس مجلس الشيوخ واتفق الرئيسان على أن مرسوم التاجيل يجب أن يُتلى على المجلسين . وبلغت أنياء الاتفاق اسماع صدقى فوقع في حيص بيص .. وقاده غروره إلى أن يقترح على ويصا واصف موافقته على عرض المرسوم على مجلس النواب بشرط ان يعطيه عهدا بالا يتكلم اى عضو من اعضاء مجلس النواب عقب تلاوة المرسوم ، ولكن ويصا واصف رفض هذا الشرط واعتبره تدخلا من الحكومة في شئون المجلس وغضا من كرامته ، فبعث صدقي بكتاب عاجل الى رئيس المجلس يحمل لهجة التهديد والوعيد بانه سوف يتخذ الوسائل الرادعة إذا لم تصله موافقة رئيس المجلس قبل الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم المقرر لاجتماع النواب . وللمرة الثانية يتخذ رئيس مجلس النواب موقف الشجاعة في مخاطبة رئيس الحكومة ، فبعث اليه مخطاب جرىء ابلغه فيه انه ليس من حق الحكومة أن توجه إلى رئيس مجلس النواب مثل هذا الخطاب لما فيه من تدخل السلطة التنفيذية في ادارة الجلسات التي هي من اختصاص رئيس الحلسة دون سواه،

وما إن تلقى صدقى باشا هذا الخطاب حتى ركب راسه ، واصدر اوامره باغلاق ابواب البرلمان وربطها بالسلاسل الحديدية ، واستدعى فصائل من الجيش فاحاطت بابواب المجلس لمنع النواب والشيوخ من دخوله ، فلما حانت الساعة الثالثة تجمع ممثلو انشعب حول ابواب المجلس بعد أن اخترقوا النطاقات المسلحة ، واخذوا يهتفون بحياة الدستور وسقوط الطغيان والاستبداد ، ومن المؤكد أن هذه الهتافات النارية خرقت أذان رئيس الوزراء الذي كان يتوارى في مقعده بمبنى مجلس الوزراء المقابل لمبنى مجلس الشعب . ومن المحتمل أنه قام إلى النافذة فشاهد ويصا واصف وهو يامر حراس المجلس بتحطيم الإغلال ، فشاهد ويصا واحق وهو يامر حراس المجلس بتحطيم الإغلال ، فشاهد ويصا وفقت الأبواب وتدفق النواب على السلاسل حتى كسروها وفتحت الأبواب وتدفق النواب على القاعة بينما اخذ الشيوخ سبيلهم الى مجلسهم وأقسم الجميع يمين الولاء للدستور ، واستنكروا ما ارتكبته الحكومة باغلاقها أبواب

البرامان، وإحضارها جنود القوات المسلحة لمنع الشيوخ والنواب من ممارسة حقوقهم الدستورية، ووقف عدلى يكن سليل الارستقراطية موقفا مشرفا كشف عن معدنه الأصيل وانحيازه إلى جانب الحق والعدل على حساب صداقته القديمة لإسماعيل صدقى، فبعث اليه برسالة احتجاج على اعماله المنافية للدستور، وكان لهذا الاحتجاج اثره في إبراز العدوان الذي ارتكبه رئيس الوزراء، وانتهى هذا اليوم التاريخي بانتصار ارادة الشعب واندحار قوة الطغيان، ولكن فات نواب الشعب أن يعللبوا من الحكومة أن تتقدم اليهم بطلب الثقة كما ينص الدستور، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الوفد في غمرة الهرج يطلبوا، من المناس حقها الدستوري في حجب الثقة عن والمرادة أن تمارس حقها الدستوري في حجب الثقة عن الوزارة وعندها تضع الملك ورئيس وزرائه في موقف حرج واستدراكا لهذا الموقف راى الوقد أن ينقل المعركة من البرلمان واستدراكا لهذا الموقف راى الوقد أن ينقل المعركة من البرلمان والمعملل إلى الشارع الذي كان يموج بالغليان والثورة.

مديعة في المنصورة

كان

يوم تحطيم السلاسل بداية معركة حامية الوطيس مين الوقد وحكومة اسماعيل صدقى التي كشفت عن نواياها في حكم البلاد حكما مطلقا ظهرت بوادره في تعطيل البرلمان واعتزام الفاء قانون

فى تعطيل البرامان واعتزام إلفاء قانون الانتخابات ودستور ١٩٢٣ وتفصيل دستور جديد ينتقص من حقوق الشعبية الذى فلهر جليا اثناء حكومات سعد زغلول ومصطفى النحاس . وكعادة الواد في الاحتكام إلى الأمة قررت قيادته النزول الى الجماهير لتتولى بنفسها الدفاع عن حقوقها المعرضة للضياع .

وتحدد يوم ٨ يوليو لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة، وبدأت الجماهير تستعد لاستقبال الزعيم فاتفقت لجنة الوفد العامة بالدقهلية مع شركة سكة حديد الدلتا على تاجير قطار خاص يستقله النحاس مع اقطاب الوفد من بنها الى المنصورة حتى يتاح لأهل القرى لقاء الزعيم ، وتقرر أن يتناول النحاس طعام القداء في منزل محمد بك الشناوي رئيس لجنة الوفد العامة بالدقهلية ، ثم يلتقي ولجان الوفد في منزل محمود بك نصير، وأدركت حكومة صدقي ما سوف تسفر عنه هذه اللقاءات الجماهيرية من قوة شعبية تقلب خطة الحكومة راسا على عقب ، فقررت إلغاء مادبة الغداء والاجتماع، بحجة أن الاجتماعات العامة ممنوعة ، فاحتجت لجنة الوقد على هذا الاجراء ، وبعث الشناوي بك الى مدير الدقهلية يبلغه ان وصف الاجتماعات العامة لا ينطبق على الاجتماع المزمع عقده لأن المدعوين اليه سيحملون دعوة شخصية وان الاجتماع سيعقد سواء قبلت الحكومة او رفضت ، وانه يحمل الادارة تبعة ما يحدث من جراء التعرض للحريات العامة التي كفلها الدستور.

وتراجعت الحكومة فوافقت على أقامة وليمة القداء ولكنها قررت منع الوقد من السفر عن طريق قطار الدلتا أو بالسيارة ، وسمحت له بالسفر عن طريق قطار السكة الحديد الحكومية ، وتنفيذا لذلك أمرت شركة الدلتا فسحبت موافقتها على تأجير القطار المخصوص وفتحت الحكومة كل الكبارى التي تقع في الطريق من بنها الى المنصورة حتى لا يسافر الوقد بالسيارات

واصدر مدير الدقهلية اوامره إلى رجال الادارة بإزالة كل مظاهر الحفاوة التي اقيمت في مدينة المنصورة. وطلب من محمود نصير بك ازالة السرادق الذي اقامه في بيته فرفض، وانتشر عساكر البوليس يهدمون الاقواس والزينات التي اقامها الاهالي في عرض الشوارع ولكنهم لم يتمكنوا من ازالة الزينات التي اقامها التجار على واجهات محلاتهم. واخذت قوات الجيش والبوليس تتوافد على المنصورة حتى باتت المدينة في ليلة الزيارة كانها ميدان حرب يغص بالجنود المسلحين بمختلف انواع الاسلحة ميدان حرب يغص بالجنود المسلحين بمختلف انواع الاسلحة ونشرت مديرية الدقهلية واعلان تحذير للجمهور « هددت فيه باستعمال القوة لمن يجرؤ على مخالفة اوامرها.

عندئذ اجتمعت لجنة الوقد واذاعت نداء اعلنت فيه ان تعرض الادارة للاجتماع يتعارض مع مبادىء الدستور وقانون الاجتماعات ، وخاطبت الاهالى قائلة ، لا يرهقنكم تحذير الادارة وتهديدها لانه تهديد اجوف لا تستطيع تنفيذه وهو مخالف للقانون مخالفة صارخة ».

ولم تتردد حكومة صدقى في استعمال كل وسيلة تحول بين الشعب وزعيمه وتفسد الاستقبال المنتظر، فامرت بفتح جميع الكبارى المحيطة بالمنصورة حتى تمنع تدفق اهالى القرى اليها، وغمرت شوارع المدينة بالزفت والقطران لتعويق المرور فيها، واصدرت تعليماتها الى العمد لمنع الاهالى من الخروج من قراهم، وقررت البلدية قطع التيار الكهربائي عن السرادق والزينات المقامة على واجهات المنازل، فاجتمع اعضاء المجلس البلدى ـ وطنيين واجانب ـ وذهبوا الى المدير محتجين فوافق على اقامة مولد كهربائي خاص لتغذية السرادق بالتيار ومد توصيلة الى منزل الشناوى بك.

واراد الوقد أن ينتزع من الحكومة أخر سلاح تستغله لمنع الزيارة فقبل السفر عن طريق سكة حديد الحكومة ، وعلمت الجماهير بتغيير خطة السفر فانتقلت الحشود الى المحطات الواقعة ما بين بنها وطنطا والمحلة وسمنود والمنصورة ، وخرج الفلاحون والعمال من مزارع والمصانع يهتفون للنحاس وللدستور وحمانه ، وجاء خط الرحلة أطول من الخط السابق ، مما أتاح

للوفد لقاء حشود أكثر، وجماهير اضخم. وجاءت النتيجة في مصلحة الوفد حيث أرادت الحكومة العكس، ودخل القطار محطة المنصورة، فاستقبله على الرصيف حشد كبير من الأعيان واعضاء لجان الوفد فارادوا حمل الزعيم على اعناقهم ولكنه أبي، وتقدمهم الى الباب الخارجي للمحطة، وأطل النحاس على الميدان الفسيح وقد تحول الى ثكنة حربية تزدحم بجنود السوارى، وقد وضعوا خوذاتهم على رؤوسهم وسدوا منافذ الطرق حتى يحولوا بين الزعيم وجماهيره، ومرت سيارة النحاس في المسار المتفق عليه بين الوفد والادارة، واجتازت السيارة النطاق العسكرى الأول ثم الثاني، فلما اشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة.

مروءة نادرة

تعركت سيارة الزعيم الجليل مصطفى النحاس فى المنصورة وسط حشد كثيف من جنود الجيش ، والبوليس المسلحين بالبنادق المزودة بالحراب (السناكي) بينما وقفت الجماهير عند أفواه الملرق المؤدية إلى شارع البحر فى انتظار موكب الزعيم وجلس إلى يمين النحاس محمد نجيب الغرابلي باشا ، وإلى يساره سينوت حنا بك وعلى الجمل بك الذى انتدبته لجنة الوقد ليكون حلقة الاتصال بين الوقد والسلطات . وقد طلب منه رجال السلطة ان يجلس فى سيارة النحاس تمييزا لها على بقية السيارات .

وكان سينوت حنا بك يشعر في قرارة نفسه منذ غادر القاهرة صباحا بان الرحلة لن تمر بسلام ، وأن حكومة صدقى لن تتورع عن تدبير خطة دنيئة لاغتيال النحاس باشا اثناء طوافه بشوارع المنصبورة . واسر سينوت حنا بما يخالج نفسه من هواجس وشكوك إلى صديقه محمد حامد جودة بك . واتفق الصديقان على أن يلاصقا الزعيم طوال الرحلة حتى يفتدياه بروحيهما إذا تعرض لمكروه . قلما نزل النحاس هو وصحبه من محطة المنصورة ، أسرح سينوت حنا إلى السيارة المخصصة للنحاس ، وجلس فيها في انتظار وصبول الزعيم إليها ، أما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين النحاس، ولم يتمكن من مصاحبته في السيارة. وتحركت السيارة من الميدان فاخترات النطاق العسكرى الأول .. ثم الثاني .. وما إن اشرفت على شارع البحر حتى اطبق عليها حشد من الجنود حاملي الحراب . ولمح سينوت حنا أحدهم يسدد المدية الى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا أن برز بصدره ليفتدى الزعيم ، ويتلقى الطعنة القاتلة .. فانغرست في كتفه .. وانكسر نصلها في لحمه .. وسالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم .. وتقدم جندى اخر ليسدد طعنة اخرى فتلقاها على أفندى الموجى .. وفي نفس اللحقلة انهمرت الحجارة والطوب والزجلجات المعباة بالرمل على موكب الواهد من منازل اعضماء حزب الإهرار الدستوريين .. وهجمت الجماهير العزلاء تلدى الزعيم بارواهها وحدث المندام الدموى بينهم وبين رجال الجيش والبوليس المدججين بالسلاح .. وانهالت الطعنات المسعومة على اجسك الأهالي فقتل اربعة منهم في مقابل ثلاثة جنود ، اما عدد الجرحي والمصابين فقد بلغ ١٤٥ شخصا .

واسقرت المجزرة التى دبرها صدقى باشا عن هذه النتيجة المؤسفة . وتبين ان الحكومة كانت تدبر للمذبحة منذ وقت طويل وعهدت بالمهمة إلى احد ضباط الجيش من ذوى السوابق فى الاعتداء على الشعب واسمه الإميرالاي عبد العظيم بك على . وقد كفاته الحكومة على إدارته لمجزرة المنصورة بنجاح وامرت بترقيته إلى رتبة لواء بصفة استثنائية ، وفي نفس الوقت عاقبت الصاغ محمد أمين النه سعى إلى حقن الدماء وابي استعمال القوة ضد ابناء وطنه فاحالته الى الاستيداع ، وكانت الترقية والعقوبة تهدفان إلى إغراء رجال الجيش والبوليس كى لا يترددوا في التنكيل بالشعب وتجنب الرفق بالإهالي العزل ..

ومأكادت انباء مجزرة المنصورة تذاع في أنحاء البلاد حتى هبت الجماهير للتعبير عن سخطها على حكومة صدقى . واندلعت المظاهرات في طنطا وبورسعيد والاسماعيلية والسويس والاسكندرية ، وتساقط الشهداء تحت وابل الرصاص الذي كان الجنود يطلقونه بلا رحمة أو شفقة ، حتى بلغ عدد القتلى في الاسكندرية وحدها عشرين شهيدا فضلا عن ٥٠٠ جريح غصت بهم المستشفيات ، وقبض البوليس على بعض اعضاء لجنة الواد بالاسكندرية وهم : الاساتذة عبد الفتاح الطويل وحسن سرور والدكتور احمد عبد السلام .

اما في المنصورة فقد خرج مائة الف من ابناء الدافهلية والمديريات المجاورة لتشييع جنازة الشهداء الذين سقطوا في المجزرة. ولم تسلم الجنازة من اعتداء البوليس عليها بالكرابيخ والعصبي الغليظة ، وقبض على الكثيرين حيث اودعوا السجون ، وهم يهتفون بحياة الدستور وسقوط الدكتاتورية والاستبداد . وارادت بعض المدن ان تظهر شعورها بتحية الشهداء إجلالا لهم وتقديرا للتضحيات التي قدموها . فسارت الجنازات الصامتة في شبين الكوم وسوهاج ومفاغة وكفر الزيات وامبابة وطنطا .. وخاولت السلطات ان تفرق المحتفلين الصامتين وان تعتدى على

الحرمات المقدسة الأمر الذي كشف عن فظاعة اسماعيل صدقي ، وتحجر عواطفه ، وخلو قلبه من أبسط المشاعر الانسانية .

اما البطل الجريح سينوت حنا فقد عاد إلى القاهرة حيث اجريت له عملية جراحية لاستخراج الشظية المكسورة في كتفه ، وتحولت داره القابعة على شط النيل بالجيزة إلى قبلة يرتادها الوطنيون من جميع انحاء البلاد للاطمئنان على صحته ، والتعبير عن غبطتهم للدور البطولي الى قام به في صمت ، وكشف فيه عن معدنه النادر ونفسه الابية ، ولكن تأثير الطعنة المسمومة كان اكبر من جهود الإطباء ودعوات المخلصين ، فصعدت روحه الوثابة إلى بارئها ، ومضى إلى ربه راضيا مرضيا ، وبقيت قصته رمزا حيا على الشجاعة .. والمروءة .. والتضحية .. والتلاحم المقدس بين ابناء مصر الخالدة .

المجاهد الزاهد

كان سينوت حنا من طليعة الأقباط الذين لبوا نداء الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ووقفوا إلى جوار سعد زغلول في حماس حار ، وإيمان صادق بوحدة الألم والمصير بين المسلمين والاقباط ، وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية في آخر ديسمبر ١٩٢١ ، كان سينوت أحد الرفاق الخمسة الذين صحبوه إلى المنفى في سيشل مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات وأخيه عاطف ، ويقال ان سعدا عندما بارح بيت الأمة في طريقة الى المجهول كان شديد التأثر ، بادى الألم ، فلما اقلعت به السفينة من السويس صعد الى ظهرها وحوله الصحاب ، فوضع يدا على كنف مصطفى النحاس ، ويدا على كتف سينوت حنا ثم ابتسم كنف مصطفى النحاس ، ويدا على كتف سينوت حنا ثم ابتسم قائلا : مع ابنائي لا اشعر بالمنفى .. كان الله في عون ابنائي الذين تركتهم في مصر .

. .

كان هذا الجيل من شباب الاقباط قد اكتوى بنار الفرقة التي اشعلها الانجليز بين المسلمين والأقباط بعد حادث دنشواي ، ولكن جهود هؤلاء الشباب لتطويق الإزمة كانت اضعف من حماسة المتطرفين الذين أصروا على عقد مؤتمر للأقباط في اسبوط، وتم لهم ماارادوا .. وعقد المؤتمر في الأسبوع الأول من مارس ١٩١٠. برياسة يشرى جنا الشقيق الأكبر لسينوت حنا .. وتكلم المتحمسون وخطب المتطرفون .. وفي النهاية تغلبت روح العقل والحكمة .. وانتهى المؤتمر دون أن يمس الحقيقة الخالدة التي جعلت من مصر اما عطوفا على أبنائها جميعا مسلمين وأقباطا .. وعلى الجانب الآخر تحمس المسلمون وعقدوا مؤتمرا شبيها في مصر الجديدة برياسة رياض باشا في أبريل ١٩١١ وتكلم الخطباء والشعراء .. واصر هذا الرعيل المستنير من شباب الاقباط _ سينوت حنا وواصف غالى وجورج خياط وويصا واصف ونجيب اسكندر .. على حضور المؤتمر الاسلامي تأكيدا لمعنى الوحدة، واستنكارا لوصمة الشقاق بين أبناء الوطن، وأنتهى المؤتمر كما انتهى سابقه .. وقد زالت الغشاوة عن عيون الغافلين في الجانبين، وتفتحت على عمق الهاوية التي يحفرها العدو المشترك لتثبيت اقدامه في مصر ، وتاكد للجميع انه لا امل لهم في البقاء أو الوجود بغير استمرارهم على الحالة التي وجدوا أنفسهم عليها منذ الاف السنين .

وجاءت سنوات الحرب العالمية الاولى بما صاحبها من قهر وظلم وسخرة لتؤكد بداهة المصير المشترك في نفوس المسلمين والاقباط، واخدوا يتطلعون الى اليوم الذي يتخلصون فيه من كابوس الاحتلال الذي امتص قواهم ونهب ثرواتهم واذل كرامتهم، ظلما انداعت الثورة تولد الأمل الذي انتظروه طويلا وانخرط سينوت حنا في اتون الثورة مضحيا بماله الوفير وشبابه الغض دون انتظار لثمن .. أو ترقب لمنصب .. بينما وقف اخوه بشرى مترددا .. خائفا من مخاطر الثورة على ضياع اسرته التي كانت تشغل مساحات واسعة من مديرتي بني سويف والغيوم .

يقدم العالم المؤرخ الدكتور حسين مؤنس لقطة رائعة من حياة المجاهد الزاهد سينوت حنا نقلا عن الدكتور جورجى صبحى الذى كان يجمع بين مهنة الطب ودراسة تاريخ مصر القديم وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وكان يلقى دروسا فى التاريخ على طلبة معهد الآثار المصرية . يقول الدكتور مؤنس : «سالته ذات ليلة ونحن منصرفون من المعهد في طريقنا الى ميدان التحرير :

ـ هل صحیح ان بشری حنا شقیق سینوت حنا ؟

ـ نعم كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطئى المتطرف الذى سار فيه سينوت . وقد عاتب بشرى اخاه سينوت الذى كان شديد الحماسة لمؤتمر مصالحة المسلمين والاقباط الذى عقد في مصر الجديدة ، وكان بشرى يخاف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطني المتطرف فقال لأخيه يوما :

_ اذا اصررت على سلوك هذا السبيل فستسبجن وتعذب ، وربعا نفوك من البلد كما نفوا عرابي ..

فقال سينوت ، وكان شاباً يتميز بالحياء والادب الشديدين : سيالخي بشرى لا تخف على . إنني اسعى في الحصول على استقلال مصر وإخراج الانجليز منها . لأن هذا هو الضمان الوحيد لسلامتنا جميعا اقباطا ومسلمين . انت تظن أن الانجليز يحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الاقباط .. هذا خطأ .. إنهم لا يحمون الا انفسهم . وهاانت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم دوننا ، وانظر عنايتهم بالاروام (اليونان) والارمن والمالطيين ! أنت تعرف أن الحكومة الانجليزية هي التي بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن في القاهرة ، وهم يمولون المستشفى الاسرائيلي .. فهل ساهموا بقرش في بناء يمولون المستشفى الاسرائيلي .. فهل ساهموا بقرش في بناء كنيسة قبطية ؟ انهم باأخى اعداء المصريين جميعا ، أملنا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون في هذا البلد ، وما عدانا زائل .. هذا هو الأمان الوحيد لي ولك ولأموالك التي تخاف عليها » ..

ثم يستطرد الدكتور جورجى صبحى قائلا: « وبعد ذلك بسنوات وبعد ان اجتمعت كلمة المسلمين والاقباط تحت زعامة سعد ، وبدات دعائم الاحتلال تتزعزع ، واصبح سينوت الى جانب سعد واصحابه من رجال مصر وابطالها ، وصل بشرى ذات يوم الى الفيوم في زيارة عمل فوجد مظاهرة في انتظاره ، وحمله الناس على اكتافهم ، لمجرد انه اخو سينوت .. وعندما التقي مع اخيه بعد ذلك بايام قال له : كنت انت على حق يالخي .. لا تتصور كيف يستقبلني الناس الأن في الفيوم .. قبل ذلك ، وفي ايام أزمتنا مع إخواننا ، كنت اطلب من الحكمدار ان يرسل معى حرساً .. لقد مضى ذلك والحمد لله » ..

هذا هو سينوت حنا .. المجاهد الزاهد الذى عاش الثورة بكل عنفوانها .. وعاش مابعد الثورة دون أن يطمع فى منصب أو جاه أو نفوذ .. وكان استشهاده فى المنصورة خير مثل على نزاهته ومروءته وعطائه النبيل .

الصيف الساخن

كان صيف ١٩٣٠ صيفا تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الوقد وحكومة اسماعيل صدقي بعد الأحداث الدامية التي وقعت في المنصورة وغيرها من مدن القطر ، كانت خطة اسماعيل صدقى « الضرب في المليان »، وقمع كل اشتكال الاحتجاج عن طريق العنف وإراقة الدماء . وكانت خطة الوفد المضى في طريق الصمود مهما كانت التضحيات . كان الوفد يتحرك من احساسه بالخطر المبيت لإجهاض المرحلة الدستورية التي لم يمض عليها اكثر من سبع سنوات حُلَّ فيها البرلمان أربع مرأت بمقتضى النص الذي اصر الملك فؤاد على أن يتضمنه مشروع الدستور ، ويعطيه حق حل البرلمان دون قيد أو شرط، ونتج عنه أن فترة تعطيل الحياة النيابية كانت اطول من فترة عملها ، وكان الوفد يرى أن المعركة الدستورية لا تقل اهمية عن المعركة الوطنية وتستحق مثلها شرف التضمية ، لأن الاعتداء على الدستور هو اعتداء على الحقوق الشعبية التي برزت لاول مرة في التاريخ الحديث ، وأن على الشعب ان يهب لاستخلاص هذه الحقوق قبل ان تتحقق خطة الملك في تفصيل دستور جديد على مقاسه يحقق اطماعه الدكتاتورية .

ومضى الملك في طريق الشوك مستغلا النزعة الاستبدادية المتاصلة في نفس صدقي وكراهيته المقيتة للشعب، وتلاقت إرادة الرجلين على تنفيذ خطة رجعية تعود بالبلاد الى صيغة الحكم المطلق التي كانت سائدة قبل دستور ١٩٢٣، وكانت الخطوة الأولى فض الدورة البرلمانية حتى لا تواجه الحكومة البرلمان الذي كان من المقرر أن يجتمع يوم ٧ يوليو بعد انتهاء مهلة الشهر التي تعطل فيها، وكان قرار فض الدورة مخالفة صريحة لنص الدستور الذي يقضى بعدم فض المجلس قبل إقرار الميزانية العامة، ولكن صدقي لم يابه بهذه الاعتراضات الفقهية لانه كان ينوى ماهو اخطر من ذلك وهو حل البرلمان وإلغاء الدستور ذاته.

وقرر اعضاء البرلمان أن يجتمعوا في اليوم الاخير من المهلة لحجب الثقة عن الحكومة ، ولكن صدقي لم يترك الفرصة لتكرار ما حدث يوم تحطيم السلاسل ، فامر بطرد قوة حرس البرامان وجاء بقوات هائلة من الجيش احتلت كل أركان المبنى وجلس الجنود فوق سطح البرلمان فى وضع استعداد لإطلاق النار على اى شخص يقترب من المبنى ، وأذاع صدقى على الشعب إنذارا بضرب النار على اى شبح يقترب من المنطقة المحيطة بالبرلمان . واحتج عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ على هذا الاعتداء الهمجى من جانب الحكومة ، وفعل نفس الشيء عبد السلام فهمى اجتماعهم فى مبنى النادى السعدى (مقر حزب الوفد) حيث اعلنوا عدم ثقتهم بالحكومة وسجلوا عدوانها السافر على الحياة البرلمانية ، وفى نفس الوقت اصدرت بعض مجالس المديريات (الغربية والبحيرة) بيانا استنكرت فيه تصرف حكومة صدقى فأمر بحلها بحجة (انها تتدخل فى مسائل خارجة عن اختصاصها) .

100

وكان من شان هذه الإساليب البربرية التي انتهجها صدقى باشا في العبث بالدستور والنظام البرلماني .. أن أشعلت رغبة الانتقام في نفوس الشباب الذين رأوا بأعينهم مليك البلاد ورئيس وزرائه يتامران على سلطات الشعب الدستورية ، وارتفعت نبرة العنف ومحاولات الاغتيالات السياسية بعد ان توقفت منذ حادث السردار ، وبينما كان صدقى باشا عائدا بالقطار من الاسكندرية يوم ٢٥ اغسطس ضبطوا شابا يتخفى في زي عمال عربة البولمان ويخفى في طيات ملابسة بلطة حادة لذبح رئيس الوزراء . وتبين ان الشاب ـ وكان سودانيا ـ من خريجي كلية غوردون بالسودان ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدة واسمه حسن محمد طه نجل محمد طه بك عضو مجلس النواب عن مركز الدر ، وقد حوكم الشاب بتهمة الشروع في قتل صدقى فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ولكنه مات بعد سنتين في السجن .

وفي يوم ٢٧ اكتوبر ١٩٣٠ بلغت خطة الملك منتهاها ، فأصدر امرا ملكيا بالغاء دستور ١٩٣٠ وإعلان دستور جديد ينقل إليه كل السلطات التي كانت مكفولة للشعب . ويجعل من الحكومة العوبة في يد الملك أو بمعنى أصبح ستارا يغطى استبداده بالحكم ، ولم تخف هذه الحقيقة عن الدوائر الأجنبية فقالت صحيفة الديلى ميل : معنى هذا أن الحكومة تكون حكومة السراى ! وأن الحكومة

هى الملك نفسه! وستكون نتيجة ذلك نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المتطرفين المضادين لبريطانيا ـ الى الملك الذى يتسنى له الآن أن يحكم البلاد حكما مطلقاً.

ومن الطريف ان الملك فؤاد لم يقسم على احترام الدستور الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية حتى لا يقع فى خطيئة الحنث باليمين الأولى التى اقسمها على احترام دستور ١٩٢٣، وهو فى نفس الوقت لا يستطيع التحلل من هذا القسم من حيث ان الدستور (عقد) بينه وبين الأمة . ومن ثم لا يحق له ان يفسخ من جانبه هذا التعاقد الرسمى العلنى ..

وفى هذا الجو القاتم المترع بدماء الضحايا .. والمشيع بفنون التزييف والحيل والمغامرات .. ولد دستور ١٩٣٠ ولادة ميتة .

على رصيف بنى سويف

فی

أرشيف الصحف القومية صورة شهيرة للزعيم مصطفى النحاس وهو ينام فوق دكة ، خشبية على رصيف محطة بنى سويف . ولهذه الصورة قصة أرويها للجيل الجديد ، كى يعرف حجم

التضحيات التي بذلها زعماء الوطنية المصرية من أجل حرية الشعب، وصيانة الحقوق العامة التي حصل عليها بمقتضى دستور ١٩٢٣، ثم راق لبعض الطغاة أن يعصفوا بهذه الحقوق ظنا منهم أن الشعب غير قادر على استيعابها.

ففى عام ١٩٣١ كان اسماعيل باشا لايزال يحكم البلاد بالحديد والنار بعد أن الغى دستور الشعب .. ورأى الوفد أن السكوت سيؤدى بالبلاد إلى كارثة ، ويعود بها إلى عصر الحكم المطلق ، وينسف الحقوق الدستورية التى حصل عليها بعد كفاح مرير .. ولما كانت وسائل الاتصال بالجماهير قد تقطعت ، فقد رأى الوقد أن ينزل إلى الناس ليحثهم على مقاطعة الانتخابات التى أراد صدقى أن يتخذ منها اداة لتزييف إرادة الامة ، وإسباغ الصبغة الشرعية على حكمه الارهابي ، وإظهار نفسه بمظهر الحاكم الديمقراطي الذي يحكم باسم الشعب ..!!

وتحالف الأحرار الدستوريون مع الوفد في الكفاح من اجل سيادة الأمة ، وانقلبوا على صديقهم القديم بعد ان تبين لهم عمق الهاوية التي يحفرها للنظام الدستورى . واختار النحاس باشا مدينة بني سويف - أحد معاقل الوفد العريقة - لتكون أول محطة في مشواره الطويل الشاق .. وركب النحاس ورفاقه قطار الصعيد في ابريل ١٩٣١ ، ولكن ما أن هبطوا محطة بني سويف حتى وجدوها اشبه بتكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة .. بينما كانت الجماهير تزحف نحو المحطة بعد أن علمت بوجود النحاس ، فقوجئوا بالمعصم .!!

كان المشبهد رهيبا .. مهيبا ..

فلا الزعيم ورفاقه يستطيعون الخروج من المحطة .. ولا الجماهير تستطيع دخولها .. ولا يسمع في الميدان سوى هدير الناس تتخلله طلقات الرصاص .

ومرت ١٢ ساعة من الساعات الخائدة في تاريخ هذه الأمة وكفاحها البطولي من أجل الحرية ، واستخلاص حقوقها من براثن الطغاة .. وأضطر النحاس ورفاقه إلى النوم على الدكك المتناثرة فوق الرصيف ، حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة ، تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرا .. ووضعوهم داخل القطار الذي عاد بهم إلى القاهرة بينما جماهير بني سويف تغلى غيظا .. وحمدا .. وعاد الزعماء إلى بيوتهم مرهقين .. مجهدين .. ولكن هممهم لم تفتر .. وحماسهم لم يخمد .. وقرروا استمرار كفاحهم والاتصال مباشرة بجماهير الشعب .

ففى يوم ٢ مايو ١٩٣١ قرر النحاس باشا ومعه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين السفر بالقطار إلى طنطا ومعهم حشد من اقطاب الحزبين ، ونجح الوفد فى اختراق نطاق البوليس الذى كان يحاصر أبواب محطة مصر ، فلما استقروا داخل القطار نفتق ذهن صدقى باشا عن حيلة لا تخطر إلا على بال كتاب القصص البوليسية ، فقد أمر مدير مصلحة السكة الحديدية باجراء مناورة كان من نتيجتها فصل العربة التى يجلس فيها الزعماء عن بقية عربات القطار ، ثم جاءت قاطرة خاصة فسحبت العربة واتجهت بها إلى طريق صحراء العباسية الذى يلتف حول العارة باتجاه حلوان حتى توقفت بهم وسط الصحراء ، وتسامع القاهرة بما جرى فانطلق بعضهم يحمل الماء والزاد إلى الزعماء المنفيين فى العراء . حتى إذا جن الليل تحرك القطار نحو محطة المعسكر ... قرب طرة .. وجاءت فرقة مسلحة واجبرت الزعماء على مغادرة العربة طوعا أو كرها ..!!

ولم تلن قناة مصطفى النحاس .. فقد كان العناد والصلابة من ابرز صفات هذا الرجل العظيم . وفى اليوم التالى كان وفد المقاومة يستقل السيارات .. فى غفلة من السلطة .. نحو بنى سويف للمرة الثانية ، وما إن استقر النحاس باشا ورفاقه فى بيت رئيس لجنة الوفد حتى انطلقت الجموع كالطوفان تحيط بالبيت وهى تهتف بسقوط الطغيان والاستبداد ، ولم يتراجع صدقى باشاعن المضيى فى خطته الدموية فامر قوات الحكومة المسلحة باطلاق النار على الجماهير فقتل سبعة شهداء وجرح المئات ، وانتهى اليوم بإعادة النحاس باشا ورفاقه مخفورين إلى محكمة مصر بياب الخلق لمحاكمتهم

ولم تضع دماء الشهداء سدى ..

ولم يذهب كفاح الوقد من أجل الحرية والدستور هباء .. وادرك الشعب حجم التضحية التي ببذلها النحاس كي يعود للشعب دستوره ولا يتحكم فيه الطغاة ، فلما كان يوم الانتخابات قاطعها الشعب مقاطعة اعادت إلى الاذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبينما خلت لجان التصويت من الناخبين انطلقت جموع الشعب تهتف بسقوط المزيفين ، وسقط عشرات القتلي ومئات الجرحي ، ومع ذلك لم يخجل صدقي من أن يعلن نتيجة الانتخابات _بعد موعدها بيومين _ فيزعم أن نسبة الذين أدلوا باصواتهم كانت ٨/٧٠٪ فكان أول من ابتدع هذا اللون من الفساد السياسي في تاريخ الانتخابات المصرية ، وكان الشعب يبتسم ساخرا وهو يستمع إلى هذه الارقام ، وظل الشعب يواصل كفاحه الشريف _ بزعامة النحاس _ حتى نجح في اسقاط دستور صدقي واعادة دستور الشعب .

فماذًا كان حكم التاريخ ..؟

لقد وُضع اسماعيل صدقى - رغم ذكائه وعلمه ودهائه - فى لائحة الساسة المكروهين اعداء الشعب والديمقراطية ، وبقى اسم مصطفى النحاس فى سجل الخلود ، حارساً للديمقراطية ، امينا على حقوق الشعب ، طاهر اليد والقلب حتى النفس الاخير .. وما اصدق الذين هتفوا له يوم مماته : عشت فقيرا ..

أكذوبسة رخيصسة

بشخصية الزعيم الجليل مصطفى النحاس الفة روحية وروابط نفسية وعقلية ليست وليدة الانتماء الحزبي أو الولاء السياسي ، ولكنه حصيلة المعاناة والبحث والتنقيب في تلك الحقبة الخصبة من تاريخ مصر ، التي أفرزت كما هائلا من رجال السياسة والحكم ، وكما نادرا من ذوى العظمة الحقيقية ، واصحاب البطولات الصادقة .

واجتلاء جوانب العظمة في شخصية مصطفى النحاس امر حيوى ومطلوب في هذا العصر الذي اختلت فيه القيم ، واختلطت المفاهيم ، واضطربت المقاييس ، حتى بات الناس في حيرة من أمرهم .. لا يميزون بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة .. بل أصبح حديث العظمة نفسه حديثا بغيضا إلى عامة الناس ، ظنا منهم أنَّ المساواة التي شاعت في عصرنا قد أزاحت العظماء عن عليائهم ، واطاحت بهم إلى مهاوى النسيان ، واصبح تلويث العظماء وتلطيخ سيرتهم متعة رخيصة عند نوى النفوس الضعيفة . انظر اليهم وقد تعمدوا نسيان تاريخ (النحاس) وكفاحه العريض ثم توقفوا امام اكذوبة تقول انه قبّل بد الملك فأروق .. ولقد أعجبني وصف الدكتور رفعت السعيد لهذه الاكذوبة بأنها من نسبج اناس عاشوا حياتهم، وصعدوا، او بالدقة هبطوا من أجل تقبيل حداء كل حاكم وكل طاغية . ثم يعقب على هذه الفرية قائلا: ان علم التاريخ يابي ان يرصد حادثة عارضة _ حتى لو كانت صادقة _ لتقييم تراث متكامل ، وتاريخ النحاس يكفيه ويزيد - وبدون أية حجج أو براهين - أن يسمو به فوق هذه الصنغائر.

ولا أتصور زعيما تعرضت سيرته للتشويه والافتراء والايذاء .. كما تعرض مصطفى النحاس ، وفي يقيني ان الجيل الحالى الذي تلقى صورة النحاس مشوهة مزيفة .. أحوج من أي جيل سبق إلى معرفة الحقيقة حتى تستقيم رؤيته إلى معانى العظمة ، فيستعيد سلامته النفسية والعقلية ، ويبرا من داء الاجتراء على سير العظماء ، ويضع الابطال في المكانة التي يستحقونها ، ولن يتيسر ذلك بقراءة الكتب التي صدرت عن الزعيم الجليل ، فهي

شحيحة ومنتسرة، ولكن التاريخ الحقيقي لمصطفى النحاس يوجد في تضاعيف الأحداث الجسام التي شغلت تاريخ مصر فيما بين ثورتي ١٩١٩ و١٩٥٢ ، عندئذ سيستوى أمامك الرجل عملاقا ينطلق من القمقم الذي سجنه فيه أهل الجحود والنكران ، ولسوف تشعر بالندم لأنك لم تكن من مريديه قبل أن يموت ، وستشعر بالاسمى لأنك لم تحاول رفع الظلم الذى حاق به حيا وميتا، وستشعر بسعادة غامرة لأن مصر أنجبت هذا الرجل الذي أحب مصر بكل ذرة من كيانه ، وقضى حياته مجاهدا في سبيل حريتها وكرامتها ، فلم يقبض من ثمن الجهاد سوى النفي والتشريد والتجنى والافتراء، عاش فقيرا يستدين من البنوك ليستكمل نفقات معيشته ، ولا يمد يده إلى مال الدولة . وكانت طهارة قليه لا تقل عن طهارة يده ، والصورة التي يرسمها لنا على سلامة في كتابه عن مصطفى النحاس تعطينا صورة الرجل الطيب الودود والأب الحنون الذي لا يعرف الحقد ، يظهر ما يبطن .. ولا يعرف الكلام المنمق المزوق ، وكل ما يحتويه قلبه ينطق به لسانه ، ولا يستطيع أن يبتسم في وجه شخص يكرهه ، ولا يستسيغ الكذب والمخاتلة والرياء .. ولا يتصور انسانا يحترف الكذب .. ويتخذه وسيلة للوصول إلى الغاية .

كيف استطاع الرجل وهو على هذا القدر من نبل الصفات ومكارم الأخلاق، أن يخوض بحر السياسة الغامر بالأكاذيب والتضليل والدس والتامر والابتسامات الصفراء المرسومة على شفاة غليظة ..? أن الجواب على السؤال يبدو سهلا إذا تذكرنا أن السنوات التي قضاها مصطفى النحاس فوق كرسي الحكم لا تزيد على عُشر الفترة التي قضاها في أحضان الشعب .. مواطنا وقائدا وزعيما .. والعلية النادرون في تاريخ الأمم لم يستمدوا عظمتهم من زخارف الجاه والسلطة .. ولكن من الايمان برسالتهم والارتباط بشعوبهم والارتقاء بنفوسهم في معارج الروح ، والارتفاع عن الدنايا والصغائر ، وكان مصطفى النحاس نموذج العظمة السياسية التي فرضت على قلوب الناس خلال جيلين

مساهب المتسام الرفيسع

لَمْ

يسعدني القدر برؤية الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس، وإن كنت لا انسى صوته الجهورى وهو يجلجل عبر موجات الأثير من قاعة البرلمان: « من اجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل

مصر اطائبكم اليوم بالغائها، كنت وقتها طائبا في المرحلة الثانوية لا اعرف بالضبط محتويات المعاهدة ولا الظروف التي دعت إلى إبرامها ، ولا مسببات إلغائها ، ولكنى ادركت ان حدثا خطيرا يوشك ان يقع ، وما هي إلا أيام حتى تحولت مصر كلها إلى شعلة حماسة ، فالغدائيون يقتحمون معسكرات الانجليز ، والشهداء يتساقطون ، والمظاهرات تعم أرجاء البلاد ، وذات خرجت مصر في مظاهرة جارفة وتدفق الملايين على العاصمة للمشاركة فيها ، وكان شيئا مثيرا أن يخرج رئيس الوزراء - مصطفى النحاس - ووزراؤه على رأس المظاهرة التي جابت شوارع القاهرة ، واعادت واقيلت حكومة النحاس ، وخيمت على مصر سحائب الظلمات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف والاذاعة ، وبدات حملة مشبوهة لتلطيخ اسمه وزحزحته عن زعامة الامة .

وبعد الثورة ، وطرد الملك ، توقع الناس ان يعود مصطفى النحاس إلى موقعه الطبيعى بحكم زعامته لحزب الأغلبية وتطبيقا للمبدا السادس من مبادىء الثورة الذى يدعو إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة . ولكن تبين ان مفهوم الديمقراطية عند قادة الثورة يختلف عن المفهوم الموروث عن الديمقراطية ، وتطوع الفلاسفة والمنظرون ـ وهم للاسف من فئة كبار المثقفين ـ بإعطاء الديمقراطية عشرات التفسيرات ، وإلباسها اقنعة مزيفة تخفى الديمقراطية عادى يتمثل في الاحتكام إلى الشعب واحترام ارادته أيا كانت النتائج .

وكما عاش مصطفى النحاس بعيدا عن كرسى الحكم معظم سنى عمره السياسى ، في ظل النظام الملكى ، قضى بقية سنوات عمره سجين بيته في ظل النظام الثورى ، وكما عمل القصر واعداء الحرية وأحزاب الأقلية على تحطيم زعامة مصطفى النحاس ، واصلت الثورة نفس العمل ، عن طريق سلسلة من المحاكمات

تناولت أقرب الناس إليه ولم تتناوله شخصيا ، ربما _ وهو الأرجح _ خوفا من أن تزيده المحاكمة رفعة وتالقا .. فيصبح في ظل الثورة مصاحب المقام الرفيع، كما كان قبلها .

هل كان مصطفى النحاس يستحق كل هذا العذاب الذي وقع له سواء في العهد الملكي أو في العهد الثوري ..؟! يمكننا أن تعرف الجواب إذا عرفنا حقيقة الصراع الذى كان يدور حول قضية الحكم والسلطة منذ عرفت مصر النظام النيابي وما يستتبعه من قيام حكومة مسئولة امام برلمان شعبي منتخب ، وإعلان دستور ينظم السلطات الثلاث ويحصر سلطة الملك في دائرة ضيقة ، ويجعل من الامة ـ وليس الملك ـ مصدر السلطات ، ولم يكن من اليسير على القصر بحكم تراثه التاريخي وتكوينه الاوتوقراطي أن يتقبل هذا التحول الجذرى الذي يجعل من الشعب سيدا .. بعد أن كان قطيعا يساس بالعصا .. كان هذا هو محور الصراع بين سعد زغلول والملك فؤاد ، وامتد فيما بعد بين مصطفى النحاس والملك فاروق . ولما كان الوفد هو الحزب الذي تجسدت فيه رغبة الأمة في التحرر من تسلط الأسرة العلوية والتخلص من التسلط الاجنبي ممثلا في قصر عابدين وقصر الدوبارة ، فكان القصران يتصديان لهذه الظاهرة وإحباطها بشتى الحيل .. مرة عن طريق تزييف الانتخابات ، ومرة عن طريق اصطناع احزاب تدين بالولاء للقصر وتحكم بطريقة غير دستورية، ومرة بتشجيع قيام تنظيمات فاشية ترفع شعارات طنانة بقصد خداع الجماهير وصرفها من حول الوقد .. الخ .. وكل هذه الأساليب كانت تلتقى عند هدف واحد هو حرمان المصريين من حكم انفسهم عن طريق ممثلهم الشرعي وهو الوقد ، وإبقاء السلطة في يد القصر ليواصل سياسته القديمة في الحكم الاستبدادي ، وإذا كان هذا السلوك مفهوما من جانب النظام الملكي ، إلا أنه لم يكن مقبولا من جانب الثورة التي قامت أصلا للاحتجاج على الانتهاكات الدستورية التي ادت إلى اقصاء صاحب الحق الشرعي عن الحكم، وإسناده إلى من لا يستحق!!

انه لغز لا يسبهل فهمه إلا على ضوء شخصية مصطفى النحاس وفهمه العميق لقضية الديمقراطية.

النماس .. أسيرا

کان

الزعيم الجليل مصطفى النحاس يقضى السنوات الاخيرة من عمره في بيته كالأسير يعانى مرارة الجحود والظلم والإهمال .. فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما او تهكما .. أو تحاملا على جيل

باكمله ، جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من براثن الترك والشركس والأغوات ، وبعد أن كنا نسمع أسماء نوبار وباغوص ورفقي ولاظوغلي ، أصبح الوزراء يحملون أسماء زغلول والنحاس والقرابلي وأبوعلم وويصا واصف .. رجال من صميم الطينة المصرية .. ومع ذلك أصبحوا فوجدوا تاريخهم يتعرض لابشع أنواع التلطيخ والتزوير .. وهم لا يملكون دفاعا عن أنفسهم فليودون باركان بيوتهم حتى ياتيهم الموت .!!

. . .

ذات يوم طرقت فتاة بيت الزعيم مصطفى النحاس ، قالت انها مندوبة التعداد العام، وتريد الحصول على البيانات عن سكان البيت ، واستقبلها الرجل العظيم هاشًا باشًا .. وجلس امامها ليرد على اسئلتها .. وتهيأت الفتاة لعملها ففتحت حقيبتها وأخرجت أوراقها وبدأت في طرح أسئلتها فكان السؤال الأول : اسم سيادتك ؟ اجابها الرجل في هدوء : مصطفى النحاس ، ومضت الفتاة الى السؤال الثاني دون ان يبدو عليها اى انفعال لدى سماعها اسم الرجل .

_وسيادتك بتشتغل ايه؟

وهنا توقف الزعيم عن الرد ، والتقت الى الفتاة مستفسرا هو انت يابنتي ماتعرفيش مصطفى النحاس كان بيشتقل ايه ؟ !! وارتبكت الفتاة . وظهر انها لم تفهم مغزى السؤال ولم تعرف شيئا عن الرجل الذى يجلس امامها .. فسالها : انت متخرجة منين قال : من كلية الأداب .. قسم التاريخ .. وازداد حزن الرجل الذى أفنى عمره كله من أجل مصر.. ولم ينجب ولدا ولا بنتا .. وكان يعتبر كل أبناء مصر اولاده .. فسالها : وأنت تدرسين تاريخ مصر الم تسمعي عن رجل اسمه مصطفى النحاس ؟ !!

واحمر وجه الفتاة حُجلا وكانها تعتنر عن جريمة لم ترتكبها .. فطيّب الرجل خاطرها حتى انصرفت . من المسئول عن جريمة إهمال تاريخ هذا الرعيل من زعماء الوطنية المصرية ؟ ومن الذي يملك حق استمرار الحظر على تاريخ الزعماء في مناهج التعليم وبرامج الإعلام ؟ إن التاريخ ليس ملكا لحكومة معينة ، وليس حكرا على نظام بعينه يعبث به كيف شاء ، وجريمة العدوان على التاريخ تدفع الأجيال اللاحقة ثمنها خصوصا عندما تكتشف الخدعة التي تعرضت لها ، فتكفر بكل ما يقال لها ، ولا يظن التليفزيون انه يبث في نفوسنا روح الوقاء للخالدين عندما يصدع رءوسنا كل يوم بإحياء ذكرى بعض المشاهير ومعظمهم من المطربين والممثلين وكتاب الأغاني !! فليس هؤلاء هم رموز الوطنية التي تستحق التخليد ، فالناس تريد ان تعرف تاريخ زعمائها الذين جحدناهم احياء .. ونسيناهم امواتا ..

رجل فلاح

كان احمد حسين زعيم مصر الفتاة مطاردا من قبل سلطات الاحتلال البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه نجح في الافلات والهرب ، وقضى فترة طويلة مستخفيا عن الأنظار حتى ضاقت به سبل العيش ، فعزم على تسليم نفسه الى الحكومة . واستعرض اسماء بعض الوزراء ليختار من بينهم الوزير الذى يسلم نفسه اليه ، وهو مطمئن الى ان كرامته ستكون محفوظة ، ووقع اختياره على وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لاعتبارات ترجع الى زمالة قديمة بينهما في كلية الحقوق ، ورفع أحمد حسين سماعة التليفون ورد عليه فؤاد سراج الدين مهللا مرحبا وقائلا: انت فين ياراجل .. عاوزين نشوقك !! وقال الزعيم المطارد : وانا اريد أن اقابلك فقال الوزير: أذن تفضل في بيتي الآن أن شئت فقال احمد حسين : ساحضر الآن بشرط الا تعلم احدا بحضوري .. وركب احمد حسين سيارة ، تاكسى ، ، ومضى الى بيت فؤاد سراج الدين المواجه لبيت النحاس باشا رئيس الوزراء ، والشك يساوره في أن يعد له الوزير كمينا لاعتقاله . فلما لم يجد حول البيت شيئا مريبا سلم امره الى الله ودخل بيت سراج الدين واستقر في غرفة الإستقبال وقد غمرته الفرحة « فلم اكن اتصور ان سيكون الرجل امينا في تنفيذ وعده الى حد الا يخطر النحاس باشا مع انه كان يعلم ان هذا الموضوع في الدرجة الأولى من اهتمام رئيس الوزراء » .

وبعد حديث وُدى بين الزعيم الهارب والوزير المسئول عن الأمن استاذن سراج الدين من ضيفه لعرض الموضوع على النحاس باشا، وبعد فترة ـ كانها دهر ـ عاد الوزير ليَروى لضيفه تفاصيل اللقاء: لقد قلت للنحاس باشا إن عندى خبرا يسرك .. احمد حسين عندى ! فقال النحاس باشا : واين هو اريد أن اراه .. فقلت له : وهو ايضا يريد أن يراك .. ولكن قبل أن تتقابلا أريد أن اتفق معك ياباشا على وجوب اخلاء سبيله .. « فالاستاذ احمد حسين زميلي في الدراسة ، وضداقة المدرسة غندى اغلى ما اعتز به ، على أن هناك فوق ذلك كله ، أنني رجل فلاح ولقد جاء احمد حسين الى بيتى سجينا أو معتقلا حسين الى بيتى سجينا أو معتقلا

ابدًا .. وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله فليأذن لى أن أعود إلى الاستأذ أحمد حسين كى أساعده على الرجوع من حيث أتى .. ثم يعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله ..

مازلت اذكر الأثر الذي تركّته هذه الواقعة في نفسي عندما قراتها لأول مرة وأنا في مرحلة الصبا في كتاب (وراء القضبان) الذي اصدره المرحوم احمد حسين في سلسلة ـ كتب للجميع ـ عام ١٩٤٩، ورغم مرور ٣٥ سنة فلاتزال رموز هذا اللقاء المثير تشبع في وجداني إحساسا بالدهشة والسعادة .. وكلما مضي الزمن اتسعت دائرة الدهشة وضاقت دائرة السعادة ..! عكان المصريون في ذلك العصر يقيمون اعتبارا كبيرا للقيم والتقاليد والأخلاق ، وكانت قواعد اللعبة ـ بين الدولة وخصومها ـ مصونة من الطرفين ، لا يجرؤ احد على اختراقها وألا قوبل بالخزى والعار من جانب ضميره اولا ومن جانب الضمير العام ثانيا .. وجاء زمن خبا فيه صوت الضمير الى حد العدم .. وباتت القيم والتقاليد والأخلاق عملات قديمة غير قابلة للتداول ..

محكمة الثورة

کان

إلغاء دستور ۱۹۲۳ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ۱۹۵۳ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التي كانت قائمة

المستور كان خطا ثابتا في تاريخ الوقد ويسير في خط مواز الاستور كان خطا ثابتا في تاريخ الوقد ويسير في خط مواز لك احد من أجل الاستقلال، وكانت تضحيات الشعب ببقيادة الرقد في سبيل الدستور، وحمايته من العبث والعدوان، لا تقل روعة وجلالا عن التضحيات في سبيل انهاء الاحتلال، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية في عام ١٩٧٤ كان الوقد يحارب في جبهتين الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر، وإحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق، مما دعا الوقد الى خوض معارك دامية بلغت ذروتها في عهد اسماعيل صدقى، وقد تُوج كفاح الوقد الذاذاك بعودة دستور ١٩٧٣ في أواخر عام ١٩٣٥.

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع انها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الإكبر لكل الانقلابات والدسائس التي أدت الي الفساد السياسي ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت ان تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستوري الذى يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل لكى يؤدى أمامه اعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين الدستورية . ورغم أن انعقاد هذا البرلمان كان إجراء شكليا بحتا ولا يستغرق اكثر من بضع دقائق ، إلا أن الزمرة التي أحاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطني المعادين للوفد، وجدوا في عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلماني الذى بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد في طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية اداء اليمين أمام مجلس الوزراء، ووجدت القتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان، فقد شبجعت هؤلاء على الاستهانة

بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى في طريق الانفراد بالحكم، وفي نفس الوقت حققت لمستشاري السوء فرصتهم للانتقام من الوفد وإقصائه نهائيا عن حقه الشرعي في الحكم. وجاء الإجهاز على الدستور في ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اختاروا السير في الطريق نحو الديكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة اسابيع حتى اصدر مجلس قيادة الثورة في ١٧ يناير ١٩٥٣ أمرا بحل الأحزاب السياسية التي تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي، وازاء هذا المد الاستبدادي السافر ، قرر الوقد أن يخوض المعركة أيا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التي يواجهها ، وانها عناصر عسكرية بحقة تستند الى قوة الجيش، وانتهز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول في ٢٣ اغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه الى ضريح سعد والقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالأساليب التي اتبعتها في القضاء على الحرية والدستور والحياة النيابية، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة في التفاوض مع الانجليز بعد أن لفظت البلاد هذا الاسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتي تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس إن اماني مصر القومية قد أهدرت تماما على بد الحكام الجدد ، وحذر من مغية التفريط في حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يدبره لها اعداؤها في الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير .. وهو إن طال شنق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته أيدى الجماهير بكثافة ، وفي يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة في مسجد ابى العباس المرسى بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى فرضه البوليس حول المنطقة ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين . ولمواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفي لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن

طريق المحاكمات الثورية ، وفي ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة في مؤتمر جماهيرى بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذي كان يوصف بأنه « لسان الثورة وميزانها الحرارى » تحليلا لخط العنف الذي قررت الثورة المضي فيه. وبعد أن شن هجوما عنيفا على الوقد وزعامته فأجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال انها وقعت في أيدى مجلس الثورة وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبي والخونة الرجعيين في هذه البلاد ، ولكن صلاح سالم حذف -وهو يقرا الوثيقة المزعومة .. اسم الدولة الأجنبية التي تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها ان هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو « بث روح السخط ضد النظام وتشجيع الأفكار التي تنادى بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التي تؤدي الى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم أن العمل لقلب مجلس الثورة كان محددا له مدة اقصاها يوليو ١٩٥٤ . وأعلن في نهاية تلاوته لتلك الوثيقة قراران هامان يضعان سياسة الصرامة والشدة محل التطبيق هما: إعادة الرقابة على البرقيات الصحفية الواردة والصادرة من مصر ، كما أن الرقابة على الصحف داخل مصر « ستظل قوية تضع سيفها فوق كل رأس مخرب يريد تبلبل الأفكار " ذاكرا " اننا سنطهر بقوة وعزم كل ركن من أركان هذه الدولة ، ولن ننساك في هذا المضمار ياصاحبة الجلالة الصحافة » !! أما القرار الثاني فيقضى بتشكيل محكمة الثورة من عبداللطيف البغدادي رئيسا ، وأثور السادات وحسن ابراهيم عضوين .

وفى دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التى قراها صلاح سالم، يقول صلاح عيسى ان الوثيقة لم تنشر، ولم يواجه أيا ممن قُدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند اليها، ثم يصف هذه الوثيقة بانها نص للدراسات المشتركة التى جرت بين اجهزة السفارة الأمريكية ـ ومن بينها وكالة المخابرات المركزية ـ وبين اجهزة الامن الناصرية، على النحو الذى اشار اليه رجل المخابرات كوبلاند في كتابه (لعبة الأمم) [وكان هذا قريبا من مسرح الإحداث المصرية فضلا عن انه كان واحدا من المستشارين

المقربين لجمال عبدالناصر أنذاك] فقد ذكر انه في صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع في مصر بعد أن شعر السفير الأمريكي جيفرسون كافرى بالقلق على نظام عبدالناصر إذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر – في رأى وكالة المخابرات المركزية – بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة.

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها في جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب احمد حمروش الى ، أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوقد وبقايا الأحزاب السياسية ، .. ولما كان الوفد أخطر هذه الأحراب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذي لم يتعفف عن البداءة والابتدال ، ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت في التاكيد بأن ثقة الشعب به - التي تمثلت في حصوله على الإغلبية المطلقة في انتخابات ١٩٥٠ لم تكن في محلها، وفي الهجوم على النظام البرلماني وصولا الى تاكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان، وفي التشكيك في وطنية كل العناصر التي كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفي السعى لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو امام الجماهير شخصيات تافهة ، وفي هذا الصند نال زعيم الوقد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره، ولكن الضباط الأحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لإدراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشبيتهم من ان تؤدى محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف الشخصيي والسياسي معه ، إذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التي ظل النحاس يشغلها في نقوس الشعب المصرى منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد

وإزاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين، وابنه في حقل الجهاد ابراهيم فرج .

غصسم وحكسم

فی

الساعة العاشرة من صباح الأربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ مثل فؤاد سراج الدين أمام محكمة الثورة المشكلة برئاسة قائد الجناح عبداللطيف البغدادى وعضوية البكياشي أنور السادات وقائد الأسراب حسن

ابراهيم اعضاء مجلس قيادة الثورة بالإضافة إلى البكباشي زكريا محيى الدين الذي رأس مكتب الإدعاء يعاونه سنة اعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرون من وكلاء النيابة ، وكان صلاح سالم وهو يعلن امر تشكيل المحاكمة في المهرجان الشعبي بميدان علدين ، قد اقترح أن تعقد المحكمة في ميدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم يأخذ باقتراحه ، وقرر عقدها في مقر مجلس قيادة الثورة الذي كان فيما قبل مقرا لنادي اليخوت الملكية ، ويشغل أجمل بقعة على قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل ، وتنسلب أمواجه الرقيقة تحت عتباته في جمال ووعة وسكون

فى الطابق الثانى الذى خصص للمحكمة ارتفعت لافتة مكتوب على الطابق الثانى الذى خصص للمحكمة ارتفعت لافتة مكتوب عليها باللون الدموى (سكون) وتدلى على باب القاعة رقم ٨ المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الألوان، وكتب على الجزء الأبيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدران القاعة ايات قرانية تم اختيارها بعناية مثل «اقتلوهم حيث شقفتموهم» «وليجدوا فيكم غلظة» «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان».

وقد نص أمر تاليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادعاء القبض على المتهمين واخطارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل موعد المحاكمة بأربع وعشرين ساعة على الأقل، ولا يجوز تأجيل القضية لأكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٧ ساعة، ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة اليه، ولا يجوز المعارضة في هيئة المحكمة أو أحد أعضائها، كما أن أحكام المحكمة نهائية ولا تقبل الطعن بأي طريقة من الطرق أو أمام أية جهة من الجهات، وكذلك لا يجوز الطعن في اجراءات المحاكمة.

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف في كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة أشاعت الفزع والرعب في نفوس الناس ، ورغم أنه يقول إنه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لانها تجعل من قادة الثورة خصما وحكما في نفس الوقت ، فإن معارضته لم تمنعه من توقيع أمر تشكيلها والمشاركة في الزفة التي صاحبت ذلك بميدان عايدين .

وفى حين يذكر بعض الكتاب أن محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها فى سرية ولا يحضرها إلا أعضاؤها والمتهم وزكريا محيى الدين هو ومعاونوه، وأن المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجاة (!!) فإن أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الأولى يقول فى صدر كتابه إن رجال القانون والتشريع فى مصر كانوا يتهافتون على حضور هذه المحاكمات، وإنهم اعجبوا ببراعة المناقشات التى تدور فيها والاسئلة التى يوجهها اعضاء المحكمة كما لو كانوا من رجال القضاء العريقين (!!) ثم يصف المحكمة بانها ابتدعت نظما جديدة فى المحاكمات فهى تنجز فى ايام ما تنجزه المحاكم العادية فى شهور بل سنوات (!!) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين أنفسهم حتى إن بعضهم كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين أنفسهم حتى إن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (!!).

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين اطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٤٥ جلسة ، وكانت اقرب إلى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها إلى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمة إلى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أمورا خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحكمة ان حشدت رهطا من السياسيين القدامي الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، واخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسيء إلى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها في نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف باحدهم أنه تطرق إلى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكى يشترى حريته وينجو من المحاكمة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكي السابق حسين سرى الذي تبرع بفبركة قصة الديوان الملكي السابق حسين سرى الذي تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ، ١٩٥١ ، وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الاصيل من

المحاكمة ـ كما اعترف رئيسها فى مذكراته بعد ربع قرن ـ من أن القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

erector across be entry living for the erector and a series of the entry library entry entry

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الأحرار الذين عاصروا هذه الأحداث بمن فيهم المنتمون إلى حركة الجيش، فكتب أحمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذي يستحق الفخر في تاريخ الوفد .. إلى موقف يجلب البه العبب والأسف (!!) ووجهت الطعنة في غير موضعها، وإذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فإن وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التي كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نماذج لهذه الحقائق في مقدمة الجزء الأول من وقائع محاكمة سراج الدين ، وقال إن المحاكمة أزاحت السيار عن مواقف بطولة وهمية نسيها البعض لأنفسهم على حساب الوقد ومنهم زكى عبدالمتعال ـ الشاهد الذي أدانته محكمة الثورة في حكمها -وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراى فضلا عن صلاته الوثيقة بالدوائر الأمريكية ، كما افتضح موقف النائب العام الأسبق محمد عزمى من تحقيقات قضية الاسلحة الفاسدة التي ذهب بعض المؤرخين (الرافعي) إلى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصعبه تلبية لرغبة السراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعد انه هو الذي تواطأ - على غير

رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الأسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا في مرتب كبير

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لون وجنس مثل خيانة امانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الاسلحة الفاسدة. وبالاضافة إلى الجهد الخارق الذي بذله محاميه الوحيد وصديقه عبدالفتاح حسن باشا، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى في شجاعة فذة لفتت إليه أنظار المؤرخين، ووصفه بعضهم بأنه كان أشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية، وأنه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة فنجح في ذلك نجاحا نادر المثال بما يؤكد ذكاءه واقتداره السياسي.

ورغم أن رئيس المحكمة أظهر في بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له أن المحكمة لا تشك في نزاهتك ، وأيد الادعاء هذا الرأى ، ورغم وضوح تهافت الإتهامات المصوبة إلى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لأنه كان لابد أن يختفي من المسرح السياسي ليخلو الجو أمام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون إزعاج ، وعبر جمال عبدالناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا اليه بشان التصديق على الحكم فقال : «إن فؤاد سراج الدين كرجل سياسي ، يعرف لماذا حكم عليه .. ومتى سيشرج، .. وأوضح عبدالناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التي حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان، وهي تخضع لعاملين أحدهما خارجي وهو عودة الأحزاب السياسية في سوريا بعد الإطاحة بحكم العقيد الشيشيكلي، وهو الأمر الذي سبب ارقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبدالناصر بصفة خاصة ، لانهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم .. أما العامل الداخلي فهو أن جمال عبدالناصر كأن يستعد للقضاء على الاخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثورى.

وقد انجز عبدالناصر وعده .. ولم يغادر فؤاد سراج الدين السبجن إلا بعد أن أجهز عبدالناصر على الاخوان .. وخلُص له حكم مصر .

مجزرة طرة

فی

يوم السبت الحزين الموافق للفاتح من يونية ١٩٥٧ وقعت احداث هذه المجزرة في ليمان طرة:

كان هناك ١٨٠ من رجال الاخوان المسلمين يقضون عقوبة الأشغال الشاقة المحكوم عليهم بها من محاكم الثورة من اكتوبر ١٩٥٤ ، وكانت مصلحة السجون قد اتخذت بعض الإجراءات الإنسانية تمشيا مع سياسية تحسين حال المسجونين ، ومن بينها اعفاء المسجون من الصعود الى جبل طرة لتكسير الصخور بعد انقضاء سنتين من هذا العمل الشاق يحول بعدها للعمل في الورش داخل السجن ، ولما طالب الاخوان المسجونون بتطبيق هذا الإجراء عليهم كغيرهم من المسجونين العاديين فوجئوا بالرد عليهم بان قرار الاعفاء من الأشغال الشاقة لا يسرى على الاخوان!! عندئذ طالب الاخوان بعرض قضيتهم على النيابة العامة ، كما تقضى لائحة السجون ، فرفضت ادارة السجن . وفي صبيحة اليوم المشئوم اعتصم الاخوان في الزنازين ورفضوا الخروج إلى الجبل إلى أن يتحقق مطلبهم ، وانتدبوا اربعة منهم للتفاوض مع ادارة السجن ، وبينما المفاوضات جارية في المكاتب ، كان خبر الاعتصام قد تسرب الى المراجع العليا في الدولة فاصدرت قرارها التاريخي باستئناف سياسة الإبادة التي توقفت بعد مذابح السجن الحربي، وضرب الاخوان في الملعان .. !!

وتقدمت فرقة من السجانة ففتحت بعض زنازين الاخوان واحدة بعد واحدة واخرجت من فيها بالقوة وربطتهم في سلسلة جماعية ، وأدرك الاخوان انهم سوف يساقون قهرا الى الجبل ليفتك بهم رصاص الحرس،ثم يقال انهم كانوا يحاولون الهرب ! ولم يشا الاخوان أن يستسلموا كالذبائح أمام جلاديهم ، واستطاع احدهم أن يختطف المفتاح من الحارس واسرع إلى فتح الزنازين واخبر الاخوان بما يدبر لهم .

وحان وقت صلاة الظهر فاتجه الاخوان للوضوء والاستعداد للصلاة وفجاة تقدمت فصيلة من حرس السجون مسلحة

بالرشاشات وصعد الجنود السلم وتوقف نصفهم في ممرات الطابق الثانى بينما واصل الباقون صعودهم فاتخذوا مواقعهم في الطابق الرابع وصوب الجميع فوهات المدافع نحو الطابق الثالث ، ولم يابه الاخوان لهذا المشهد وظنوه مجرد تهديد ، ولم يخطر ببالهم أن يصل الغدر إلى حد قتل المسجون الأعزل وهو وديعة في رقبة الدولة ، عليها أن تحميه وتصون حياته بمقتضى الشرائع والقوانين والإعراف واللوائح والتقاليد والعدات والأخلاق .. !! ولائحة السجون نفسها تتضمن اجراءات لمعاقبة المسجون اذا ارتكب خطا أو امتنع عن العمل .. وليس بينها مالطبع قتل المسجون !!

وفى اللحظة الرهيبة دخل قائد السجن فاخرج مسدسه واطلق منه رصاصة كانت هى اشارة البدء انفتحت بعدها فوهات الجحيم على الاخوان الذين اصابهم الذهول والهلع والفزع وصاح احدهم ؛ لا تخافوا يااخوان .. هذا فشنك .. !! وقبل أن يكمل عبارته عاجلته رصاصة فى راسه فاردته قتيلا .. واخذ الاخوان يتساقطون .. ويتصايحون .. ويتدافعون نحو الزنازين للاحتماء يها .. ولكن الرصاص كان ينهمر عليهم كالمطر من النوافذ فيتساقطون بين قتيل وجريح .. وكان بعض الاخوان يوصدون الابواب بظهورهم فتصدر التعليمات بصب النيران على الابواب فيخترقها الرصاص فيصيب مقتلا ممن يقفون خلفها ، وكان بعض الضباط يضع فوهة الرشاش على نقب « النضارة » الموجود البلب ثم يفرغ خزانة الرشاش على من بالداخل .. وهناك تفاصيل يقشعر لها البدن يرويها جابر رزق في كتابه التسجيلي عن المذبحة .

وبعد ساعة توقف اطلاق النار، وغادرت فرقة الاعدام مبنى السمجن، ولكن عملية الابادة لم تتوقف فقد تقدمت فرقة أخرى من الإشاوس من حملة الشوم لتجهز على كل من يصادفها من الجرحى الذين تساقطوا في الممر وعجزوا عن الحركة، ثم تقدمت فرقة ثالثة فاقتحمت الزنازين واخرجت منها الجرادل والاواني والقت بها في ساحة العنبر حتى يبدو الامر امام المحققين وكانه حصاد معركة « أخوية » بين فصائل الاخوان، ولما وضحت سذاجة هذا

التفسير جاءوا برجال مباحث فى ثياب وكلاء نيابة وسجلوا أن الاخوان كانوا يعتزمون الفتك بحرس السجن .. رغم عدم وجود جريح واحد من السجانة .. وتقرر حفظ التحقيق وإسدال الستار على المجزرة التى راح ضحيتها ٢١ شهيدا و٢٢ جريحا .. وفقد بعضهم عقله من هُول ما راى ..

وفي اليوم التالى .. وتحت جنح الظلام كان هناك طابور حزين يغادر مبنى ليمان طرة تحت حراسة مشددة من البوليس ، وكان الطابور يضم ٢١ نعشا انطلقت بهم السيارات نحو جهات مختلفة من مصر ودفنوهم ليلا وكان شيئا لم يكن .

الفهرسيت

الصفحة	العوضيسوع	الرقم
٣	اھـــداء 	
٥	تقديم	
٧	بین بدی القاریء	
15	عنزة السيدة تقيسة	,
13	يا خفى الانطاف	۲
14	سنوات الحيرة	*
*1	نجم الزعامة المصرية	1
72	مهرجان الدم	٥
73	على موائد اللئلم	٦
YA	عبد مأمور	٧
۳۰	سياسة بلا اخلاق	٨
**	شارع سليمان باشا	4
T#	قتيل بثها العسل	1+
47	النبا السعيد	11
1.	حادث على النيل	14
27	ثاثر من الأزهر	14
27	فقراح الانجال	3.6
EA	قرعون الصنفير	10
	شيخ المنس	11
76	سقوط فرعون	17
oį	ذو الأصابع القولاذية	1.4
PT	توبار بأشا	11
05	ئيللى وتوابعها	٧.
17	میرابو مصن	YI
10	مجزرة همجية	**
3.4	حرق الاسكندرية	11
Y1	الشهيد البرىء	71
YE	أبوالدستور	Ya
YY	قصة مزعومة	77
V1	مسرحية متقنة	YV
AY	مذنب ام غیر مذنب	YA
٨٥	أمراء لكن شرفاء	74
٨٨	كيرلس الخامس	۳۰
٩.	الكنيسة المصرية	٣١
47	اغاخان فی مصر	44
10	قاطع طريق	۴۳
44	عابد البقرة	4.8
1+1	أولاد تيمور	70
1.5	العفريت	**
		• •

الصفحة	الموضيسوع	الرقم
1.0	غرام الشيوخ	**
1.4	عاشقان جريتان	47
111	أبوخطوة يقلب المسائدة	44
115	إضراب القضاة	٤٠
117	نهاية الماساة	٤١
171	أدب البصىل	£ Y
1 77"	سعد زغلول الافغانى	73
177	بين ثورتين	ŧ£
179	ثورة النساء	٤o
144	شهيد اسيوط	٤٦
140	دولت غهمى	٤٧
ነተል	نموت وتحيا مصس	٤A
111	بنك مصبي	٤٩
\££	سنعار المصرى	••
187	الوزارة الشعبية	91
10.	حزب العرش	٥Y
105	وفدية سعدية	۴۰
107	لطمة مملوكية	οŧ
109	نزاهة النحاس	00
177	اليد الحديدية	70
170	حادث سرقة	٥٧
178	أمير في العنفي	٥A
171	بسراءة	٥٩
174	قى خندق الشعب	7.
171	انقلابات دستورية	71
174	أكبس وأس فسى البسلاد	7.7
TAT	البرلمان في الإغلال	٦٣
140	مذبحة في المنصورة	7 £
۱۸۸	مروءة نادرة	7.0
141	المجاهد الزاهد	77
144	المىيف السلخن	٦٧
148	على رصيف بنى سبويف	٦٨.
711	اكذوبة رخيصة	74
7.7	صاحب المقام الرفيع	٧-
Y+ \$	النحاس إسيرا	٧١
7+7	رجل فلاح	٧Y
Y•A	محكمة الثورة	٧٣
Y 1 Y	خصم وحكم	٧í
717	مجزرة طرة	٧٥

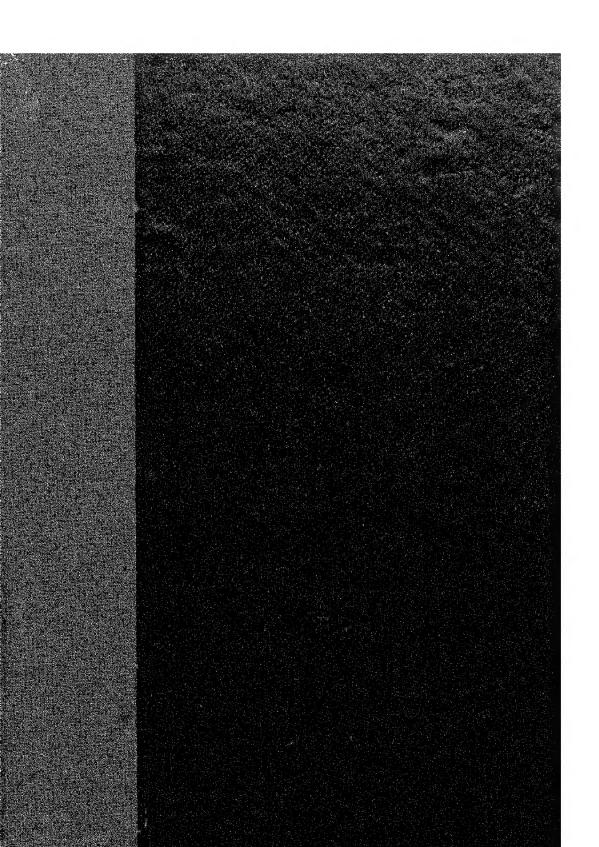


الكتاب .. والمؤلف

يعرض هذا الكتاب ٧٥ مشهدا من تاريخ مصر الحديث في أسلوب جذاب .. وتحليل شيق .. يرضي هواة القراءة العميقية والبحث الدقيق .. ويلقى الضوء على أحداث هامة وشخصيات مرموقة كان لها دورها في تاريخ مصر،

والكتاب في مجمله يقدم ثقافة تاريخية لا غنى عنها للجيل الحديد .

والمؤلف هو الكاتب الصحفى جمال بدوى مدير تحرير (الوفد) الذى تخصص فى الدراسات التاريخية ، وقد سبق أن قدم للمكتبة العربية كتاب (الفتتة الطائفية فى مصر جدورها واسبابها) وكتاب (يوميات صائم) وكتاب (شهداء وضحايا من تاريخ الاسلام) فضلا عن العديد من البحوث الاسلامية والتاريخية المنشورة فى الصحف المصرية والعربية .



To: www.al-mostafa.com